فرانز فانون

سوسيولوجية ثورة

ترجمة

ذوقان قرقوط





سوسيولوجية ثورة

فرانز فانون

سوسيولوجية ثورة

ترجمة
ذوقان قرقوط

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الطبعة الاولى

كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠

على هامش الترجمة

فرانز فانون ، مؤلف هذا الكتاب ، زنجي ، من المارتينيك وهي جزيرة صغيرة من الانتيل الفرنسية . مستعمرة منذ عام ١٦٣٦ وقد اصبحت مقاطعة فرنسية منذ عام ١٩٤٦ ، ارضاً فرنسية يحمل سكانها الجنسية الفرنسية، كما كانت الجزائر ، وكما كان الجزائريون . وقد درس فانون الطب في جامعة ليون بفرنسا وكان نبوغه واضحاً مرموقاً بين زملائه واساتذته ، إلى جانب مشاركته في نضال ابناء المستعمرات . ولما تخرج عين طبيباً للأمراض العقلية في مستشفى بليدة في الجزائر ، وهي أحد معاقل الوطنية في الجزائر. وبهذا وجد نفسه مرة اخرى في بلد شديد الشبه ببلده وبين شعب يعاني افراده مذلة وجود الاستعمار وهوانه يومياً مثلما يعاني هو وشعبه من الاستعمار . وبما وُهب من افق واسع وعقل نيّر وثقافة غنية وشعور متقد وحدس قوي ومنهج سليم في البحث والتقصي ، ادرك من دراسته لمرضاه في مستشفى بليدة اشياء عميقة سوف تبقى كتاباته فيها رائدة زمناً طويلاً .

لقد ادرك ان الاستعمار يشوه الطبيعة الانسانية وهو ان لم يستطع ان يمحق الانسان المستعَمر نهائياً ويقتلع منه جذور ثقافته فانه يضيّعه ويضطره على الاقل ، الى الانغلاق على نفسه والاحتماء بأشكال من الثقافة بالية .. بل يضطره

الى الامتناع عن الأخذ بأرقى اشكال الحضارة الحديثة اخـذاً سليماً عفوياً ، طليقاً ، لا بل يضطره الى الحقـد عليها والازدراء بها وبالتالي الى ان يقبل بالعيش خارج الزمن وخارج التاريـخ . واذا كان الاستعمار في البداية غـير مسؤول عن تأخر الشعوب المستعمرة فأنه هـو المسؤول عن التخلف القائم في العالم الثالث وعن بقاء هـذا التخلف ، وهو العائق الاساسي في وجه التقدم .

وعندما اندلعت شرارات الثورة الجزائرية وشاهـد تجاوب الشعب معها وكيف ان هذا الشعب بالحاح مقتضيات الثـورة ، أي بالحاح رغبته العميقة في الاستقلال ، في التحرر الصحيح ، في ان يكون انساناً بأرادته ، بدأ يستمع الى الاذاعـة ، او يتبنى السفور أو يُقبل على التداوي وتناول العلاج بانتظام أو يُجيز جلوس البنت فيحضرة الأب أو في حضرة الأخ الاكبر ، أو يقبل بانخراط المرأة فيالمقاومة بل ويفتخر بذلك بعد أن رفض هذا المجتمع دعوة رجل الاحتلال له بالسفور فضاعت جهوده هباء ، وبعد ان كان يرفض الطب ويقبل على العقاقير والاحجبة ، وينبذ الاذاعة ويأبى الاستماع اليهـا ويبيح تواجد البنت مع الأب او الأخ الأكبر. ورأى فانون بالثورة كيف انقطع النواح والعويل والولولة وشق الثياب على الميت وتخديش الوجوه . فالموت من مرض عولج وكوفح كان في ظروف متجانسة ينتزع أو يهيج آلية عاطفية فيعالم محدد وسوى. إلا ان الموت الآن ، في الثورة اصبح قتلاً بالجملة . تجتـاح فرقة من الجنود محلـّة أو حياً أو قرية ، للتسلية أو للقمع فتحصد ببنادقها الرشاشة خمسة أو عشرة رجال . فلا يجد الانسان في هذه الحالة وامام هذا المشهد إلا ان يكظ على اسنانه ويصلي بصمت ، ولا يبقى امامه سوى خطوة اخرى حتى يصل الأمر بـه الى اطلاق صرخات الفرح ،الى الزغاريد التي تنطلق تحية لاستشهاد « المجاهد » الذي سقط في ساحة الشرف .

من هنا كان موضوع هـذا الكتاب الذي كان عنوانه « الثورة الجزائرية في

عامهـا الخامس » أو دراسة اثار الثورة على المجتمع . فهو في الحقيقة ينطلق من الايمان بان الثورة تحمل الى النفوس البرء والطهر ويستطيع المجتمع بها التحلل من ادران الجمود والتأخر فاذا به ، باندفاعة جديدة ، ينضو عنه اوهامـاً مزمنة وافكاراً بالية ويتصل مباشرة بينبوع الحياة المتجدد ، فينبعث فيه تاريخه دفقاً حياً يدفعه الى الامام بعد ان كان عبئاً عليه يشده الى الخلف واذا به ، وهو الذي عاش قروناً في جمود حتى ظُنّ فيه العقم ، لا يتبنى أكثر اشكال الحضارة تقدماً فحسب وانما يضع قيماً جديدة ويبنى حضارة ويتكشف عن قـدرة فائقة على الاتقان وقابلية مذهلة للتجدد والتطور والحياة. ولهذا يبقى هذا الكتاب جديداً، انه جديد لأنه ، وهو يطبق اثر الثورة ومقتضياتها على المجتمع الجزائري ، كأنه يصف ويحلل الثورة الفلسطينية اليوم في كثير من وجوهها . دور المرأة في هذه الثورة ، دور الاذاعة مثلاً أو دور الفدائي واهمية العمل الفدائي : « فعلى نقيض الرجال غـير الاسوياء ، الفوضويين الذين شهرتهم الاداب ، فان الفدائي ... لا يتعاطى المخدر ؛ فما به من حاجة لان يتجاهل الخطر ولان يموه على ضميره أو يتناسى . و « الارهابي » ما ان يقبل القيام بمهمة ما حتى يترك الموت ينساب إلى روحه . ذلك انه يضرب موعداً منذ ذلك الحين مع الموت. أما الفدائي نفسه فان موعده يكون مع حياة الثورة وحياته ذاتها ... » .

ولقد وجد فانون نفسه في ثورة الجزائر لذلك قـدم استقالته عام ١٩٥٧ من رئاسة مستشفى الامراض العقلية في بليدة في رسالة رائعة تبين وجهـة نظره في جريمة الاستعمار على انسانية الانسان وانضم الى الثورة الجزائرية مؤمنـاً بأن لا ثقافة ولا فكر صحيح للرجل المستعَمر الا في اطار حرية امته وسيادتها ، وأن معركة الشعوب المستعَمرة واحدة ، يجب ان تخوضها للتحرر في كل مكان . ان مغريات التأمل السادر ولذاذات التذوق الفني ونشوة البحث العلمي أمور تقود المثقف المستعَمر الى الضياع. والفكر الصحيح هو ما ينبع من موقف العنف من الاستعمار .. وكان هذا الموقف الذي توصل اليه فانون من خـلال ثورة الجزائر

موضوع خطابه الرائع الذي القاه في مؤتمر تضامن الشعوب الاسيوية الافريقية في اكرا ، باسم الجزائر الثائرة وعبّر فيه عن ايمانه بان العنف هو السبيل الوحيد الذي يجب ان يسلكه المستعمَرون للتحرر ، وهو الباب الوحيد الذي يستدرك منه المستعمَر انسانيته المفقودة، المهانة ، المذلـّة. وما إن يقف الرجل المستعمَر موقف العنف من رجل الاحتلال ويهب مزمجراً في وجهه حتى يدرك بأنه يفوقه انسانية وان كل ما كان يتشدق بـه المضطهدون المستغلون من كلام عن الحرية ومثل واخلاق لا محتوى له وان الثائر هو القـادر على ان يعطي لهذا الكلام محتواه .

وهكذا كان هـذا المثقف الزنجي، المارتينيكي مثالاً رائعاً في تمثيله لثورة الجزائر قولاً وعملاً ، في اماكن المقاومة وفي المؤتمرات على حـد سواء . وفي الحقيقة ان جسمه أي مرضه هو الذي اضطره الى التخلي عن مواقع العمل الثوري الأولى في المعركة فرضي بالانسحاب الى حيث لا يستطيع ان يستعمل إلا فكره.

وكان سرطان الدم – الذي اصيب به – يمكنه وهو يدب في جسم الانسان ان يوهن أي فكر غير فكر فانون وتخبو من جرائه جذوة الحياة وتتراخى الهمم في أي شخص ليست له بسالة فانون وثقافته الفذة القوية وايمانه المتقد وانسانيته العميقة إلا ان شجاعة فانون النادرة مكنته وهو يغالب هذا المرض الشنيع بين مستشفيات سويسرا وواشنطن ، من ان ينهي على فراش الموت كتابه (معذبو الارض) الذي يعتبر بحق دليلاً للثورة في بلدان العالم الثالث. ومن تونس حيث نقلت الطائرة جثمانه اجتاز به المجاهدون الحـدود مكفناً بالعلم الجزائري ، الى التراب الجزائري الى مرابض « المقاتلين » ليدفن حيث اراد .

في هذا الوقت ، بعد امتحان النكسة ، بعد فترة الضياع والتمزق ... في الوقت الذي نحس فيه بأن حيازة بندقية أو عضويـة في منظمة ثورية أو في

جيش عربي مقاتل من أجل التحرير ، هي انبل واشرف واروع فرصة بل هي الفرصة الوحيدة امام الشاب العربي لكي يعطي معنى لموته ومعنى لحياته ... في هذا الوقت لعليّ اكون بتقديمي لهذا الكتيب ، بقلم كاتب أقل ما يمكن ان يقال فيه انه دلالة على اصالة الثورة العربية وانسانيتها ، قد قدمت اشارة على الطريق ، وأقل ما يجب .

ذوقان قرقوط

المقدّمة

تدخل حرب الجزائر ، بعد قليل ، في عامها السادس . ولم يكن بيننا ، في الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ ، ولا في العالم كله ، كذلك من يظن بأن الاقتتال كان يجب أن يستمر ستين شهراً ، قبل الحصول ، من الاستعمار الفرنسي ، على فك اسار ضغطه عن الشعب الجزائري واعطائه حق الكلام .

فبعد سنوات خمس من الكفاح لم يطرأ أي تعديل سياسي . ولا يزال المسؤولون الفرنسيون مستمرين في مناداتهم بأن الجزائر فرنسية .

لقد عبأت هذه الحرب الشعب الجزائري بأكمله ودعته إلى حصر مدخراته ومصادر ثروته وقوته الدفينة ، دفعة واحدة . فلم يسمح لنفسه بالراحة ، إذ أن الاستعمار ، الذي يستجمع لمواجهة قواه ، لم يدع له أية فرصة لذلك .

وحرب الجزائر هذه أشد هولاً من أي حرب خاضها شعب لتحطيم الطغيان الاستعماري .

ان خصوم الثورة الجزائرية مولعون بالتأكيد على انها ثورة سفاكين للدماء . أما الديموقراطيون الذين كانت تحظى بعطفهم فيرددون على مسامعها ، بأنها قد اقترفت بعض الاخطاء .

لقد حدث أن خالف ، في الحقيقة ، مواطنون جزائريون توجيهات الهيئات

القيادية وان كثيراً من الأمور مما كان يجب تجنبه قد جرت على أرض الوطن .إلا أنها كانت تتعلق دائماً تقريباً بمواطنين جزائريين آخرين .

ألم توجه الادانة إلى تلك التصرفات التي كانت تجـــازف في تشويه حقيقة معركتنا ؟ ألم يأت السيد فرحات عباس ، رئيس مجلس الوزراء ، في الحكومة الشعبية لجمهورية الجزائر ، علناً ، على ذكر الاجراءات المتخـذة من قبل قيادة الثورة والتي كانت ، احياناً ، تصل حد الاعدام ؟

ومع ذلك فمن لا يدرك من الناحية النفسية تلك السورات الغضبى ،المفاجئة ضد الخونـــة أو مجرمي الحرب ؟ فان الرجال الذين خاضوا الحرب في الجيش الفرنسي الأول قد ادخروا الاشمئزاز ، شهوراً كاملة ، لهؤلاء الذين يحرصون على تحقيق العدالة في الساعة الأخيرة ، الذين يفرغون رصاصهم في صدور المتعاونين. فالذين خاضوا غمـــار الحرب في جزيرة إلبا وفي معركة ايطاليا وفي النزول في طولون ، ثارت ثائرتهم لتلك التصفيات المؤدية الى قتل الاخوة وهي غـير عادلة وكثيراً ما كانت تجري ، على نحو مخجل . إلا أنه ليست في ذاكرتنا أية ادانة موجهة لمقاومين سريين على تنفيذهم الاعـدام بالجملة ، وفي مدنيين ، عزل من السلاح ، وهم يخرجون من تحت التعذيب.

بيد أن جبهة التحرير الوطنية لم تخش ، في اللحظات التي كان الشعب يعاني فيها من أشد الهجمات الاستعمارية حدة ، من الغـاء بعض اشكال العمل وتذكير الوحدات المنظمة ، على الدوام ، بقوانين الحرب العالمية ذلك ان الشعب المستعمَر ، يجب عليه ، في حرب تحريرية ، أن يكسب ، ولكن ، يجب عليـــه ان يفعل ذلك بنظافة ، وبدون « همجية ». **فان الشعب الاوروبي الذي يعذب ، هــو شعب ساقط خائن لتاريخه . امــا الشعب المتخلف الذي يعذب فانه يؤكد طبيعته ، يقوم بوظيفته كشعب متخلف** . ويكون الشعب المتخلف مضطراً ، اذا هو لم يشأ أن تحكم عليـــه « امم الغرب » اخلاقياً ، الى أن يمارس عملاً

مكشوفاً ، نظيفاً في الوقت الذي يكون خصمه فيه ممعنا ، وهو في راحة من ضميره ، وراء اكتشافات وسائل جديدة من الرعب لا حد لها.

وعلى الشعب المتخلف ان يبرهن ، بقوة معركته ، على قابليته لان ينصب من نفسه ، بصفته يشكل أمة ، قاضياً على نفسه ، وان يبرهن في الوقت ذاته بنقاء كل حركةمنحركاته ، وحتى في التفاصيل الدقيقة ، على أنه الشعب الاكثر صفاء واكثر تحكماً بزمام نفسه ولكن هذا كله أمر جد عسير .

وعلىحين كان أكثرمن ثلاثين مقاتلاً وقد طوقوا فاستسلموا بعد أن استنفذوا ذخيرتهم وقاتلوا بالحجارة ، يعدمون أمام القرية في منطقة مسكرة منذ ستة شهور على وجه الدقة ، فان طبيباً جزائرياً كان يقوم بتنفيذ مهمة الذهاب الى الحدود دون توقف لاحضار أدوية من أجل سجين فرنسي ، كانت وحدها قادرة على وقف تطور مرضه . وقتل اثناءها مقاتلان جزائريان . وفي مرات أخرى كان الأمر يقتضي تخصيص جنود في مهمة لاشغال العدو لكي يتمكن جماعة من الاسرى من الوصول سليمة الى السجن المشترك في المنطقة .

نشر الوزيران الفرنسيان : لاكوست وسوستيل ، صوراً ، بقصد تشويه قضيتنا . يبين بعضها اموراً يسند القيام بها الى اعضاء في ثورتنا . وتتعلق الاخرى بآلاف الجرائم التي اقترفها بلّلوني والحركيون ، المسلحون من قبل الجيش الفرنسي . واخيراً ، وبخاصة ، فيها تلك العشرات من آلاف الجزائريين والجزائريات ممن وقعوا فريسة الجيش الفرنسي .

كلا ، فليس صحيحاً ان تكون الثورة الجزائرية قد مضت بعيداً الى هذا الحد الذي بلغه الاستعمار .

ولكننا لا نقر،لأجل هذا، بشرعية ردود الفعل المباشر من قبل مواطنينا . اننا نفهمها ، ولكنا لا نستطيع أن نبررها ولا ننبذها .

ولإننا نبتغي جزائراً ديموقراطية ومتجددة ولأننا نعتقد بأنه لا يمكن للمرء

ان ينهض ويتحرر في ناحية مـــا وينحط في ناحية أخرى ، فإننا ، والقلب يعتصر المـــاً ، نحكم على الاخوة الذين اندفعوا في العمل الثوري بضراوة تكاد أن تكون فيزيولوجيـة ، يولدهـا ويرعاها اضطهاد مزمن بعمر العصور .

ان الناس الذين يدينوننا أو الذين يأخذون علينا تلك الحواشي السوداء في الثورة ، يجهلون مأساة الرجل المسؤول ، المريعة ، الذي يجب عليـــه أن يوقع عقوبة ضد وطني مذنب مثلاً ، قتل خائناً مشهوراً ، دون أن يكون قـد تلقى الأمر بذلك ، أو لانه ارتكب أمراً اكثر خطورة ، أدى الى قتـــل امرأة أو طفل . وهذا الرجل الذي يجب أن يحاكم دون الرجوع إلى محاكمات ودون قانون وانما بالاستناد إلى الضمير وحده الذي يختلج به صدر كل فرد بما يجب عمله ومـا يجب أن يكون ممنوعاً ، ليس رجلاً جديداً في جماعة المعركة . لقـد سبق له أن قدم ، منذ عدة شهور براهين لا تدحض، في نكران الذات والوطنية والشجاعة. ومع ذلك فيجب أن يحاكم . ويجب على المسؤول ، الممثل المحلي للتنظيم القائد ، ان يطبق التعليمات . وعليه احياناً ، أن يكون هو المدعي أيضاً ، باعتبار أن اعضاء الوحدة الآخرين لم يتقبلوا عبء اتهام هذا الاخ أمام المحكمة الثورية .

انه ليس من السهل ، بأقل قدر ممكن من الاخطاء ، قيادة كفاح شعب ، قد زعزعته بقسوة، مائة وثلاثون سنة من السيطرة، ضد عدو حازم وضار إلى هذا الحد ، كالاستعمار الفرنسي .

كانت السيدة كريستيانا ليلستيرنا ، وهي صحفية سويدية قـد تحدثت ، في معسكر ما، مع آلاف من اللاجئين الجزائريين . وهذا هو مقطع من دراساتها:

« وكان الذي يلي في السلسلة ، صبياً في السابعة من العمر ، موسوماً بجروح عميقـة حدثت نتيجة ربطه بسلك فولاذي ، بينما كان الجنود الفرنسيون يذلون ويقتلون اقاربه واخواته . في حين وقف ضابط يمسك له عينيه مفتوحتين بالقوة

على المشهد لكي يراه ويتذكره طويلا ...

« وهذا الطفل ، حمله جـده خمسة أيام وخمس ليالٍ بطولها حتى اوصله إلى المعسكر .

« ويقول الولد : انني لا اشتهي إلا شيئاً واحداً : وهو أن اتمكن من تقطيع جندي فرنسي إلى قطع ، إلى نتف صغيرة جداً » .

فهل ثمة من يظن إذن أنه من السهل جعل طفل في السابعة من عمره يصل إلى نسيان قتل اقاربه وثأره الضخم في وقت واحد معاً ؟

وهل تكون هنا في هذه الطفولة اليتيمة التي تترعرع في جو يوحي بنهاية العالم ، الرسالة التي تخلفها الديموقراطية الفرنسية بكاملها ؟

ولم يكن ثمة من يفترض بأن فرنسا سوف تهب للدفاع خطوة فخطوة ، لمدة خمس سنوات ، عن هذا الاستعمار الوقح الذي يقف نظيراً في شمال القـارة الافريقية لزميله في جنوبها . بل وأكثر من هذا لم يكن أحد ليشك بأن الشعب الجزائري سوف يحتل في التاريخ مكانة بهذا القدر من الرسوخ .

كذلك على المرء أن يجنب نفسه الاوهام . فان الاجيال المقبلة ليست أكثر ليناً ولا أشد تعبـاً من التي ولت الادبار . بل على العكس ثمـة تصلب ، وارادة وجود على مستوى « الابعاد التاريخية » ، واهتمام بالا يفرط ، بمئات الآلاف من الضحايا . وثمـة تقدير صحيح ايضاً لابعـاد الصراع وللصداقات وللتضامن وللمصالح وللتناقضات في دنيا الاستعمار .

« أن حيازة بندقية أو عضوية جيش التحرير الوطني ، هي الفرصة الوحيدة المتبقية امام الشخص الجزائري ، لكي يعطي معنى لموته . ذلك أن الحياة في ظل السيطرة قد غدت منذ زمن طويل خالية من المعنى ... » .

وعندما تكون مثل هذه التصريحات صادرة من اعضاء في الحكومـة

الجزائرية ، فإنها لا تفصح عن خطأ في الحكم أو عن روح « المضي حتى النهاية » وانما هو التثبت العام من الحقيقة .

ثمة وضع في الجزائر ، فيما يتعلق بالشعب الجزائري ، لا يمكن الرجوع عنه. وقد تأكد الاستعمار الفرنسي بنفسه من ذلك ، إلا أنه يحاول في فوضوية ، التلاؤم مع الحركة التاريخية . ولهذا يجلس ثمانون نائباً جزائرياً على مقاعد الجمعية الوطنية الفرنسية . ولكن هذا لم يعد اليوم يجدي شيئاً .

كان المتطرفون في تدعيم السيطرة الاستعمارية قد وافقوا على المدرسة الثانوية الوحيدة، ولكن هذا يبدو في عام ١٩٥٩، هزلاً لاذعاً بالنظر الى التدابير الهائلة التي اتخذها الوعي الوطني الجزائري . فاستطلعوا رأي أية امرأة أو أي رجل على وجه البسيطة واسألوها وأسألوه عما اذا لم يكن الشعب الجزائري قد صار حاصلاً على حقه في الاستقلال عشرين مرة .

ففيما عدا هؤلاء الفرنسيين الذين جروا بلادهم الى هـذه المغامرة المرعبة ، لا يوجد أحد في ١٩٥٩ إلا ويتمنى نهاية هـذه المذبحة وولادة **الوطن الجزائري** .

ولكن اخيراً ، ليس هناك أي مخرج بارز للعيان ، بل نحن نعلم بأن الجيش الفرنسي يعد سلسلة من الهجمات في الشهور القادمة . والحرب مستمرة .

يحق للناس والحالة هذه ، أن يتساءلوا عن اسباب هذا العناد ومن واجب المرء ان يفهم هذا التوغل في الحرب الذي يذكر ، من جهات عديـدة بحالة الرضى في المرض ، وفي هـذه الدراسة الأولى ، نود أن نبرهن على ان مجتمعاً جديداً قد ولد على الارض الجزائرية . فان رجال ونساء أيامنا هذه، في الجزائر لا يشبهون ، اولئك الذين كانوا في عام ١٩٣٠ ولا الذين كانوا عـام ١٩٥٤ بل انهم صاروا لا يشبهون الذين كانوا عام ١٩٥٤ بل إنهم لا يشبهون الذين كانوا عام ١٩٥٧ . ان الجزائر القديمة قد ماتت .

ان كل هذا الدم البريء الذي تدفق غزيراً من الشرايين على ارض الوطن قد عمل على انهاض انسانية جديدة ويجب الا يجهل هذا الحدث انسان .

وبعد ان اكدت فرنسا انها « سوف لا تسلم مليوناً من ابنائها للعرب » فانها اليوم تنادي بأنها لن تتخلى ابداً عن الصحراء وعن مواردها . وليس لمثل هذه الحجج بالطبع أية قيمة بالنسبة للجزائر . وهــذا ما يؤكد ، في الواقع ، على أن ثروة بلاد ما ، لا يمكن ان تشكل مبرراً لاضطهادها .

ولسوف نبين بأن شكل الكيـان الوطني ومحتواه قد اصبحا موجودين في الجزائر وأن أية نكسة الى الوراء لا يكون في الوسع مواجهتهـا . وبينما نجد في كثير من البلاد المستعمرة ان الاستقلال المكتسب بواسطة حزب هو الذي ينبه بالتدريج ضمير الشعب الوطني المشتت ، فان الوعي الوطني في الجزائر والبؤس والرعب الجماعي هي الامور التي تجعل من امتلاك الشعب لقدره امراً محتماً .

لقد اصبحت الجزائر ، مستقلة بالقوة ، قبـــل الفعل . وصار الجزائريون يعتبرون انهم سادة انفسهم .

ويبقى على فرنسا أن تعترف بها . وهذا هو الأهم ، صراحة . ولكن هذا الوضع مهم ايضاً ، ويستحق أن يكون معروفاً ذلك أنـه يحد بصورة اساسية ، في آمال الاستعمار الفرنسي العسكرية أو السياسية .

فلماذا لا تضع الحكومة الفرنسية حداً لحرب الجزائر ؟ لماذا ترفض المفاوضة مع اعضاء حكومة الجزائر ؟ هذه هي الاسئلة التي لا يرى الرجل الشريف ، في عام ١٩٥٩ بدا من طرحها على نفسه .

وليس كافياً ان يقال بان الاستعمار ما يزال قوياً في فرنسا . وليس كافياً بأن يقال ان الصحراء قد عدلت معطيات القضية .

كل ذلك صحيح . ولكن ثمة شيء آخر في الأمر . اذ يبدو لنا ان العقـدة الرئيسية التي تترنح بإزائها الارادات الطيبة والحكومات الفرنسية هي الاقليـة

الفرنسية . ولهذا السبب فإننا قد خصصنا لهذه المسألة فصلاً كاملاً.

الجزائر هي مستعمرة استيطان . وآخر مستعمرة للاستيطان جعلت الناس يتحدثون عنها هي افريقيا الجنوبية . والاتجاه الذي تسير فيه معروف .

ان الاوربيين في الجزائر لم ييأسوا ابداً ، تمام اليأس من أن يقطعوا الصلة بفرنسا ومن أن يفرضوا على الجزائريين قانوناً لا يرحم وهذا هو المحور الثابت الوحيد في السياسة الاستعمارية في الجزائر . وقد غدا الجيش الفرنسي اليوم يقف إلى جانب هذه الفكرة . ومن أجل هذا يجب الا تؤخذ شائعات السلام التي تنطلق من هنا وهناك ، على محمل الجد .

ولسوف تسالم فرنسا في الجزائر أما بتشديد قبضتها على الجزائر **أو بتحطيم الاقطاعيات الاوروبية في الجزائر.** وفيما عدا هذين الحلين يجب أن يفرض السلام عليها ، أما دولياً من قبل هيئة الأمم أو عسكرياً بواسطة القوى الجزائرية .

من الواضح اذن ان السلام لن يتحقق قريباً . ولسوف نبرهن على أن فرنسا لا تستطيع اعادة سيطرتها على الجزائر ، حتى وان كان لا بد لهذه السيطرة من أن تكون مخففة أو مستترة . ذلك أن الحكومة الفرنسية ملزمة بالوقوف في وجه بضع مئات من مجرمي الحرب أو بالعمل شيئاً فشيئاً على اخفاء جريمة ابادة شعب ترتكب في الجزائر .

ان السلطات الفرنسية لا تضحكنا عندما تصرح بأن : «العصيان مؤلف من حوالي خمسة وعشرين الفا ». فماذا تساوي الأرقام جميعها في مقابل القوة المقدسة الهائلة التي تبقي على شعب باكمله في حالة الجيشان ؟ وحتى لو امكن الاثبات بأن قوانا لا تتجاوز الخمسة آلاف رجل ، مسلحين تسليحا سيئا فما هي القيمة التي يمكن ان تكون لمثل هذه المعرفة ؟ طالما لا زلنا نستطيع بواسطة مليون سلاح ان نصنع المتكدرين والساخطين . فان مئات الآلاف من الجزائريين الاخرين

والجزائريات سوف لا يغفرون للمسؤولين عدم تجنيدهم وابقاءهم عزلاً من السلاح.
وماذا تكون الحكومة الجزائرية لو لم يكن وراءها الشعب الجزائري .

ولقد اعترفت السلطات الفرنسية ، رسميا ، منذ عهد قريب بوجود مليون جزائري ، حولوا من امكنتهم ، ثم جمعوا من جديد . كان يراد بذلك فصل الجيش عن الشعب ، أو انه ، على ما يبدو كان يراد تجنب « تعفن الجزائر » .
ولكن الى أين يمكن المضي ؟

مليون رهينة محاطة بالاسلاك الشائكة ، فاذا بنذير الخطر يصدر من جانب الفرنسيين : « فان الادوية لم تعد تؤثر على هؤلاء المجمعين لعمق ما انحـــدر اليه انحطاط قواهم الفيزيولوجية » . وماذا بعد هذا ؟ ان الاستعمار يقاتل لكي يدعم سيطرته ويمعن في الاستثمار الانساني والاقتصادي. وهو يقاتل أيضا لكي يحافظ على بقاء الصورة المماثلة في ذهنه عن الجزائري والصورة المحتقرة الموجودة في ذهن الجزائري نفسه عن نفسه ، متماثلتين . حسنا ! لقد غدا هـذا مستحيلاً ، منذ زمن طويل .

لم يعد الوطن الجزائري تطلعا مقبلا. وهو ليس ثمرة تخيل غامض، جبلت من الاوهام . فإنه اصبح في صميم الرجل الجزائري الجديد نفسه . إذ **ثمة طبيعة جديدة** للرجل الجزائري ، حجم جديد لوجوده .

ان الفكرة التي تتطلب من الناس أن يتبدلوا في ذات الوقت الذي يبدلون فيه العالم ، لم تكن ابداً ظاهرة على هذا النحو الواضح إلا في الجزائر . وبيان القوة هذا لا يصيغ الشعور الذي يمتلكه الانسان عن نفسه صياغة جديدة فحسب وانما تصبح الفكرة التي يصنعها لنفسه عن سادته القدامى أو سادة العالم في متناول يده اخيراً .

فان هـذا الكفاح ، على مستويات مختلفـــة ليجدد الرموز ، والاساطـير

والمعتقدات وقابلية الشعب للانفعال لذلك فإننا نشاهد في الجزائر استئنافاً لمسيرة الانسان .

فمن ذا الذي يستطيع أن يأمل في ايقاف هذه الحركة الأساسية ؟ أليس الأفضل للأنسان ان يفتح عينيه فيرى ما في هذا المسلك من عظمة وكذلك من عفوية طبيعية ؟

أما يزال باق اذن ذلك الزمن الذي يجب فيه على الانسان ان يقاتل وان يموت للحصول على حقه في ان يكون مواطناً في أمة ؟

أو ليست عبارة : « فرنسيون – مسلمون » مضحكة ومهينة وقليلة الحياء ؟

وهذا البؤس ، وهذه اللا كرامة التي ترعى وتسقى كل صباح ، الا تكمن هنا حقاً ذرائع لتغذية الجرائم المدروسة باتقان ؟

افلا يوجد اذن على وجه هذه البسيطة ما يكفي من الارادات لفرض الصواب على هذا المسلك الخطأ ؟

ان الجنرال شال يعلن بإن احتمال الانتصار على التمرد لا يستبعد . ويجب الا نتهكم ، إذ أن جميع الجنرالات في القيادة في جميع الحروب الاستعمارية يرددون الأمور ذاتها ، ولكن، كيف لا يفهمون انه لم يكن ثمة من ثورة واحدة قهرت ابداً . فماذا يمكن ان يعني حقيقة قول كهذا : قهر ثورة ؟

فلقد ارادوا التغلب على الاتحاد الشعبي الكاموروني ولكن ألم يمنح الكامرون استقلاله ؟ والفارق الوحيد هو ان الاستعمار قد ضاعف ، قبل انصرافه ، من انصاف – الخيانات والمخالفات لواجب الحكم والضغائن في قلب الشعب الكاموروني .

ونريد أن نوضح في هذه الصفحات **ان الاستعمار قد خسر الجولة نهائياً في**

الجزائر ، على حين كسبها الجزائريون .

فهذا الشعب الضائع في نظر التاريخ ، الذي عثر على علمه وعلى حكومة ، اعترف بها عـدة دول لم يعد يستطيـع الآن التراجع . ولا يستطيـع هذا الشعب الامي الذي يخط اجمل صفحات الكفاح من أجل الحرية واشدها وقعاً في النفس، ان يتراجع ولا ان يمسك عن الكلام .

يجب أن يعرف الاستعمار الفرنسي هذه الأمور . ويجب الا يجهل مطلقا ان الحكومة الجزائرية تستطيـع أن تجند في أي وقت من تشاء من الجزائريين . بل أن النواب المنتخبين من جديد انفسهم، الذين سجلوا بالقوة في لوائح الادارة المحلية الانتخابية ، سوف يستقيلون بأمر من جبهة التحرير الوطنية ، فليس من يستطيـع الصمود طويلاً ، حتى نواب ١٣ مايو (آيار) ، في وجه السلطة الوطنية الجديدة . وماذا بعد هذا ؟ ان جيشاً يمكن تجنيده، ليستطيـع في كل وقت اعادة فتـح الارض المفقودة ، ولكن كيف يزرع مرة اخرى مركب النقص والخوف واليأس في ضمير شعب ؟ وكيف يمكن أن نفترض «عودة الجزائريين الى منازلهم» كما كان يدعوهم الى ذلك بكل سذاجة الجنرال ديغول .

فأي معنى يمكن ان يكون لهذا التعبير في نظر الجزائري اليوم ؟

ان الاستعمار يجهل معطيات المسألة الحقيقية . فهو يحسب ان قوتنا تقـدر بعدد البنادق الثقيلة . لقد كان هذا صحيحاً في الشهور الأولى من عام ١٩٥٥ . أما اليوم فان الأمر لم يعد كذلك .

أولاً لأن عوامل اخرى تضغط على التاريخ ومن ثم لان البنـــادق والمدافع ليست اسلحة رجل الاحتلال .

ان ثلثي سكان العالم مستعدون لاعطاء الثورة كمية البنادق الثقيلة الضرورية لنا . واذا كان الثلث الآخر لا يفعل ذلك فليس بتاتاً بسبب مخالفتـــه لقضية

الشعب الجزائري . بل على العكس تماماً ، ان هـــذا الثلث الآخر ما فتىء على الدوام يعلم الشعب الجزائري بأنه يمنحه تأييده المعنوي . وهو يمهد اموره إلى اعلان ذلك على نحو ملموس .

ان قوة الثورة الجزائرية اخذت تنبع ، منذ الآن ، من التحول الجـــذري الذي حدث لدى الشخص الجزائري .

لقد كان الجنرال ديغول وهو يخاطب المتطرفين في الجزائر يصرح بأن «جزائر بابا قد ماتت » . وهو أمر صحيح تمام الصحة . ولكنه يجب الذهاب إلى أبعـد من ذلك.

فان جزائر الأخ الأكبر ، هي الاخرى ، قد ماتت أيضاً . وتوجـد جزائر جديدة ، شعب جزائري ، حكومة جزائرية ولسوف يجب ان عاجلاً أو آجلاً ، التسليم بهذه البديهات .

وفي هذه الصفحات سوف نرى الاضطرابات العنيفة التي حدثت في الشعور الجزائري ولسوف نرى الشقوق التي اعاد ، المجتمع الاوروبي في الجزائر صياغة شكله انطلاقاً منها . ونشاهـد في الحقيقة ، احتضار عقلية المستعمِر احتضاراً بطيئاً ولكنه مؤكد .

ومن هنا هذه الفكرة التي سوف نصادفها غالباً وهي : **ان موت الاستعمار هو في الوقت ذاته موت المستعمَر وموت المستعمِر .**

ليست العلاقات الجديدة هي إذن استبدال همجيـة بهمجية اخرى وسحق انسان بسحق آخر للانسان . فما نريده ، نحن الجزائريين هو اكتشاف الانسان فيما وراء المستعمِر ، هـذا الانسان الذي هو في ذات الوقت ، المنظم والضحية لنظام كان قد كتم انفاسه والزمه الامتناع عن الكلام أما نحن فاننا قـــد أعدنا منذ شهور طويلة ، اعتبار الانسان الجزائري المستعمَر . فقـد انتزعنا الانسان

الجزائري من براثن الاضطهاد المزمن والحقود . وهبينا واقفين وهـا نحن نتقدم الآن فمن ذا الذي يستطيـع ان يعيدنا الى العبودية ؟

نريد جزائراً تفتح ذراعيها للجميـع ، متأهبة لمساعدة جميـع العبقريات .

اننا لنريد هذا ولسوف نفعله ولا نعتقد بوجود أية قوة ، في أي مكان كان ، قادرة على منعنا من ذلك .

فرانز فانون

يوليو (تموز) ١٩٥٩

الفصل الاول

الجزائر تلقي الحجاب

تكون خصائص الثياب الفنية وعادات اللباس والزينة اكثر اشكال الاصالة بروزاً للعيان ، أعني أكثر الامور التي يمكن ، في أي مجتمع ادراكها مباشرة . ففي داخل ، اية مجموعة ، أي في اطار يكون قد استكمل خطوطه بوضوح ، توجد على نحـو جلي تغييرات جزئية ، احداثات هي التي تحـدد « الزي » الجديد وتحصره في نطاق معين في المجتمعات المتطورة جداً . ولكن المظهر العام يبقى متجانساً بحيث يتمكن الانسان من تصنيف مساحات شاسعة من الحضارة ومناطق ثقافيـة هائلة بالاستناد الى فنون اللباس المتكررة ، المحـددة للرجال والنساء .

ذلك ان نماذج المجتمعات تعرف من خـلال اللباس ، قبـل أي شيء آخر ، سواء عن طريق الريبورتاجات والمستندات المصورة أم عن طريـق جماعات سينمائية . وهكذا فان هناك حضارات بدون ربطة عنق وحضارات بدون تنوره وأخرى بدون قبعة . ويكون الانتماء الى مساحة ثقافيـة معينة ، في اغلب الأحيان ، مشهوراً بتقاليد الألبسة عند اعضائه . فالحجاب الذي تأتزر النساء به في العالم العربي مثلاً هو مما يراه السائح مباشرة . ومن الممكن ان يجهل

الانسان امداً طويلاً ان المسلم لا يأكل لحم الخنزير أو أنـــه يمتنع عن العلاقات الجنسية نهاراً مدة شهر رمضان . ولكن حجاب المرأة يبدو ثابتاً الى حد أنـه يكفي بصورة عامة لتمييز المجتمع العربي .

ويشكل الحجاب في المغرب العربي جزءاً من تقاليد الملبس في المجتمعات الوطنية التونسية والجزائرية والمراكشية أو الليبية. ويحدد الحجـــاب بالنسبة للسائح والغريب في ذات الوقت المجتمـــع الجزائري والمجتمـع النسوي الذي يؤلفه[١]. وعلى العكس ، يمكن ان تتميز لدى الرجل الجزائري تعديلات طفيفة بحسب المناطق : طربوش في مراكز المدن، عمامة وجلابية في الارياف . ويقر لباس الذكور مجالاً ما للاختيار وحداً ادنى من التمايز . وتوحد المرأة وهي في ازارها الابيض الصورة المعروفة عن المجتمع النسائي الجزائري .

ويجد الانسان نفسه ، بكل وضوح امام نمط واحد لا يتسامح بأي تعديل وأي تحول [١] .

---

١ – أننا لا نأتي هنا على ذكر الاوساط الريفية التي لا ترتـــدي المرأة فيها الحجاب غالباً . كذلك لا يبين وضع المرأة في بلاد القبيلي التي لا تستعمل الحجاب ابداً ، خارج المدن الكبرى . وفي نظر السائح ، الذي لا يغامر إلا نادراً بالتجول في الجبال، فان المرأة العربية هي تلك التي تتحجب . وتكون هذه الاصالة لدى المرأة القبيلي موضوعاً من بين مواضيع أخرى ، تستند عليه الدعاية الاستعمارية حول معارضة العرب للبربر . ولما كانت هذه الدراسة موقوفة على تحليل التبدلات النفسية ، فانها تدع جانباً العامل التاريخي الصرف . وسوف نعالج في القريب هـــذه الوجهة الأخرى للحقيقة الجزائرية القائمة . ولنكتفي هنـــا بالاشارة إلى أن النساء القبليات قد ابرزن في وجه رجل الاحتلال ، خلال ١٣٠ عامـــاً من السيطرة ، ادوات دفاع أخرى . وأتسمت اشكال العمل لديهن ايضاً اثناء حرب التحرير بمزايا اصيلة ، اصالة مطلقة .

٢ – توجد ظاهرة تستحق الانتباه . لقد حل الحجاب الأسود محل الحجاب الأبيض اثنـــاء كفاح التحرير الذي قام به الشعب المراكشي وبصورة رئيسية في المدن . ويمكن تفسير هـذا التبدل الهام باهتمام النساء المراكشيات بالافصاح عن تعلقهن بصاحب الجلالة محمد الخامس . =

فالحايك يحدد بطريقة جد واضحـــة المجتمع الجزائري المستعمر . ويمكن للانسان ان يقف ، بداهـة ، حائراً ، متردداً امام فتاة صغـــيرة ولكن أي التباس يختفى في فترة البلوغ . اذ بالحجاب تتعـين الأشياء وتتنسق فإن المرأة الجزائرية في نظر الملاحظ تماماً : « تلك التي تتستر وراء الحجاب » .

سوف نرى انهذا الحجاب ، وهو واحد من عناصر اخرى في جملة الالبسة التقليدية في الجزائر ، سيصبح مدار معركة ضخمة ، تعبىء قوى الاحتلال ، من اجلها ، اغزر مواردها واكثرها تنوعاً ، ويبسط فيها المستعمَر ، من الصمود ، قوة مذهلة . واذا ما اخذ المجتمع المستعمِر بمجموعه بعين الاعتبار ، بقيمـــة وخطوط قوته وفلسفته فانــه يتصرف ازاءَ الحجاب بطريقـة تكون على قدر كاف من التناسق . وقد بدأت المعركة الحاسمة قبل عام ١٩٥٤ وبدقة اكثر ، منذ سنوات ١٩٣٠ – ١٩٣٥ . ذلك ان المسؤولين عن الادارة الفرنسية في الجزائر ، وقد اوكل اليهم تحطيم اصالة الشعب مهما كان الثمن وزودوا بالسلطات لممارسة تفتيت اشكال الوجـود المؤهلة لإبراز حقيقة وطنية من قريب أو من بعيد ، سوف يعملون على بذل اقصى مجهوداتهم ضد ارتداء الحجاب على اعتباره في الحالة الراهنة ، رمزاً لتمثال المرأة الجزائرية . ولم يكن موقف كهذا نتيجة حدس طـارىء . إلا ان الاخصائيين في المسائل التي تدعى بمسائل السكان الاصليين والمسؤولين في الدوائر المختصة بالعرب قد نسقوا عملهـم بالاستنـاد الى تحليلات علماء الاجتماع وعلماء الاخـــلاق . فعلى المستوى الاول عاد الأمر بلا قيد أو شرط ، الى الصيغة المشهورة : « لنعمل على ان تكون النـاء

= ونحن نتذكر ، في الواقع بأن الحجاب الأسود هو علامـة الحداد قد ظهر مباشرة على أثر نفي ملك مراكش . ومن الجدير بالملاحظة ، على مستوى طرق الدلالة ، أن السواد لا يعبر في المجتمع المراكشي أو العربي ، أبداً عن الحـــداد أو الحزن . فان تبنى السواد ، كسلوك في معركة، يعبر عن الرغبة في احداث التأثير رمزياً في رجـــل الاحتلال وعن اختيار المرء لإشاراته الخاصة به منطقياً اذن .

معنا وسائر الشعب سوف يتبع » . وتكتفي هـذه الطريقة الواضحة فقط ، باتخاذ مسلك علمي متمشٍ مع « اكتشافات » علماء الاجتماع [١] .

يصف المختصون ، تحت عنوان نموذج القسمات الوطنية في المجتمع الجزائري بنية زواجية في جوهرها . وكثيراً ما كان المجتمع العربي يعرض من قبل الغربيين كمجتمع مظاهري ، متمسك بالشكليات وبالسيرة . وتبدو المرأة الجزائرية التي تكون وسيطة بين القوى الغامضة والقوم ، وقد اكتسبت عندئذ أهمية أساسية . وهو ما يجعلهم يؤكدون وجود ولاية اساسية ، اكثر اهمية ، خلف ولاية الاب ، المرئية الظاهرة . وهكذا يقدم جرد بدور الام الجزائرية ودور كل من الجـدة والعمة والخالة و«الشيخة » ويحدد بدقة .

واستطاعت الادارة الاستعمارية ، في هذه الحالة ، تعريف نظرية سياسية محددة ، قائلة : « اذا اردنا أن نضرب المجتمع الجزائري في صميم تلاحم اجزائه ، وفي خواص مقاومته ، فيجب علينا قبل كل شيء اكتساب النساء ، ويجب علينا السعي للبحث عنهن خلف الحجاب حيث يتوارين ، وفي المنـازل حيث يخفيهن الرجل ». فان وضع المرأة هو الذي سوف يؤخذ عندئذ موضوعاً للعمل . وهكذا تنبري الادارة المسيطرة ، للدفاع بأبهة ، عن المرأة المهانة المهملة ، السجينة ... وتوصف امكانيات المرأة الهائلة التي حوّلها ، بكل اسف ، الرجل الجزائري إلى شيء عديم الحركة ، عديم القيمة وغير انساني ، وتتعالى بحزم شديد الشكوى من مسلك الجزائري ويشبه ببقايا العصور الوسطى والبربرية . وبعلم دقيق يتم اخراج قرار اتهام – نموذجي ضد الجزائري السادي الذي يكون في موقفه مع النساء كالشيطان الذي يمتص دماء الاحياء ويوجه هذا الاتهام أحسن توجيه . ويكدس رجل الاحتلال ، حول الحيـاة العائلية الجزائرية ، مجموعة كاملة من الاحكام

---

١ – أنظر الملحق في آخر هذا الفصل .

والتقديرات والاعتبارات ويضاعف الحوادث والامثلة التي توجب العبرة محاولاً هكذا احاطة الجزائري باسار من الشعور بالذنب .

وتتكاثر جمعيات التعاون والتضامن مع النساء الجزائريات ، وتنظم الشكايات. « إذ ان المراد هو اشعار الجزائري بالخجل من المصير الذي يخص به المرأة » . وتكون هذه الحقبة هي حقبة الغليان وهي حقبة تطبيق خطـة تقنية كاملة لتسريب الافكار ، تنقض اثناءها اسراب من المساعدات الاجتماعية والمحرضات على اعمال البر ، على الاحياء العربية .

ان ما يشرع به في البداية هـو حصار النساء المعسرات ، الجائعـات حيث يبذر مقابل كل كيلو من الدقيق يجري توزيعه مقـدار من السخط على الحجاب وعلى نظام الحريم . ثم بعد السخط تأتي النصائح العملية . وتدعى النساء الجزائريات الى القيام « بدور اساسي وحاسم » من اجـل تبديل مصيرهن . ويصار إلى حثهن وتحريضهن على رفض تبعية فرضت منـذ عصور ويوصف لهن الدور الهائل المترتب عليهن القيام به . وترصد الادارة المستعمرة مبـالغ ضخمة لهذه المعركة. وبعد طرح الفكرة القائلة أن المرأة تكوّن محور المجتمع الجزائري، يصار إلى بذل جميع الجهود للحصول على الاشراف على ذلك . فما دامت زوجة الجزائري لم تكفء له القـدر فانه يبقى مطمئناً ، لا يبدي حراكاً ويصمد في وجه مشروع التدمير الثقافي الذي يديره رجل الاحتلال ويعارض عملية الهضم. ذلك أن المرأة هي التي يناط بها، في البرنامج الاستعماري، دفع الرجل الجزائري. ولذلك فان تحول المرأة وكسبها الى جانب القيم الاجنبية وانتزاعها من نظـام حياتها الخاص هو الحصول في آن واحـد على سلطة حقيقية على الرجل وعلى امتلاك الوسائل العملية ، المؤثرة ، لمتابعة تفتيت الثقافة الجزائرية .

ان الحـلم بعملية ترويض شاملة للمجتمع الجزائري تجري بمعونة « النساء السافرات المعاونات لرجل الاحتلال » لم ينفك حتى يومنا هذا ، في عام ١٩٥٩،

يراود عقول المسؤولين السياسيين عن عملية الاستعمار [1] .

اما الرجال الجزائريون فانهم يصبحون ، من جهتهم ، موضع انتقاد زملائهم الاوربيين أو على نحو رسمي أكثر ، موضع انتقاد رؤسائهم . فليس ثمة من عامل أوروبي في متاجر الخشب أو المشغل أو المكتب لم يصل به الامر ، في نطـاق العلاقات المتبادلة بين الاشخاص ، الى توجيه الاسئلة المتمشية مع الاتجـاهات : « هل زوجتك سافرة ؟ لماذا لا تصطحب زوجتك إلى السينما والعـاب الكرة والمقهى ؟ »

ولا يكتفي ارباب العمل الاوربيون بالموقف المتسائل أو بالدعوة المرهونـة بالمناسبات ، بل أنهم يتبعون « اساليب السيو » [2] لكي يحصروا الجزائري في في مكان مسدود ويطالبونه باتخاذ قرارات مضنية . وهكذا فان المدير يدعـو

---

١ — وقد تحقق السعي لمعالجة هذا الموضوع في المؤسسات التعليمية كذلك . وبسرعة كافية أخذ المعلمون الذين أوكل الأهل توجيه بناتهم إليهم ، يعتادون الحكم القاسي على مصير المرأة في المجتمع الجزائري « يؤمل أقوى الأمل في أن تصبحن انتن على الأقل على جانب من القوة يكفي لتفرضن وجهة نظركن » . وهكذا يتضاعف عـدد مدارس الفتيات المسلمات « حيث تبذل المعلمات أو الراهبات، لدى اقتراب تلميذاتهن من سن البلوغ ، نشاطاً فريداً حقاً. تثار الشفقة، في قلوب الأمهات وتلاحقهن الأفكار وتوكل إليهن مهمة التأثير على الأب واقناعه . ويطنب في امتداح ذكاء التلميذة الشابة العجيب ونضجها ، ويصار الى ابراز المستقبل الباهر الذي ينتظر هذه الرغبات الفتية الجامحة ، ويلفت الانتباه بلا تردد ، الى أن انقطاع البنت عن الدراسة ، اذا وقع ، اجرام بحقهـا . ومن أجل ذلك فلا بأس من تحمل الادارة لقسط من رذائل المجتمع المستعمر فتقترح قبول الفتاة في القسم الداخلي لكي يفسح المجال أمام أهلها لتجنب انتقادات « الجيران ضيقي الأفق » . وفي نظر المختصين في شؤون السكان الأصليين ، ان المحاربين القدماء والمتطورين حضارياً هم الكومندوس المكلفين بتحطيم مقاومـة البلاد المستعمرة الثقافية . كما تكون المناطق موزعة بحسب عدد « الوحدات العاملة » في عملية التطوير ، اذن بحسب عملية سحق الثقافة الوطنية التي تنطوي عليها .

٢ — قبائل من الهنود الحمر في امريكا ، اشتهرت باساليب محاصرة أعدائها .

الموظف الجزائري وزوجته بمناسبة أحد الأعياد كعيد الميلاد أو رأس السنة أو ببساطة في مناسبة خاصة بأعضاء الدائرة ، ولا تكون الدعوة عندئذ جماعية . وانما يطلب كل جزائري الى مكتب الادارة ويدعى بالأسم للمجيء بصحبة « عائلته الصغيرة » وباعتبار ان الدائرة هي أسرة كبيرة فلسوف ينظر نظرة سيئة الى الذين يحضرون بدون زوجاتهم ، انكم تفهمون هذا اليس كذلك ؟... ويعاني الجزائري امام هذا الانذار الرسمي للقيام بالواجب لحظات صعبة في بعض الأحيان. فان المجيء بصحبة زوجته معناه الاعتراف باندحاره وهذا معناه « تعريض زوجته للمهانة » والعمل على عرضها للأنظار والتخلي عن كيفية من المقاومة . ويكون الحضور لوحده ، على العكس امتناعاً عن ارضاء رب العمل وهذا ما يجعل البطالة ممكنة . ان دراسة اية حالة تؤخذ بالصدفة ودراسة نمو الكمائن التي ينصبها الاوروبي بقصد حصر الجزائري لكي يتميز ويعلن : « زوجتي محجبة ولن تخرج » أولكي يتخاذل ولسان حاله يقول : « بما انكم تريدون رؤيتها ، فها هي ذي » وما في الروابط والعلاقات من طابع سادي وفاسد سوف توضح باختصار ، على المستوى النفسي ، مأساة الوضع الاستعماري والتصدي الذي يجري خطوة ، خطوة بين نظامين ، أي ملحمة المجتمع المستعَمر بخصائصه في الوجود ، في مواجهة الاخطبوط الاستعماري .

إلا أن الروح العدائية تبدو بإزاء المثقف الجزائري بكامل ثقلها . فالفلاح وهو « عبد سلبي لمجموعة قاسية » يجد بعض التساهل في محاكمة الفاتح . وعلى عكس ذلك المحامي والطبيب فانه يشهر بهما بشدة بالذات بالبنان اذ يشار الى هؤلاء المثقفين الذين يبقون على زوجاتهم في حالة نصف – عبودية . ويهب المجتمع الاستعماري بحماس ضد هذا الانزواء الذي تحاط به المرأة الجزائرية . فان اولئك التعيسات ، المحكوم عليهن « بولادة الاطفال » السجينات داخل اربعة جدران ، الممنوعات ليثرن القلق والاهتمام .

وتهب في وجه المثقف الجزائري البراهين العرقية ، بسهولة خاصة ، حيث

يقال على الرغم من انه طبيب إلا أنه يظل كما هو ، عربياً ... « اطردوا ابن البلد ، يرجع مهرولاً » .... ويمكن أن تضاعف صور هذه العرقية الى ما لا نهاية . وبكلام أوضح يؤخذ على المثقف وقوفه في وجه انتشار العادات الغربية التي تم تعليمها وعدم قيامه بدور النواة الفعالة في تحويل المجتمع المستعمر، وعدم افساحه المجال لزوجته بالاستفادة من امتيازات حياة اجدر واعمق ... وقد أصبح من المألوف كثيراً ، ان يسمع الانسان ، في التجمعات الكبيرة ، أوربياً ، يفضي بحرقة بأنه لم يرى مطلقاً زوجة أحد الجزائريين وهو على صلة به منذ عشرين عاماً . وفي مستوى من التوجس اكثر انتشاراً ، إلا انه يفضح هذا الأمر جهاراً ، نجد مثل هذا التأكيد المرير : « اننا نعمل بدون جدوى » ... أو « ان الاسلام ليمسك بفريسته جيداً »

ان رجل الاحتلال وهو يقدم الجزائري كفريسة يتنازعها الاسلام وفرنسا، الدولة الغربية بنفس القدر من الضراوة ، انما يكشف بوضوح على هذا النحو ، عن مسلكه وفلسفته وسياسته . ويدل هذا التعبير في الواقع ، على ان رجل الاحتلال المستاء من فشله المتكرر، يعرض بطريقة مبسطة ومحقرة إلى نظام القيم الذي يتسلح به الرجل المحتل وهو يقف في وجه هجماته العديدة . على أن ما هو ارادة للتميز واهتمام بالابقاء على بعض نواحي الوجود الوطني سليمة، ليتمثل في الوان من السلوك الديني السحري ، المتعصب .

ويتخذ هذا الرفض للفاتح ، تبعاً لظروف الوضع الاستعماري ونماذجه ، اشكالاً ذات اصالة . وكانت اشكال هذا السلوك ، في جملتها قد درست خلال العشرين سنة الاخيرة ، إلا أنه لا يمكننا التأكيد على أن النتائج التي تم الوصول اليها ، صحيحة بكاملها . ان المتخصصين في التربية الاساسية في البلاد النامية أو خبراء تطوير المجتمعات المتخلفة يزدادون ادراكاً لما تنطوي عليه من طابع العقم والشؤم كل محاولة لالقاء الضوء على عنصر الأفضلية على غيره من عناصر المجتمع المستعمر . وحتى في نطاق امة حديثة الاستقلال لا يمكن توجيه اللوم إلى هذا

أو ذاك من المجموع الثقافي ، بدون توقع الخطر على العمل الذي يجرى القيام به (لا على التوازن النفسي للمستوطن الاصلي) . وبدقة أكثر فان ظواهر رفض التثقف يجب أن تفهم على انها استحالة عضوية ، تجد ثقافة ما نفسها عاجزة فيه عن تبديل أي نموذج من نماذج وجودها ما لم يفكر من جديد في الوقت نفسه في وضع يسيطر عليه الاستعمار يكون كاللامعنى . إذ يجب ارجاع ظواهر المقاومة التي تلاحظ لدى المستعمَر إلى موقف رفض التمثل وإلى موقف الحفـاظ على اصالة ثقافية وبالتالي إلى الحرص على ثقافة وطنية .

وكان لا بد للقوى المحتلة ، وهي تبذل في مكافحة حجـاب المرأة الجزائرية أقصى فعلها النفسي ، من أن تجني ، بالبداهة ، بعض الثمرات . وهكذا فقـد حدث ، هنا وهناك اذن التوصل إلى « انقاذ » امرأة وذلك بسفورها رمزياً .

كانت النساء - النماذج للاختبار ، منذ ذلك الحين تسرن في الشوارع سافرات الوجوه ، طلقات الجسد كقطع نادر في المجتمع الاوروبي في الجزائر . يخيم حولهن جو من الاحتفاء بالدخول إلى الحيـاة الجديدة . بينما الاوربيون ، في نشوة من ظفرهم وقد سرت فيهم رعدة تملأ جوانحهم ، يذكرون بظواهر التحول النفسية . ويكسب صانعو هـذا التحول تقديراً في المجتمع الاوربي ، حقيقة . ويغبطهم الناس ، ويشار اليهم بالتقدير لدى الادارة التي تفعل الخير .

ويزداد المسؤولون عن السلطة قناعة ، بعد الحصول على كل نجاح ، في تصورهم للمرأة الجزائرية ، كسند للتغلغل الغربي في المجتمع الاصلي . كل حجاب منزوع يكشف للمستعمرين افاقاً كانت ممنوعة حتى ذلك الحين ، يبرز لهم قطعة فقطعة الجسد الجزائري المعرى وبعد سفور كل وجه تظهر روح المحتل العدائية وبالتالي آماله ، مضاعفة عشرات المرات . وتعلن كل امرأة جزائرية جديدة سافرة ، إلى المحتل عن مجتمع جزائري ، تأذن نظمه الدفاعية بالتفسخ ، وانـه مجتمع مفتوح وممهد . وكل حجاب يسقط وكل جسم يتحرر من وثاق الحـايك التقليدي وكل وجه يبرز لنظر المحتل الوقح ، الجزء يكشف على نحو سلبي ، بان الجزائر قـد

بدأت في التنكر لنفسها وتقبل بهتك سترها من قبل المستعمِر . ويبدو لمجتمع الجزائري مع كل حجاب مهجور ، انه يرضى بوضع نفسه في مدرسة السيد وانه يقرر تغيير عاداته ، تحت ادارة واشراف رجل الاحتلال .

وقد رأينا كيف ينظر مجتمع الاستعمار والادارة الاستعمارية الى الحجاب وقدمنا الملامح الديناميكية للجهود التي شرع بها لمحاربته باعتباره نظاماً واساليب المقاومة المتطورة من جانب المجتمع المستعمَر . وقد يكون مفيداً ان نتتبع على مستوى الفرد ، أي المستوى الخاص للفرد الاوروبي ، الوان السلوك المتعددة الناشئة عن وجود الحجاب ، وبالتالي عن طريقة المرأة الجزائرية الاصيلة سواء كانت حاضرة أم غائبة .

فما هي ردود الفعل ، التي يمكن أن نسجلها بالنسبة لاوروبي لم يلتزم مباشرة في هذا العمل التحويلي .

يبدو لنا ان الموقف المهيمن يكون استهجاناً عاطفياً شديد التشرب بالحسية .

والحجاب قبل ذلك ، يخفي جمالاً .

ثمة ملاحظة بين ملاحظات اخرى – ابداها محام اوروبي كان يمر بالجزائر اثناء قيامه بأعمال مهنته فاستطاع ان يرى بعض الجزائريات السافرات ، وهذه الملاحظة تكشف عن هذه الحالة العقلية ، فقال وهو يعني الجزائريين : ان هؤلاء الرجال يقترفون اثماً بكشفهم عن هذا القدر من المحاسن العجيبة . ثم ختم كلامه بقوله : عندما يكتنز شعب ما ، جمالاً باهراً مثل هذا ، كمالاً كهذا الذي تجود به الطبيعة ، يكون لزاماً عليه أن يبرزه وان يعرضه . وفي نهاية الامر فلا بد من أن نقدر على ارغامه على ان يفعل ذلك .

ان رؤية ضفيرة من الشعر أو جانباً من الجبهة أو ملامح وجه « مثير » في الترام وفي القطار تبقى للأوروبي ما لديه من قناعة بموقفه اللامعقول وتعززها وهي :

ان المرأة الجزائرية هي ملكة النساء جميعاً .

إلا أن هناك عدائية متبلورة تتجلى في درجة العنف لدى الاوروبي بإزاء المرأة الجزائرية . فنزع الحجاب عن هذه المرأة هو كشف جمالها للانظار ، وهو هتك سرها ، وتحطيم مقاوستها وجعلها رهن الاشارة للمغامرة . وان اخفاء الوجه هو ايضاً اخفاء سرها ، وهو العمل على ان يوجد عالم من الاسرار ومن الخفاء. وهكذا يعيش الاوروبي في مستوى شديد التعقيد صلته بالمرأة الجزائرية . تتملكه الرغبة في جعل هذه المرأة في متناول يده، وفي أن يصنع منها ،متاعاً، امتلاكه محتمل .

ان هذه المرأة التي ترى ولا ترى تخيب أمل المستعمر . فهي لا تبدي المعاملة بالمثل . فلا تسلم نفسها ولا تمنح نفسها ولا تهبها . ان للجزائري ، من المرأة الجزائرية ، موقفاً واضحاً ، في جملته : فهو لا يراها . وهناك رغبة دائمة ايضاً في الا يلحظ المرء هيئة الأنثى والا يعير انتباهاً للنساء . فليس هناك اذن لدى الجزائري ، في الشارع أو في الطريق ، ذلك المسلك الذي يوصف في اللقاء بين الجنسين على مستوى النظر والطلعة المهيبة ، والقوام العضلي ومختلف انواع السلوك المضطرب التي عودتنا عليها دراسة ظواهر اللقاء .

يريد الاوروبي وهو يقابل الجزائرية ، أن يرى . فانه يتصرف بطريقة عدائية امام هذا التقييد لرؤيته ، ويمضي الحرمان والعدائية هنا في تناسق تام .

وتجد الروح الهجومية طريفاً للظهور ، في بداية الأمر في مواقف ذات وجهين مختلفين من حيث بنيتها ، وفي جهاز الحلم الذي يكتشف لدى الاوروبي السوي أو الذي يعانى من اضطرابات عصبية [1] بلا تفريق .

---

١ – يجدر بنا أن نشير إلى الموقف المتواتر من جانب الاوروبيات بصورة رئيسية ازاء –

وقد اصبح امراً معتاداً سماع الاطباء الاوروبيين ، في استشارة طبية مثلاً ، في اعقاب فترة الصباح ، وهم يفصحون عن خيبــــة املهم . فان النساء اللواتي يكشفن الحجاب امامهم ، هن مبتذلات ... عاميات . فليس هنـاك حقـاً ما يستحق أن يجعل سراً ... ويدور التساؤل حول ما يخفين .

وتحسم النساء الاوربيات النزاع بكثير من قـلـة الاحتراز إذ يؤكدن ، جازمات ، بأن المرء لا يخفي ما هو جميل ، ويكشفن عن رغبة « نسائية جداً » في هذه العادة الغريبة ، بستر ما هو غـيـر كامل . وبمقارنة استراتيجية المرأة الاوربية التي ترمي إلى التقويم والتجميل والتزين (فن التجميل ، قص الشعر ، الموضة) باستراتيجية الجزائريات اللواتي يفضلن حجب ما لديهن واخفاء وبذر الشك والرغبة في الرجل . ومن مستوى آخر يقال بأن في الامر رغبة في الغش « مضاعفة » وأن وضعها في حزم لا يعـدل ، حقيقة ، من طبيعتها ولا من قيمتهـا .

أما مادة الاحلام التي يقدمها الاوربيون فانها تحدد موضوعات اخرى مميزة.

– فئة خاصة من النساء المتطورات . أن بعض الجزائريات السافرات يصبحن بسرعــة مذهلة وطلاقـــة لا يشك فيها أوربيات كاملات . لذلـك تشعر النساء الاوربيات بنوع من القلق أمامهن . فالخدعة التي كن يحسن بها إزاء الحجاب يعتريهن ما يشبهها أمـام الوجه المكشوف والجسد الجريء ، البارع ، الذي لا يتردد والمهاجم بلا مواربة وهكذا فان المرأة الاوروبية لا تكف فحسب عن رضاها بتوجيه تطور المرأة السافرة واصلاح أخطائها وإنما تحس بالخطر يحدق بمركزها على مستوى الدلال والاناقة وبالتالي في منافسة هذه ...

ذلك ان هذه المرأة الجزائرية التي كانت مبتدئـــة وانقلبت إلى متخصصة وكانت في طور التعميد وتحولت الى داعية ، تضع الاوروبيـــة موضع الاختبار . ولم يعد للاوروبية من ملجأ آخر غير الانضمام إلى الجزائري الذي ألقى بالجزائريات السافرات بشراسة في معسكر الذكور وفساد الاخلاق. وسوف تقول النساء الاوروبيات « ان اولئك النساء السافرات هن بدون شك، لا أخلاق لهن على كل حال وخالعات العذار » . ويبدو أن نجاح الاندماج لا بد له من أن يكون أبوة مستمرة ومقبولة .

وقد برهن جان بول سارتر في كتابه « تأملات حول المسألة اليهودية » ، على أن رائحة فض البكارة تفوح في المرأة اليهودية ، على مستوى اللا شعور .

ان تاريخ الفتح الفرنسي في الجزائر الذي يفصل هجمات الجيوش على القرى ومصادرة الأموال وهتك اعراض النساء ، ونهب البلاد ، قد اسهم في نشوء مثل هذه الثورة الديناميكية نفسها وبلورتها . فان تذكر هذه الحرية المعطاة لسادية المحتل ولخلاعته ، تخلق ، على مستوى الترسبات النفسية لدى المحتل شقوقاً ونقاطاً خصبة حيث تستطيع أن تطفو في آن واحد ، الوان من السلوك المتعلقة بالاحلام وفي بعض المناسبات تصرفات اجرامية .

ذلك ان اغتصاب المرأة الجزائرية يكون في حلم الرجل الاوربي ، هكذا دائما مسبوقا بتمزيق الحجاب . وهنا نشاهد افتضاضا مزدوجا للمرأة . كما أن مسلك المرأة لا يكون أبداً مسلك الرضى أو القبول وانما مسلك الخضوع .

وكل مرة يلتقي الاوربي بالمرأة الجزائرية ، في احلام ذات محتوى داعر ، فان خصائص علاقاته بالمجتمع المستعمر تظهر للعيان . هذه الاحلام لا تجري مجرى تلك التي يكون موضعها المرأة الاوربية ، لا على المستوى الداعر نفسه ، ولا على الايقاع ذاته .

ان مسلك الاوربي مع المرأة الجزائرية لا يجري على اسلوب استمالتها اليه بالتدريج وبالبوح المتبادل وانما يكون امتلاكه لها دراكا بمنتهى العنف . ويتخذ العقل شكلاً بهيميا وسادية شبه عصبية حتى لدى الاوربي السوي. وهذه البهيمية والسادية يؤكدهما من ناحية اخرى موقف الفزع الذي يهيمن على الجزائرية . فالمرأة الفرنسية تصرخ في الحلم ، وتتملص كالغزالة ثم تفتض وتمزق وهي خائرة القوى ، مغمى عليها .

ومن الواجب كذلك ان نلفت الانتباه إلى صفة تبدو لنا هامة في مادة الحلم . ذلك الاوربي لا يحلم مطلقا بامرأة جزائرية ،تنال منفردة (على انفراد).

ان المرات النادرة التي يعقد فيها اللقاء بصفة زوجين فان هـــذا اللقاء سرعان ما يتحول بالهرب الموله الذي تقوم به المرأة والذي يقود الذكر ، على نحو قدري الى « عند النساء » اذ أن الاوروبي يحلم دواماً بمجموعة من النساء ، يذكره بمخدع النساء عنـــد اليونان وبالحريم وهما فكرتان دخيلتـــان متأصلتان ، على نحو متـين في اللاشعور .

وسوف تفصح عدائية الاوروبى عن ذاتها ايضاً اذا ما القينا بعض النظرات على حالة الجزائرية الاخلاقية . حيث نجد ان خفرها وتحفظها يتحولان تبعاً لما هو متداول في قوانين التنازع في علم النفس، إلى اضدادها حيث تصبح الجزائرية منافقة ، فاسقة وحتى ايضاً امرأة شبقة .

وقد رأينا ان الستراتيجية الاستعمارية لتفتيت المجتمع الجزائري قد خصت، على مستوى الافراد ، المرأة الجزائرية بمكانة من الدرجة الأولى . وسوف يحدث السعي المستميت الذي يبذله المستعمر وطرق كفاحه بصورة طبيعية ، ألواناً من السلوك، لدى المستعمر متسمة برودود الفعل . وهكذا يجد المستعمر نفسه وهو يواجه عنف المحتل ، مدفوعاً الى تحديـد موقـف مبدئي من عنصر ، كان فيما مضى عديم الأثر ، في شكل الثقافة الأصلية الظاهري . فان استماتـــة المستعمر في تصميمه على نزع الحجاب عن المرأة الجزائريـة ورهانـه لكسب النصر مهما كلف الأمر في معركة السفور هما المسألتان اللتـــان ستثيران تدعيم المواطن الاصلي وعلى ذلـك فان قصد المستعمر العدائي ، المتعمـد ، فيما يتعلق بالحائك يعطي لهذه الاداة الميتة حياة جديدة لأنه ، وقد ثبت بدون تطور في الشكل وفي فن التلوين يعتبر من رصيد الثقافة الجزائرية . وهنا نعثر على قوانـين علم النفس الخاصة بالاستعمار . وهـو ان الفعل ومشاريـع المحتل هي التي ، تحدد في المرحلة الاولى مراكز المقاومة التي تنتظم حولها ارادة البقاء في شعب ما .

ان الابيض هو الذي يخلق الزنجي . ولكن الزنجي هو الذي يخلق صفات

الزنجية . ورداً على الروح العدائية الاستعمارية من حول الحجاب فان المستعمر ينمي التعلق بالحجاب وما كان عنصراً لا نصيب له من الاكتراث في مجموع متجانس ، اذا به يكتسب صفة التابو لذلك فان موقف مثل تلك الجزائرية من الحجاب سوف يقارن باستمرار بموقفها الكلي من الاحتـلال الاجنبي . فالمستعمَر يرد ، امام النبرة التي ينفحها المستعمِر لهذا القطاع من تقاليده او ذاك بطريقة عنيفة جداً. ان الاهتمام الذي يبذل لتعديل هذا القطاع، وجملة الظواهر العاطفية المعكوسة من قبل المحتـل في عمله التربوي وتوسلاته ووعيده تنسج حول العنصر المميز عالماً حقيقياً من المقاومات . ذلك أن الصمود في وجه المحتل ازاء هذا العنصر المحدد معناه الحاق الفشلِ به على مرأى من جميع الناس ومعناه بخاصة أن تبقى « للتعايش » ابعاده في الصراع وفي الحرب المستترة . وهذه هي المحافظة على جو السلم المسلح .

سوف يتبدل موقف المرأة الجزائرية ومجتمع السكان الاصليين بتبدلات هامة بمناسبة كفاح التحرير . وتكمن فائدة هذه التجديدات في كونها لم تكن موضوعة في أية لحظة في برنامج الكفاح. فلم تلح أبداً نظرية الثورة واستراتيجيتها على ضرورة اعادة النظر في الوان السلوك ازاء الحجـاب . ويمكن التأكيد من الآن فصاعداً بأن مثل هذه المسائل لن تثار ، في الجزائر المستقلة . ذلك أن الشعب قـد ادرك في الممارسة الثورية ، ان المسائل تحل نفسها والحركة ذاتها التي تطرحها .

فقد اديرت المعركة حتى عام ١٩٥٥ من قبل الرجال فحسب. إذ ان الخصائص الثورية المميزة لهذه المعركة وضرورة السرية المطلقة الزمت المناضل على ابقاء زوجته في جهل من ذلك جهلاً مطبقاً . وقد نجمت صعوبات جديدة ، تتطلب حلولاً اساسية بحسب تكيف العدو المتتابع مع اشكال المعركة. ولم يتخذ قرار اشراك النساء الجزائريات كعناصر فعالة في الثورة الجزائرية باستحقاق . وبمعنى ما فان مفهوم المعركة نفسه هو الذي كان يجب أن يعـدل . فان عنف المحتل ووحشيته وتمسكه الجنوني بالارض الوطنية ، كل هذا قد أوصل القادة إلى عدم

استبعاد بعض اشكال المعركة . وبالتدريج فان الشعور بضرورة الحرب الشاملة قد فرض نفسه . ولكن تجنيد النساء لا ينطبق على الرغبة في تعبئة مجموع الامة فحسب . يجب أن يجري التحالف ، بتوافق ، ما بين دخول النساء الحرب وبين احترام الرجـــل للحرب الثورية . بمعنى آخر يجب على المرأة أن تلبي بروح التضحية التي يستجيب لهـا الرجال . فمن الواجب إذن منحها نفس الثقة التي نتطلبها في حال المناضلين المجرمين والمسجونين عدة مرات . ويجب إذن أن نطلب من المرأة روحاً معنويةعالية وقوة سيكولوجية فريدتين . ولم يخل الأمر من مواقف التردد . فلقد كانت وسائل العمل الثوري قد اتسع نطاقها إلى حـد بعيد وأخذت آلة الحرب تسير بايقاع معين . الامر الذي يستوجب تعقيد الآلة اعني زيادة شبكاتها بدون اضعاف قوة تأثيرهـا . ولم يكن بالامكان النظر إلى النساء باعتبارهن فئة بديلة وانما كعنصر قادر تمام القدرة على مواجهة المهمات الجديدة .

كانت النساء ، في الجبال يساعدن الثائرين عندما يحطون الرحال أو يقضون نقاهاتهم على أثر جرح أو اصابة تيفوئيد . غير أن التقرير بضم المرأة الى الحلقـة الرئيسية وجعل الثورة مرتبطة بوجودها وبعملها في هذا القطاع أو ذاك كان بداهة موقفاً ثورياً برمته . فلقد كان ارساء الثورة، من ناحية ما ، على فاعليتها، اختياراً هاماً .



لقد جعل مثل هذا القرار صعباً لاسباب عدة ذلك اننا رأينا بأنه كان لدى المجتمع الجزائري وبخاصة النساء الميل للفرار من المحتـــل ابان فترة السيطرة كلها التي لم يثر فيها النزاع. ان صلابة المحتل في اقدامه للعمل على السفور ، وفي أن يجعل من ذلك حليفاً له في العمل على التدمير الثقافي، قد عززت التمسك بالعادات التقليدية. فبعد أن كانت لهذه التقاليد ، الايجابية في استراتيجية المقاومة ضد

فعل المستعمر المضني آثاراً سلبية بالطبع . فـــإن المرأة ، وبخاصة امرأة المدن تفقد السهولة والاطمئنان . ولما كان عليها ان تخدم في نطاقات ضيقة فان جسدها لا يكتسب سهولة الحركة العـادية إزاء افق غير محدود الدروب والارصفة المنبسطة والمنازل والعربات ، والناس الذين يجب تجنبهم ، والذين يصادفون . . . هذه الحياة المسيجة نسبياً ، المتضمنة تنقلات معروفة ، مبوبة ومنظمة ، تجمد على نحو خطر ، اية ثورة مباشرة .



كان زعماء السياسة يعرفون تمام المعرفة هذه الاشياء الفريدة وكانت مواقف التردد تعبر عن مسؤولياتهم . وكان من حقهم ان يرتابوا في نجاح هذا التدبير . افلا يحتمل أن يكون لقرار كهذا نتائج مفجعة على سير الثورة ؟



كان يضاف الى هذا الشك عنصر على نفس القدر من الاهمية . وهو ان المسؤولين كانوا يترددون في تجنيد النساء وهم لا يجهلون وحشية المستعمر . ولم يكن يخامر المسؤولين عن الثورة أي وهم حـول قدرات العـدو الاجرامية . فجميعهم تقريباً قد مروا بسجونه أو تحـدثوا مع الذين نجـوا من معسكرات الاعتقال او من زنزانات البوليس القضائي الفرنسي . ولم يكن أي منهم يجهل الواقع وهو أن كل جزائرية توقف سوف تعذب حتى الموت . وانه لمن السهل، نسبياً ، أن ينخرط الانسان نفسه في هذا الطريق وأن يقر بين احتمالات مختلفة، باحتمال موته تحت التعذيب . ولكن الأمر يكون أكثر صعوبة عندما يجب على هذا الانسان أن يعين شخصاً آخر ، من الجلي أنه يتعرض لهذا الموت على وجه التأكيد وكان يجب والحالة هـــذه اقرار دخول المرأة الثورة ، وتكدست الاعتراضات الداخلية وكان كل قرار يثير التردد ذاته ويبعث على اليأس نفسه .



لقد شبه المراقبون عمل الجزائرية ، امام النجاح الهائل الذي احرزه هذا الشكل الجديد من اشكال المعركة الشعبية ، بعمل بعض المقاومات أو حتى بالعميلات السريات في الاجهزة المتخصصة . ويجب أن يبقى ماثلاً في ذهننا بصورة مستديمة ان الجزائرية عندما تجند تتقن بالغريزة ، في ذات الوقت ، دورها كـ « امرأة منفردة في الشارع » ودورها في مهمتها الثورية . ان المرأة الجزائرية ليست عميلاً سرياً ! فهي تخرج الى الشارع ، وبدون روايات وبدون قصة وفي حقيبة يدها ثلاث قنابل صغيرة أو في الكورسيه تقرير بنشاط احدى المناطق . وليس لديها ذلك الاحساس بأنها تلعب دوراً قرأته مرات ومرات عديدة في الروايات أو شاهدته في السينما : وليس لديها مثل هذا العامل من التمثيل ، أو التقليد ، الذي يكاد أن يكون دائماً موجوداً في مثل هذا اللون من العمل اذا ما درس لدى المرأة الاوربية .

ليس هذا ابرازاً لشخصية معروفة ، وقد تواترت في الخيال الف مرة أو في الروايات انما هي ولادة صحيحة ، بالحالة النقية وبدون دراسة تحضيرية .فليست هنالك شخصية لتقليدها . على العكس توجد حالة مأساوية ، وهي فقدان الوضوح ما بين المرأة والمرأة الثائرة . فان المرأة الجزائرية ترتفع دفعة واحدة إلى مستوى المأساة [1] .

ان مضاعفة عدد خلايا جبهة التحرير الوطنية واتساع مهماتها الجديدة ، من مالية واستخبارات ، ومكافحة استخبارات العدو ، ومن تكوين سياسي ، وضرورة تشكيل ثلاثة أو اربعة خلايا مقابل كل خلية تحت التمرين ، للحلول

---

١ – فاننا هنا نسوق الوقائع المعروفة لدى العدو فحسب . ونسكت إذن عن أشكال العمل الجديد التي أعتمدتها النساء في الثورة . فان الوان التعذيب التي تعرضت لها ، منذ عام ١٩٥٨ المناضلات ، في الواقع ، قد سمحت للمحتل بتكوين فكرة عن استراتيجية المرأة ، وها هي اشكال جديدة تولد اليوم. لذلك ندرك ضرورة السكوت عنها .

محلها ، وللاحتياط ، تكون معدة لممارسة عملها عند اقل استنفار يتعلق بموضوع الخلية الأولى ، كل هذا يلزم المسؤولين على البحث عن عناصر اخرى ، حصراً من أجل اتمام مهمات فردية . وبعد سلسلة اخيرة من تقليب الرأي فيما بين المسؤولين وبخاصة امـــام المسائل اليومية المستعجلة المطروحة من قبل الثورة أقر تجنيد العنصر المؤنث ، بالتعيين ، في الكفاح الوطني .

ويجب التأكيد مرة اخرى على ما لهذا القرار من صفة الثورية . ولا سيما ان النساء المتزوجات هن اللاتي جرى الاتصال بهن في البداية غير انه سرعان مـا يصار إلى التخلي عن قيود اشراك المرأة . فقد جرى في البدء اختيار المتزوجات ممن كان ازواجهن مناضلين ، وفيما بعد جرت تسمية بعض الارامل أو المطلقات. ولم يكن ذلك من جميع الوجوه ، ليشمل فتيات صغيرات ابداً . أولاً لانه ليس لدى فتاة صغيرة في سن العشرين أو الواحد والعشرين، الفرصة ، مطلقاً ، للخروج لوحدها من منزل الاسرة . ولكن واجبات هذه المرأة كأم أو زوجة والاهتمام بحصر النتائج المحتملة من توقيفها وموتها وكذلك اقبـــال الفتيات الصغيرات المتزايد على التطوع، قد قاد هذا المسؤولين السياسيين إلى أن يقفزوا قفزة أخرى إلى الغاء تلك القيود والقبول بالاعتماد على مجموع النساء بلا تفريق .

كانت المرأة ما تزال محجبة اثناء ذلك الزمن ، وهي ضابطة الاتصال ، أو ناقلة منشورات أو تتقدم مسؤولاً مائة أو مائتي متر وهو يغـير مكانه . غير أن وسائل الكفاح قد انتقلت ابتداء من مرحلة معينة ، الى المدنية الاوربية . فقد سقط رداء الكسباه Le Kasbah الواقي وستار الامن الذي يكاد يكون عضوياً والذي تنسجه المدنية العربية حول المواطنة الاصلية . واندفعت الجزائرية حاسرة مكشوفة في مدينة المحتل . وبسرعة فائقة اكتسبت مسلكاً هجومياً لم يكن ليصدق مطلقاً. عندما يباشر المستعمر عملاً ضد الرجل المضطهد وبخاصة اذا كان هذا الاضطهاد قد مورس بأشكال من العنف المهيج والمتواصل كما حصل في الجزائر ، فلا بد له من أن يقهر عدداً هاماً من الامور المنوعة . والمدينـــة

الاوروبية ليست امتداداً لمدينة السكان الاصليين ولا يقيم المستعمرون في وسط السكان الاصليين . إلا انهم يحيطون بالمدينة الاصلية ، بل انهم قد نظموا حصارها . وكل خروج من قصبة الجزائر يلتقي بالعدو . والشيء نفسه في قسطنطينة ووهران وبليدا وبون .

وهكذا فان مدن السكان الاصليين تقع ، بطريقة مدبرة ، بين فكي كماشة الفاتح ويجب أن يملك المرء ، بين يديه مخططات سكنية لأية مدينة تقع في مستعمرة مع ملاحظة تقديرات اركان حرب قوى الاحتلال ، حتى يستطيع أن يكون لنفسه فكرة عن القسوة التي نظمت في نطاقها التعبئة العامة للمدينة الوطنية ، لتجمع السكان الاصليين .

وفيما عدا النساء المستخدمات في بيوت الفاتح ، أولئك اللواتي يطلق عليهن المستعمر بلا تمييز اسم « فاطمة » فان الجزائرية ، الجزائرية الشابة على نحو خاص قليلاً ما تغامر بالسير في المدينة الاوروبية . فالتنقلات تتم كلها تقريباً في المدينة العربية وحتى في المدينة العربية فان التنقلات قد اختصرت الى الحد الأدنى . ان المرات القليلة التي تغادر الجزائرية فيها المدينة تكون دائماً وتقريباً ، بمناسبة حدث ما ، طارىء (وفاة قريب ، ساكن في موقع مجاور) أو على الاغلب للقيام بزيارات تقليدية في نطاق عائلي بمناسبة الأعياد الدينية وأما للحج... وفي هذه الحالة يتم اجتياز المدينة الاوروبية بالعربة في اغلب الاحيان منذ الصباح الباكر . لذلك يكون على الجزائرية ، الجزائرية الشابة — فيما عدا بعض الطالبات النادرات (اللواتي ليس لهن مع ذلك ، ما لزميلاتهن الاوروبيات من مشية طليقة ، سهلة) ، ان تقهر — وهي في المدينة الاوربية ، جملة وافرة من الأمور الداخلية الممنوعة ، من مخاوف منتظمة ذاتياً ، ومن حالات عاطفية وفي ذات الوقت عليها مواجهة عالم المحتل المعادي بجوهره وقوى البوليس المعبأة ، اليقظة ، الفعالة . ويجب على الجزائرية ، في كل مرة تدخل فيها الى المدينة الاوروبية ان تحرز نصراً على ذاتها ، على مخاوفها

الطفولية . يجب عليها ان تستعيد صورة المحتل المثبته في مكان ما من عقلها وفي جسمها لكي تعيد تكوينها وتمهد للعمل الرئيسي في تآكل هـذه الصورة وجعلها غير اساسية ، وانتزاعها من خجلها .

ان ما يصيب الاستعمار من تمزيق ، ذاتي في أول الأمر ، يكون نتيجـة انتصار المستعمَر على خوفه المزمن وعلى اليأس الذي يكتنفه والذي قطّره فيه ، يوماً بعد يوم ، استعمار استقر على امل البقاء إلى الابد .

ان الفتاة الجزائرية ، كل مرة تكون لازمة ، تقيم ارتباطاً . فمدينة الجزائر لم تعد المدينة العربية وإنما أصبحت منطقة الجزائر ذات الادارة المستقلة ، الجهاز العصبي لتشكيل العدو كما يتسع حجم وهران وقسطنطينة . لذلك يعمل الجزائري وهو ماض في شن كفاحه على فك اسار الكماشة التي تحكم فكيها حول المدن الوطنية . وهكذا خلقت الثورة بين نقطة واخرى ، بين روسو والداي — حين وبين البيار وشارع ميشيليه روابط جديدة . والمرأة الجزائرية ، الفتـاة الجزائرية الشابة ، هي التي أخـذت على عاتقها هذه المهمات بنسبة تتزايد تزايداً قويا .

وكانت هذه المهمات التي يوكل القيام بها إلى المرأة الجزائرية مثل نقل البلاغات والأوامر الشفهية المعقدة ، التي يجب أن تحفظ أحياناً عن ظهر قلب من قبل نساء لا يتمتعن بادنى تعليم .

كذلك كان عليها ان تقوم بدور العس ساعة كاملة بل غالباً أكثر ، أمـام منزل يجري فيه لقاء بين مسؤولين .

وعلى مدى تلك الدقائق التي لا نهاية لهـا حيث يجب تجنب البقاء في نفس المكان لئلا يلفت الانتباه ، وتجنب عدم الابتعاد كثيراً تنفيذاً لمسئولية الحفاظ على أمن الاخوة الموجودين في الداخل ، غدا من المألوف التأكد من وقوع حوادث مأسوية — هزلية . فان هذه الشابة الجزائرية السافرة التي « تسير على الرصيف»

كثيراً ما ترمقها عيون الشباب ، فيتصرفون ازاءها كما يتصرف جميع شباب العالم ، ولكن تصرفهم يتسم بصفة خاصة ، نتيجـة للفكرة التي يحملونها ، عادة ، عن السافرة . وهي غير سارة ، بذيئة ، ومهينة . وعندما تحدث مثل هذه الامور . يجب على الفتاة العض على النواجذ ، والسير خطوات قليلة والافلات من المـارة الذين يجلبون الانتباه ، والذين يوحون لمارة آخرين بالرغبة سواء للعمل مثلهم أم لاتخاذ موقف المدافع . أو تكون مهمة المرأة الجزائرية الانتقال من مكان الى آخر ، حاملة عشرين أو ثلاثين ، أو اربعين مليون ، من مـال الثورة في حقيبة يدها أو في حقيبة صغيرة ، ذلك المال الذي سوف يستخدم في سد احتياجات اسر المعتقلين أو في شراء الادوية والاغذية من أجل ثوار الجبل .

هذا المشهد من الثورة ، قامت بدوره المرأة الجزائرية بمـا لا يصدق من الثبات وضبط النفس والنجاح . وبالرغم عن الصعوبات الداخلية والذاتية ورغماً عن عدم الفهم الذي يصل درجة العنف احياناً ، والصادر عن جانب من الاسرة فان الجزائرية سوف تؤدي جميع المهمات التي تسند اليها .

الا أن الامور سوف تتعقد بالتدريج . ذلك أن المسؤولين الذين ينتقلون ، مستعينين بنساء ـ كشافات أو بفتيات شابات مستطلعات للطريق ، لا يكونون رجال سياسة ، حديثو العهد ، وغير معروفين بعد لدى مصالح الامن . ولكن قادة عسكريين مشهورين ، اخذوا يمرون بالمدن في ترحالهم . وكان هؤلاء معروفين ، والبحث جار عنهم . وليس هناك كوميسير بوليس واحد لا يملك صورة لهم على مكتبه .

هؤلاء العسكريون الذين يتنقلون ، وهؤلاء المقـاتلون ، مسلحون بأسلحتهم دوماً . وهي بنادق سريعة الطلقات أو مسدسات ، أو قنابل يدوية وقد تكون هذه الاسلحة بأنواعها الثلاثة معاً سلاحاً لهم . وبعد تردد طويل يوافق المسؤول السياسي لهؤلاء الرجال ، الذين ما كان في مكنتهم القبول بوقوعهم في الأسر ، على ان يناط بالفتـاة الشابة المكلفة بتقدمهم حمل اسلحتهم المعبأة والجاهزة

للضرب ، على أن يستعيدوها ، في الحال لدى تأزم الموقف . وعلى هـذا يتقدم الموكب اذن في قلب المدينة الاوروبية . فتاة صغيرة ، بيدها حقيبة تسير على بعد مائة متر، ومن خلفها اثنان أو ثلاثة في منظر استرخاء . هذه الفتاة الصغيرة التي تكون المنارة ، والبارومتر بالنسبة للمجموعة هي عامل الايقاع الذي يحدد الخطر. توقف – انطلاق، ثم توقف – انطلاق وسيارات البوليس في الاتجاهين ، والدوريات... الخ تمضي متتابعة .

ومن حين الى آخر كانت الرغبة تستبد بالعسكريين ، كما كانوا يعترفون بعد انتهاء مهمتهم ، لاستعادة ما في حوزة الفتاة من سلاح ، خوفاً من الوقوع على غرة في قبضة العدو ولا يكون لديهم الوقت للدفاع عن انفسهم . ومع هذه المرحلة فان المرأة الجزائرية تزداد انخراطاً في لحم الثورة ودمها .

إلا أن فاعليتها ، ابتداء من عام ١٩٥٦ تأخذ ابعاداً هائلة في الحقيقة . اذ لما كانت ادارة الثورة تريد كيل الضربة لقاء الضربة رداً على المجازر ضد المدنيين الجزائريين في الجبال وفي المدن ، فانها قد رأت نفسها لا تستطيع التراجع ، ان لم تشأ أن يستولي الرعب على الشعب، عن تبني ألواناً من الكفاح كانت مستبعدة حتى ذلك الوقت. ان هذه الظاهرة لم تحلل تحليلا كافياً ولم يطنب ما فيه الكفاية في الكلام عن الاسباب التي تقود حركة ثورية الى اختيار هذا السلاح الذي يدعى الارهاب .

كان الارهاب ، اثناء المقاومة الفرنسية يستهدف عسكريين من الالمان المحتلين أو منشآت العدو الستراتيجية . وكان تكتيك الارهاب هو ذاته لا يتبدل . اغتيالات فردية ، او اغتيالات جماعية بالقنابل أو نسف القطارات . اما في الوضع الاستعماري وبخاصة في الجزائر ، حيث يكون المستوطنون على درجة من الأهمية ، وحيث تكون الجيوش الاقليمية قد عبأت بسرعة ، الموظف والممرض والبقال ، في جهاز القمع ، فان المسؤول عن الكفاح ليجد نفسه في مواجهة وضع جديد كل الجدة .

ليس هناك من يتخذ بسهولة قراراً ، بالعمل على قتل مدني في الشارع. ولا يوقت قنبلة في مكان عام بدون مأساة ضمير .

كان المسؤولون الجزائريون الذين كانوا يحسبون انهم قادرون على الرد على ضربات العدو من دون ازمات ضمير حادة ، يكتشفون رغم أخذهم بعين الاعتبار لشدة القمع وجنونية الاضطهـــاد، ان ابشع الجرائم المرتكبة لا تشكل مبرراً كافياً لاتخاذ بعض القرارات . وهكذا فقد تراجع المسؤولون ، مرات عديدة، عن تنفيـــذ مشاريع للرد أو انهم استدعوا في آخر لحظة الفدائي المكلف بوضع القنبلة . لقد كان هناك ، ايضاحاً لهذا التردد ، ذكرى البشاعة التي مني بهـــا المدنيون المقتولون أو المصابون بجروح بليغة . وكان هناك الحرص السياسي على عدم صدور ما يخشى منه من التصرفات ، على تشويه قضية الحرية . وكذلك كان هناك الخوف من أن يصاب الاوربيون، الذي يعملون مع الجبهة، اثناء عمليات الاعتداء . ثمة توجسات ثلاثة اذن دخلت في الاعتبار هي : عـــدم تكديس الضحايا التي تكون بريئة احياناً، وعدم اعطاء فكرة خاطئة عن الثورة واخيراً ابقـــاء الديموقراطيين الفرنسيين وديموقراطي جميع البلاد واوربيي الجزائر ، مفتونين بالمثل الوطني الجزائري .

والحال فان تذبيح الجزائريين والغزوات التي تجري في الارياف تعزز أمن المدنيين الاوروبيين وتبدو انها تمكن للنظام الاستعماري وتنعش الأمل في دنيا المستعمر .فالاوربيون الذين كانوا على أثر بعض الاعمال العسكرية التي قـام بها الجيش الوطني الجزائري في ظل كفاح الشعب الجزائري قد حققوا في حدة عرقيتهم ووقاحتهم . قد استعادوا عجرفتهم السابقة وازدرائهم التقليدي .

انني لأذكر تلك المخلوقة ،رئيسة المكتب الحكومي للتوزيـع في بيرطوطه ، يوم حجز الطائرة المقلة اعضاء جبهـــة التحرير الوطنية الخمسة ، وهي تلوح بصورهم ، على باب مخزنها ، عاويـــة :« لقد اصطادوهم ، وارجو أن يقطعوا رقابهم » .

★

كانت كل ضربة توجه الى الثورة وكل مذبحة يقترفها الخصم تعزز شراسة المستعمرين وتحاصر المدني الجزائري من جميع الجهات .

★

كانت القطارات التي تنقل العسكريين الفرنسيين ، والبحرية الفرنسية التي تقوم بالمناورات وبالضرب بالقنابل ،من مرافىء الجزائر وفيليب فيل والطائرات الجاهزة للانقضاض والجنود الذين يقومون بهجماتهم على الدوارات والذين يقومون ، بلا حساب في تصفية الرجال الجزائريين... كل ذلك كان يساهم اذن في احساس الشعب أنه بدون دفاع ، وانه بدون حماية ، وان شيئاً ما لم يتغير وان الاوربيين قادرون على عمل ما يريدون . ان هذه الحقبة هي التي كنا نسمع اثناءها أوربيين يصرحون في الشوارع : « فليتولى كل واحد منا ، عشرة منهم ، ويملص رقابهم ، ولسوف ترون بأن المسألة ستحل بسرعة » على حين كان الشعب الجزائري ، وبخاصة ، شعب المدن ، يرى هذا التبجح الوقح يسحق أمله ، ويتأكد من عدم معاقبة هؤلاء المجرمين الذين يسرحون ويمرحون امام اعينهم . وكان يمكن ، فعلياً ، ان يطلب من كل جزائري وكل جزائرية في أية مدينة تسمية الذين يمارسون التعذيب وسفاحي المنطقة .

وابتداءاً من فترة معينة اخذ جزء من الشعب يقبل في فكره مبدأ الشك ويتساءل فيما اذا كان حقاً يمكن الصمود كماً وكيفاً في وجه هجمات المحتل .

هل تستحق الحرية الولوج من أجلها الى دوامة الارهاب الهائلة وضد الارهاب ؟ الا يعبر عدم التناسب هذا عن استحالة التخلص من الاضطهاد ؟

بيد أن جزء آخر من الشعب قد نفذ صبره وهو يريد وقف هذه الغلبة التي يحصل عليها العدو بطريق الارهاب . فلم يعد بالامكان استبعاد القرار بضرب الخصم فردياً أو بالاسم ، ان كان دم جميع المعتقلين الذين « قتلوا وهم يحاولون

الفرار » وصراخ الذين اعدموا ، يطالب بالحاح بتبني اشكال جديدة في المعركة .

ولسوف يكون رجال البوليس واماكن تجمع المستعمرين المقاهي ، في مدينة الجزائر ووهران وقسطنطينة الهدف في البداية . ومنذ ذلك الحين والجزائر تنخرط بعناد في العمل الثوري ، بكامل قواها . فهي تنقل القنابل اليدوية والمسدسات التي سوف يتناولها الفدائي في اللحظة الحاسمة أمام البار ، أو عند مرور المجرم المطلوب واثناء هذه الحقبة ، كان الجزائريون الذين تفاجئهم الحوادث وهم في المدينة الاوروبية يوقفون ويستجوبون بلا رحمة ويفتشون .

ولهذا السبب يجدر بالمرء أن يتتبع ذلك الرجل وتلك المرأة، احدها بموازاة الآخر، هذا الزوج الذي يحمل الموت الى العدو والحياة الى الثورة. الواحد منهما يسند الآخر ، بينما يكون احدهما، في الظاهر ، غريب عن الآخر . المرأة وقد تحولت الى أوروبية تحولاً اساسياً ، سهلة الحركة طليقة المشية لا يستراب بها ، مندمجة في البيئة ، والآخر غريب مسترخ يمشي نحو قدره .

وعلى نقيض الرجال غير الاسوياء ، الفوضويين ، الذين شهرتهم الآداب ، فان الفدائي الجزائري لا يتعاطى المخدر . فما بالفدائي من حاجة لان يتجاهل الخطر ، ولان يموه على ضميره أو يتناسى . فما أن يقبل « الارهابي » القيام بمهمة ما ، حتى يترك الموت ينساب الى روحه. ذلك أنه يضرب موعداً منذ ذلك الحين مع الموت. اما الفدائي نفسه ، فان موعده يكون مع حياة الثورة وحياته ذاتها . ان الفدائي لا يضحى به . وهو لا يتراجع حقيقة ، امام احتمال فقدانه لحياته من اجل استقلال الوطن ، ولكنه ، في أية لحظة من لحظات حياته لا يختار الموت .

واذا كان القرار قد اتخذ بقتل ذلك الرئيس للشرطة كأداة للتعذيب أو ذلك الزعيم السائر في ركاب المستعمر فانما ذلك يكون لان مثل هؤلاء الرجال يشكلون

عقبة أمام تقدم الثورة . ان فروجير Froger مثـلاً يرمز الى تقليد استعماري وطريقة قد نشأت في مدينتي صطيف وغلما عام ١٩٥٤ [1] بالاضافة الى أن قوة فروجير المزعومة تبلور عملية الاستيطان وتسمح لآمال الذين يبدأون التشكك في حقيقة صلابة النظام ، بالانتعاش . ذلك انه من حول رجال مثل فروجـير يتجمع اللصوص وسفاحو الشعب الجزائري يشد بعضهم ازر بعض . والفـدائي يعرف هذا حق المعرفة وكذلك تعرفه المرأة التي ترافقـــه ، المرأة مستودع الاسلحة . فهي ناقلة مسدسات ، وقنابــــل يدوية ومئات من تذاكر النفوس المزورة أو القنـــابل وهكذا تتطور المرأة الجزائرية السافرة ، كالسمكة في المياه الغربية . يبتسم لها العسكريون وتبتسم لهـا الدوريات الفرنسية وهي مارة . ومن هنا وهناك ترشقها الاطراءات حول مَظهرها ولكن احداً لا يشك ان في حقائبها يقبع المسدس – الرشاش الذي سوف يحصد عما قليل اربعـة أو خمسة من افراد احدى الدوريات .

حري بنا أن نعود الى هـذه الفتاة الصغيرة ، التي نزعت الحجاب بالامس ، والتي تتقدم في المدينة الاوربية التي يخترقها رجال الشرطة والمظليون والجنود . انها لم تعد تمشي في ظل الحيطان كما كان ينزع بها الميل لمثل ذلك قبل الثورة . إذ كانت الجزائرية مدفوعة باستمرار للاحتجاب من امـام عضو المجتمع المسيطر ، تتجنب السير في وسط الرصيف الذي يعود حق السير فيه في جميع بلاد العالم الى الذين يأمرون .

ان كتفي الجزائرية السافرة بارزان ، والمشية رشيقة ، مدروسة : فلا هي بالسريعة جداً ولا بالبطيئة جداً . والفخذان عاريان ، ليسا اسيري الحجـاب ، بل طليقان ، والردفان « للهواء الطلق ».

---

١ – فروجير هو احد الزعماء الذين ساروا في ركاب المستعمر ... قضى عليه احد الفدائيين في اواخر عام ١٩٥٦ .

ان الفتاة الجزائرية في المجتمع التقليدي ، تكتشف جسدها بأهليتها للزواج بالحجاب ، والحجاب يستر الجسد ويهذبه ويعدله في ذات الفترة التي يعرف فيها اكثر مراحله تفتحاً . والحجاب يحمي ويطمئن ويعزل . ولكي يقدر المرء أهمية الحجاب في جسد المرأة المستيقظ يجب أن يكون قد استمع لاعتراف الجزائريات أو حلل مادة الاحلام لدى بعض حديثات العهد في السفور . انه انطباع عن جسد ممزق ، مقذوف خارج طريقه ، تبدو الاعضاء فيه انها تستطيل الى ما لا نهاية . فعندما تضطر الجزائرية الى اجتياز احد الشوارع فانها تبقى ، لمدة فترة طويلة ، وهي تخطىء تقدير المسافة التي يجب عليها ان تقطعها ، تقديراً صحيحاً . ويبدو الجسم الذي ينزع الحجاب ، انه قـد افلت ، وانه ينطلق اعضاء متفرقة . أو يشعر بأنه غير مكتمل اللباس ، وحتى انه عار . شعور بالنقص يعتلج في النفس على نحو حاد . مذاق مضطرب بشيء لم يتم . وتحسس مخيف بان المرء يتفكك . فان غياب الحجاب يفسد سيماء الجزائرية الجسدي . والامر يقتضيها بسرعة اختراع احجام جديدة لجسدها ، ووسائل جديدة للمراقبة العضلية ، ويقتضيها الامر أن تخلق لنفسها مشية امرأة سافرة في الخارج . فعليها أن تكف عن الخجل تماماً ، وتتغلب على الارتباك (اذ يجب عليها أن تكون كالاوربية) مع تجنب المبالغة ، وزيادة التبرج وهو امر يجذب الانتباه . فان الجزائرية التي تدخل المدينة الاوربية ، عادية تماماً ، تتعرف على جسدها من جديد وتعيد تركيز حركاته بطريقة ثورية تماماً . هذا الديالكتيك الجديد للجسد وللعالم هو رئيسي في حالة المرأة [1] .

---

١ – ان المرأة التي ، لم تكن تخرج من البيت مطلقاً قبل الثورة ، الا بصحبة امها أو زوجها ، ستجد نفسها وقد اوكلت اليها مهمات محددة : كالانتقال من وهران الى قسطنطينة او الجزائر وهكذا تركب القطار اياماً عديدة ، وحدها ، حاملة توجيهات هامة ، رئيسية من أجل الثورة ، وتبيت في كنف اسرة مجهولة ، عند مناضلين وهنا ايضاً يجب التنقل بانسجام تام ذلك أن العدو يراقب الذين يوحون بالريبة . ولكن المهم هنا ان الزوج لا يظهر اية صعوبة لكي يسمح بالسفر لزوجته من أجل المهمة . فان انفته ، على العكس ، سوف تظهر في قوله ، لدى =

الا أن الجزائرية لا تكون في صراع مع جسدها فحسب . فهي حلقة صغيرة، اساسية في بعض الاحيـان ، في الآلة الثورية . تعرف السلاح ، تعرف مخابىء هامة . وعلى ضوء الاخطار الملموسة التي تواجهها يجب ان تتفهم الانتصارات بعيدة المنال ، التي احرزتها لكي تستطيع القول للمسؤول عنها عند عودتها : « نفذت المهمة ... ر — ا — س»[1].

وهناك صعوبة أخرى تستحق أن تذكر قد تبدت وما تزال الفعالية النسوية في شهورها الأولى بعد . فقد كان يحدث للمرأة الجزائرية ، السافرة ، ان يراها، اثناء تنقلاتها ، قريب أو صديق لأسرتها ويتردد الأب بالطبع في الوثوق بتلـك البراهين . ثم تتضاعف الاخباريات . فان أشخاصاً متعددين يؤكدون انهـم شاهدوا « زهرة أو فاطمة سافرة ، تسير كامرأة ... يا إلهي احمينا ». ويقرر الأب عندئذ بأن يطلب التفاسير ،ولدى الكلمات الأولى يتوقف اذ يدرك الأب من النظرة الحازمة التي تنظر بها الفتاة الشابة ان تاريخ تطوعها في العمل قديم . فإذا بالخوف القديم من العار قد زال وحل مكانه خوف جديد ما يزال ، ندياً ،

—عودة ضابطة الاتصال : « انــك ترين ، ان كل شيء قد سار كما يجب في غيابك » .ان غيرة الجزائري القديمة وحذره «الوراثي » قد ذابا لدى الاحتكاك بالثورة . ويجب ايضاً ذكر التجاء مناضلين مطاردين الى عند مناضلين آخرين لم تكن هويتهم قد عرفت بعد من قبل المحتل . وفي هذه الحالات تكون المرأة وحدها مع المختبىء طيلة النهار وهي التي توفر له الطعـام والصحف والبريد . كذلك لا يظهر هنا أي شيء من عدم الثقة أو أية خشية . فان الزوج أو الأب بعد ان جند في الكفاح قد اكتشف افاقاً جديدة في العلاقات ما بين الجنسين. والمناضل قد اكتشف المناضلة وهما معاً قد خلقا ابعاداً للمجتمع الجزائري .

١ — اننا هنا نتبع طريقة وصف المواقف . فهناك على العكس عمل قائم بذاته يجب ان يجري حول دور المرأة في الثورة . المرأة في المدينة وفي الجبل وفي الادارات العدوة والمرأة المومس ، والمعلومات التي تحصل عليهـا ، المرأة في السجن أو وهي تحت التعذيب ، أو في مواجهة الموت او امام المحاكم ، ان جميع هذه البنود لا بد من أن تتكشف بعد تفحصها ، عن عدد لا يحصى من الوقائع الأساسية في تاريخ الكفاح الوطني .

هو الخوف من استشهاد الفتاة في المعركة أو من تعذيبها . ومن خلف الفتاة يتقاطر افراد الأسرة وعلى رأسهم الأب الجزائري المنظم لجميع الأمور ، المؤسس لجميع القيم ، مقتفين خطى الفتاة ، مجندين للجزائر الجديدة . حجاب يخلع ثم يعاد وحجاب يستخدم كآلة يحول الى فن في التمويه ووسيلة للكفاح. وهكذا تختفي الصفة العالقة بالحجاب التي كانت في ظل الوضع الاستعماري قريبة الشبه بالتابو ، اختفاء يكاد يكون تاماً اثناء كفاح التحرير . وحتى الجزائريات غير المندمجات ، فعلياً في الكفاح قد اخذن بعادة الاقلاع عن الحجاب . صحيح ان الحجاب ، في بعض الظروف.وبخاصة منذ عام ١٩٥٧ قد عاد الى الظهور ، فان المهمات قد صارت في الواقع ، تزداد صعوبة . اذ ان الخصم قد اصبح يعلم، من كلام بعض المناضلات تحت التعذيب ، ان نساء يتحلين بأحدث مظهر اوربي يلعبن دوراً اساسياً في المعركة بالاضافة الى انه قد تم توقيف بعض الاوربيات من الجزائر ، واختلط الأمر على الخصم الذي يتبين بأن جهازه نفسه أخذ يتداعى . ولقد كان اكتشاف السلطات الفرنسية امر مشاركة الاوروبيات في كفاح التحرير ، يوماً من أيام الثورة الجزائرية [1] فان الدوريات الفرنسية قد طفقت ابتداءاً من هذا التاريخ تستجوب كل شخص واصبح الاوروبيون والجزائريون ، على حد سواء متهمين . وتبددت الحدود التاريخية واختفت ، وصار يطلب من كل من يحمل رزمة فضها وابراز محتواها . واصبح كائن من كان يستطيع طلب الحساب من أي كان حول طبيعة الطرد المنقول في مدن الجزائر وفيليب فيل أو باتنا . وبات من الضروري ، في هذه الظروف ، اختفاء الرزمة عن نظرات المحتل بالانتزار من جديد بالحايك الواقي .

وهنا ايضاً وجبت العودة ، مرة اخرى ، الى تعلم فن جديد . اذ اصبحت مهمتها ان تحمل تحت الحجاب شيئاً ما ثقيلاً الى حد ان المسؤول قال ان من «الخطر

---

١ ــ انظر الفصل الخامس .

الشديد تحريكه » وعليها ان تعطي انطباعاً بان يديها طليقتين ولا يوجد شيء تحت هذا الحايك غير امرأة مسكينة أو فتاة صغيرة لا قيمة لها. فلم يكن الأمر يعني التحجب فقط. يجب أن تصطنع رأساً مثل « رأس فاطمة » يوحي للجندي بالاطمئنان وان هذه « الفاطمة » غير قادرة بالتأكيد على عمل أي شيء.

انه لامر في منتهى الصعوبة. فهؤلاء هم رجال الشرطة يقفون تماماً على بعد ثلاثة أمتار يستجوبون امرأة محجبة لا تبدو بخاصة انها مشبوهة اما القنبلة ، فقد قدّر بالنظر للتعبير المؤثر الصادر عن المسؤول ، بان التحري يجري بصددها أو بصدد كيس القنابل اليدوية ، المربوط بالجسد بواسطة مجموعة من الخيوط والاحزمة. فالايدي يجب أن تبقى حرة ، عارية ، بارزة ، معروضة بتواضع وبلاهة ، للعسكريين لكي لا يذهبوا الى ابعد من ذلك. واظهار الايدي فارغة ، حرة ، من الممكن تحريكها في الظاهر ، تلك هي الاشارة التي تنزع من الجندي العدو ، سلاحه.

ان جسد الجزائرية ، الذي تجرد في المرحلة الاولى ، يتفتح الآن وبينما كان يجب ، في مرحلة سابقة ، تهيئة هذا الجسد للاندفاع وصقله في اكتساب الوقار أو باتجاه الاغراء ، فانه يجب هنا ، سحقه وجعله قبيحاً والى ابعد حد جعله احمق. تلك هي – كما رأينا – مرحلة القنابل والقنابل اليدوية وعبوات المسدسات سريعة الطلقات.

لقد جاء نبأ ذلك الى العدو واذا بمنظر النساء الجزائريات الكلاسيكي الملتصقات بالحائط ، يعود الى الظهور في الشوارع. تمرر على اجسادهن الكواشف المغناطيسية الشهيرة « مقلاة التحميس » وتغدو كل امرأة محجبة وكل جزائرية موضع شبهة. فليس هناك أي تفريق. وهذه المرحلة هي المرحلة التي يتمرس اثناءها الرجال والنساء والاطفال وجميع افراد الشعب الجزائري مجتمعين ، على وحدتهم ، وعلى قابليتهم الوطنية واعادة صهر المجتمع الجزائري الجديد.

ان الاستعمار الفرنسي ، جاهلاً أو متجاهلاً هذه الظروف المبدعة ، قـــد جدد بمناسبة ١٣ مايو ، حملته الكلاسيكية لجعل المرأة الجزائرية تأخذ بأسباب الحضارة الغربية . فكان ان هدّد مستخدمون بالطرد،وجذبت نساءمسكينات من منازلهن ، واقتيدت مومسات الى الساحات العامة فينزع عنهن الحجاب على نحو رمزي ، في جو من الصراخ : « تحيا الجزائر الفرنسية ! » وامام هذا الهجوم الجديد عادت ردود الفعل القديمة الى الظهور . وبصورة عفوية ، وبدون اشعار فان نساء جزائريات ، مسفرات منـــذ زمن طويل ، عاودن ارتداء الحايك ، مؤكدات ، هكذا، ان المرأة الجزائرية لا تتحرر بدعوة من فرنسا ومن الجنرال ديجول .

يجب أن نرى دوماً وراء ردود الفعل البسيكولوجية هـــذه واصل هذا الجواب المباشر المميز قليلاً ، موقف الرفض الشامل لقيم المحتل ، حتى اذا كانت هذه القيم تنجح من الناحيـة الموضوعية في أن تكون موضع الاختيـــار . ذلك انه بسبب من عدم اعتبار هذه الحقيقة الفكرية ، هذا الاستعداد الطبعي (فتلك هي حساسية المستعمر المشهورة) فان ما يستشيط له غضب المستعمرين دائماً هو « العمل على تقديم النفع لهم بالرغم عنهم » اذ يريد الاستعمار أن يأتي كل شيء من قبله . على حين أن بسيكولوجية المستعمَر المهيمنة هي أن يتشنج امام اية دعوة تأتيه من قبل الفاتح . وعلى هذا فان الاستعمار ، بتنظيمه لمظاهرة ١٣ مايو المشهورة ، قد ارغم المجتمع الجزائري على أن يعود مرة اخرى الى طرق من الكفاح كان قد تجاوزها من قبل. وبمعنى ما فان الاحتفالات المختلفة قداحدثت رجوعاً الى الخلف وتقهقراً.

يجب على الاستعمار أن يقبل باشياء تفعل من دون رقابته ومن دون ادارته . ونحن نتذكر الجملة التي تفوه بها رجل سياسي افريقي في اجتماع دولي . فان هذا الرجل ، رداً على الاعتذار الكلاسيكي بعدم نضج الشعوب المستعمرة ، وعدم قدرتها على حكم نفسهابنفسها حكماً جيداً ، قد طالب للشعوب المتخلفة : «بالحق

في أن تحكم نفسها على نحو سيء » . ان تأهب الاستعمار بالمذاهب في محاولته لتبرير الحفاظ على سيطرته تحصر المستعمر دوماً تقريباً ، في دائرة الاقتراحات ــ المضادة ، المبتوره ، الصارمة ، الجامدة .

لقد رجع الى استعمال الحجاب بعد الثالث عشر من مايو ولكنه ، نهائياً ، اصبح مجرداً ، بصورة خاصة من بعده التقليدي .

لقد كانت للحجاب اذن ديناميكية تاريخية ، بارزة بصورة ملموسة في انتشار الاستعمار في الجزائر . فالحجاب ، كان في البداية آلية في عملية المقاومة ، ولكن قيمته ، في نظر المجموعة الاجتماعية تبقى قوية . فالتحجب يجري تقليدياً ، للفصل الصارم بين الجنسين « ولكن ذلك يجري ايضاً لان المحتل يريد نزع الحجاب في الجزائر وفي وقت ثان فان التبدل يدخل بمناسبة الثورة وفي حالات محددة . لقد اقلع الناس عن الحجاب اثناء العمل الثوري فان ما كان مبعثه الاهتمام لتفشيل هجمات المحتل البسيكولوجية والسياسية قد اصبح وسيلة ، اداة . فالحجاب يساعد الجزائرية في الاجابة على المسائل الجديدة التي يطرحها الكفاح .

ان المبادهة في ردود فعل المستعمر لا تخطر على بال المستعمرين . فهي ضرورات المعركة التي تحدث في المجتمع الجزائري مواقف جديدة وسلوكاً جديداً وتكيفات جديدة في الظهور .

ملحق :

يدل هذا النص الذي ظهر في المقاومة الجزائرية عدد ١٦ مايو ١٩٥٧ ، على الشعور الذي يخامر المسؤولين عن جبهة التحرير الوطنية دوماً حول دور المرأة الجزائرية الهام في الثورة .

« اننا نشاهد تفسخ الاساطير القديمة فوق الارض الجزائرية التي يزداد تحررها كل يوم من الضغط الاستعماري . « كانت مسألة المرأة الجزائرية بين

الأمور غير المفهومة » في دنيـا الاستعمار ، وكانت هذه المسألة تذكر بكثرة . وتزخر دراسات علماء الاجتماع والمختصين في الشؤون الاسلامية ورجال القانون بالنظرات حول المرأة الجزائرية .

وتشكل حالة الجزائر الشخصية ، التي توصف تارة أنها عبدة الرجل وتارة اخرى انها سيدة المنزل بلا منازع ، موضوعاً في نظر المنظرين.

« ويؤكد آخرون ، من ذوي الاطلاع ايضاً بأن المرأة الجزائريـــة « تحلم بالتحرر » ولكن نظام المجتمع الابوي المتقهقر والسفاح يقف في وجه هذه الرغبة الشرعية . وتدل قراءة المناقشات الأخيرة في الجمعية الوطنية الفرنسية على القيمة المعلقة على المعالجة المتلاحمة لهذه « المسألة » . فان غالبية النواب المستجوبين قد أثاروا مأساة الجزائرية وطالبوا برفع مستواها . وهذه هي الوسيلة ، على حـد قولهم لنزع سلاح التمرد. ذلك ان قلب النظام الاستعماري الى « حالة اجتماعية » هو احدى المعطيات الثابتة لدى المفكرين الاستعماريـين . لكي يقال ان مثل هذه البلاد ، كانت تدعو ، وتلتمس الفتح . وعلى هذا المنوال – اذا سقنا مثلاً شهيراً – جرى وصف مركب نقص التبعية لدى المدغسكريين .

« والمرأة الجزائرية ، ذاتها ، هي « صعبة المنال ، ذات قيمة مزدوجة ذات مركب مازوكي [١] » وقد وصف لديها مواقف سلوكية محددة تجعل هـــذه المميزات المختلفة بارزة . والحقيقـــة هي في ان دراسة شعب محتـل ، خاضع عسكرياً لسيطرة حاقدة ، تتطلب ضمانات من العسير توفرها . فليست الأرض هي المحتلة . ولا المطارات والموانىء . فان النظام الاستعماري الفرنسي قـــد استقر في صميم الفرد الجزائري نفسه وشرع فيه بعمل مدعم ، لازالة الغشاء ، واخراجه من ذاته ، والاجتثاث المتتابع عقلياً .

---

١ – المازوكية Masochisme هي «حصول الشخص على الاشباع الجنسي من تلقي الأذى النفسي أو البدني الذي ينزلة به المحبوب » أنظر المعجم الفلسفي ليوسف كرم . (المترجم)

« فليس هناك احتلال للأرض واستقلال للاشخاص . ان البلاد بأكملها وبتاريخها وبنبضها اليومي، هي التي ينكر وجودها وها هي التي تشوه على أمل الوصول الى محقها محقاً نهائياً وفي ظل هذه الشروط فان تنفس الفرد يكون تنفساً مراقباً ، محتلاً . انه تنفس في المعركة .

« وحينئذ تكتسب قيم الخاضع للاحتلال الحقيقية بسرعة عادة الوجود خفية . اذ يتعلم الخاضع للاحتلال وهو في مواجهته المحتل، ان يختبىء وان يخدع. ويرد على فضيحة الاحتلال العسكري بعار الاختلاط. فكل لقاء ما بين الخاضع للاحتلال والمحتل هو كذب .

« ان الجزائرية قد قلبت في ثمان واربعين ساعة رأساً على عقب جميع الحقائق الملفقة التي كان يمكن أن يظن بأن سنوات من « الدراسات على الطبيعة » قد اكدتها بأسهاب . حقاً ان الثورة الجزائرية قد احدثت تعديلات موضوعية في المواقف والتطلعات . ولكن الشعب الجزائري لم يلق سلاحه قط . ولم يكن الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ هو يقظة الشعب وانما الاشارة التي كان يترقبها ليباشر تحركه ولكي يمارس في وضح النهار تكتيكاً مكتسباً ، معززاً ، تعزيزاً قوياً على مدى المرحلة الجميلة الفرنسية – الاسلامية .

ان الجزائرية ، مثل اخوتها ، قد نمت بدقة آليات للدفاع تسمح لها اليوم بأن تلعب دوراً رئيسياً في الكفاح التحرري ».

وقبل كل شيء ، الحالة الشخصية المشهورة للجزائرية وجودها ، المزعوم ، داخل سياج ، عزلها من حيث الأساس ، تذللها ، حياتها الصامتة ، المتاخمة لحالة الغياب تقريباً . ثم « المجتمع الاسلامي » الذي لم يفسح لها أي مكان ، باتراً شخصيتها ، غير سامح بالتفتح ولا بالنضج ، مبقياً عليها في وضع طفولي مستديم .

« ان مثل هذه التأكيدات الموضحة « بأبحاث علمية » تنال اليوم الانكار الوحيد الذي تستحقه التجربة الثورية . « فلم تكن محبة البيت المضطرمة جداً

لدى الجزائرية ، تجديداً لعالمها . انهـــا ليست كرهاً للشمس أو للشوارع أو للمنظر . وهي ليست هرباً من العالم .

ذلك أن تياراً مزدوجاً ، يجب أن يوجد في الظروف العـــادية ، ما بين الأسرة وبين المجموع الاجتماعي . ان البيت يوطد الحقيقـــة الاجتماعية ولكن المجتمع يجعل الأسرة شرعية وقانونية . والبنية الاستعمارية هي الانكار ذاتـه لهذا التبرير المتبادل . فان المرأة الجزائرية ـ وهي تلزم نفسها بتضييـق كهذا وتختار لوناً من الوجود المحدود في المكان، كانت تعمق شعورها في الكفاح وتهيىء نفسها للمعركة .

هـذا الانغلاق ، هذا النبذ لبنية مفروضة ، هذا الانطواء على النواة الخصبة التي تمثل حياة ضيقة ولكنها متلاحمة الاجزاء ، كل هذا يشكل لمـــدة طويلة ، اساساً ، قوة لمن يخضع للمحتل . فالمرأة تشرف وحدها ، بواسطة تكنيك واع، على وضع الاستعدادات في موضعها والشيء الجوهري هو في أن يصطـدم المحتل باستمرار بجبهة موحدة . ومن هنا ذلك المسار المتجمد الذي يجب أن تكتسبه التقاليد .

وفي الحقيقة ان الغليان وروح الثورة تصونهما المرأة في المنزل ذلك أن الحرب الثورية ليست حرب رجال .

فهي ليست حربـاً تدار بجيش عام وجيوش احتياطية . ان الحرب الثورية هي كالحرب التي يقودها الشعب الجزائري ، حرب شاملة ، حيث لا يكون دور المرأة في التطريز أو في بكاء الجنـدي . فالمرأة الجزائرية هي في قلب المعركة ، موقوفة ، منكل بها ، منتهكة العرض، مقتولة فانها تؤكد عنف رجل الاحتلال وانعدام انسانيته .

فانها تظهر ممرضة كانت ، أم ضابطة اتصال ، أم مكافحة ، عمقاً وكثافة في الكفاح .

واننا سوف نتكلم كذلك على قدرية المرأة ، وفقدان رد الفعل عندها بازاء

الخصومة وعدم اهليتها في تقدير خطورة الحوادث . مما هو ابقاء غير شرطي للابتسامة، ودوام الامل غير متين ، ظاهرياً ،ورفض للخضوع، ليتمثل في عدم التبصر في الوقائع .

فالدعاية ، التي هي تقدير حاد للحادث ، غير ملاحظة من قبل المحتل . والشجاعة التي تظهرها المرأة الجزائرية في الكفاح ليست ابتداعاً غير منتظر أو نتيجة لتحول . فانما هي جواب الدعاية في المرحلة التمردية .

ان مكان المرأة في المجتمع الجزائري معين بدرجة من الحمية هي التي تفسر لنا ارتباك المحتل . ذلك أن المجتمع الجزائري قد تكشف عن انه ليس ذلك المجتمع الخالي من المرأة كما كان يكتب عنه .

فجنباً الى جنب في سيرهن معنا ، تدفع اخواتنا اجهزة العدو امامنا ويصفين نهائياً الخدع القديمة ».

الفصل الثاني

« هنا صوت الجزائر ... »

نعتزم في هذا الفصل دراسة المواقف الجديدة التي يتبناها الشعب الجزائري اثناء كفاح التحرير ازاء اداة تكنيكية محددة : هي اذاعة الراديو . وسوف نرى عندئذ ان الوضع الاستعماري بجملته هو الذي يطرح من خلف هذه المواقف الجديدة ، على بساط البحث . وستكون لدينا الفرصة لكي نبين ، على مدى هذا الكتاب ، بان الجدل في مبدأ السيطرة الاجنبية ذاته ، يقود الى تحولات اساسية في ضمير المستعمَر ، وفيما لديه من فهم الرجل المستعمر وفي موقعه هو كانسان في العالم .

ان راديو الجزائر ، وهو عبارة عن محطة اذاعة فرنسية مقامـة في الجزائر منذ عشرات السنين ، أي طبعة ثانية ، أو صدى لمحطة البث الفرنسية الوطنية المقامة في باريس ، يعبر قبل كل شيء عن المجتمع الاستعماري وقيمـه . ومعظم الاوربيين في الجزائر ، يمتلكون جهازاً للراديو ، فقد كانت اجهزة الراديو قبل عام ١٩٤٥ موجودة بنسبة ٩٥ ٪ بين ايدي الاوربيين. الجزائريون الذين يقتنون اجهزة محصورون في عداد « البورجوازية المتطورة » كما يملكها بعض القبائليين ، الذين هاجروا منذ زمن بعيـــد وعادوا بعدئذ الى القرية . فان وضع الانقسام

الاقتصادي الفظ ، بين المجتمع المسيطر والمجتمع الخاضع ، يوضح جانباً كبيراً من حالة الامور الراهنة. ولكن هذا الصنف من الوقائع يتكون بالطبع ، ككل وضع استعماري على نحو معين . ذلك ان مئات من الاسر الجزائرية التي كان مستوى حياتها يجعل حيازتها لجهاز الراديو ممكنة ، لم تفعل ذلك . ولم يكن هناك ، مع ذلك ، قراراً ، معقولاً ، خاضعاً لظروف معينة ، برفض هذه الآلة . ولا توجد مقاومة منظمة لهذا التكنيك فان الناس لا يظهرون ، حتى بعد التمحيص مناهج فعلية مضادة لعملية نزع الثقافة الاصلية ، كتلك التي نجد لها وصفاً في بعض المقالات المتخصصة للبحث في المناطق النامية. ولنشر مع ذلك الى أن الجزائريين ، عندما تحشرهم الاسئلة حول اسباب هذا الكتمان يسوقون في الغالب الجواب التالي : « ان تقاليد الاحترام ، تتصف عندنا بنوع من الاهمية ومن التدرج ، بحيث يصبح من المستحيل علينا ، عملياً أن نستمع ، على نطاق الاسرة ، الى برامج الراديو . فالتلميحات الغزلية ، أو حتى الاوضاع الهزلية ، التي ترمي الى اثارة الضحك ، المشار اليها في الراديو تحدث في وسط الاسرة المتحلقة للاستماع ، توترات لا يمكن احتمالها » وهي حجة تراءت بأنها تؤيد النتائج التي توصل اليها علماء الاجتماع .

ان احتمال حدوث الضحك، الممكن حصوله دواما في حضرة رب الاسرة أو الاخ البكر ، والاستماع جماعة لكلمات الحب أو الاحاديث الطائشة ، يعيق بكل تأكيد ، انتشار جهاز الراديو في المجتمع الجزائري الاصلي. ويجب فهم العادة المتبعة من قبل الخدمات الحكومية في اذاعة الجزائر بالرجوع الى هذا الحد الاولي من جعل الأمور معقولة ، بالاعلان عن البرامج التي يمكن الاستماع إليها جماعة وَتلك التي يخشى اثناءها في ان تتأثر بها كثيراً قواعد الاجتماع التقليدية .

هذا هو اذن على مستوى معين ، من التفسير ، سبب الحذر من هذه الواقعة : فالمجتمع الجزائري يتقبل بصعوبة اجهزة الراديو . وهو يرفض ، جملة ، هذا

التكنيك الذي يتهم استقراره ويثير الاضطراب فيه ، وفي النماذج التقليدية في الحياة الاجتماعية ، والحجة المستند إليها ، هي ان البرامج في الجزائر ، باعتبارها غير مبالية لأنها منقولة حرفياً عن المثل الغربي ، لا تتناسب مع نظام التدرج في وطن بسيط من النوع المتشدد ، وحتى من النوع الاقطاعي ، وذي نواهٍ اخلاقية متعددة ، في الأسرة الجزائرية .

وانطلاقاً من هذا التحليل فان أموراً تكتيكية لمعالجة الموضوع بات من الممكن عرضها من بينها تقسيم البث الى طوابق بدلالة الأسرة مأخوذة بمجموعها ، بعضها يستهدف فريق الرجال وبعضها يستهدف فريق النساء ... الخ ولسوف ترى ونحن نصف الاضطرابات العنيفة الطارئة في هذا المجال ، بمناسبة الحرب الوطنية ، ماذا يحتوي مثل هذا التفسير الاجتماعي من صفة وعلى أية مجموعة من الاخطاء ينطوي .

ولقد سبق لنا ان ألمعنا الى السرعة المتزايدة التي انتشر بها استعمال الجهاز في المجتمع الاوروبي . فان ادخال الراديو في المجتمع المستعمر يجري على ايقاع يذكر بما يجري في أكثر مناطق الغرب تقدماً . وعلينا أن نتذكر أنها توجد ، في الوضع الاستعماري حيث يصل الانقسام الاجتماعي ، كما رأينا ، الى حدة لا نظير لها ، برجزة مطلقة العنان وكاريكاتورية تقريباً للقادمين من العاصمة الأم . ان حيازة جهاز للراديو بالنسبة للاوربي هي بالتأكيد ، تدشين الحلقة الجاهزة دواماً من مقتنيات البرجوازية — الصغيرة الغربية التي تبدأ بالراديو وتنتهي بالفيلا مارة بالسيارة والثلاجة . وهي ايضاً الاحساس بحياة المجتمع المستعمر وخفقانها وبافراحه وتقاليده المتعجلة للاستقرار ، ومدارج رقيه وتأصله. إلا أن ذلك ، في البلاد [1] ، في المراكز التي تدعى مراكز المعمرين يكون

---

١ — Le bled وهي لفظة عربية دارجة الاستعمال في شمال افريقيا وتعني على وجه الاجمال المناطق الريفية أو كل ما هو خارج المدن الكبرى .

الوسيلة الوحيدة لكي يبقى المرء مرتبطـــاً بالمدن ، بالجزائر وبالعاصمة الأم وبعالم المتمدنين . فان ذلك هو وسيلة من الوسائل للفرار من ضغط المحيط به من « جموع السكان الاصليين» أي من ضغط هذه الحياة عديمة الفاعلية ، السلبية ، المجدبة . وهو ، بحسب تعبير المعمر المعتـاد الوسيلة الوحيـدة لاستمرار شعور الانسان بانه رجل متمدن » .

ان الراديو يذكر المعمر ، وهو في المزارع، بواقع السلطة ، ويعلله ، بوجوده ذاته ، وبالامن وراحة البال . فراديو الجزائر يؤسس حق المعمر ويعزز يقينه بالاتصال التاريخي لواقعة الفتح وبالتالي لاستثماره الزراعي . وموسيقى باريس ومقتطفات صحف العاصمة الام والازمات الحكومية الفرنسية تشكل لوحة متلاحمة تظهر فيها آخر انواع الزخرف في البلاد ، ينهل منها المجتمع الاستعماري ما يمتن اقدامه ويبرر وجوده . ان راديو الجزائر يتعهد غرس ثقافـــة رجل الاحتلال ، وسوء التوزيـع اللاثقـــافي – بالنسبة لطبيعة المحتل . ان راديو الجزائر ، أي صوت فرنسا في الجزائر يشكل مركز المعلومـــات الوحيد على مستوى الاعلام . وراديو – الجزائر هو يومياً بالنسبـــة للمعمر ، دعوة لعدم التمازج مع السكان الاصليين وعدم نسيانه لحـــق ثقافته . ان جماعات المعمرين المنتشرين في اواسط البلاد ، المغامرين وراء استصلاح الاراضي البـــور يعرفون ذلك جيـداً ولا ينفكون يرددون انه « لولا الخمر والراديو لكنا الآن قـــد استعربنا »[١] .

لقد تضاعف عدد الراديو قبل عام ١٩٤٥ باعتباره اداة تكنيكية للاعلام في المجتمع المسيطر في الجزائر . فهو اذن ، في ذات الوقت – وقد رأينا ذلك –

---

١ – ان راديو – الجزائر هو من جهـــة اخرى ، مرساة من الجواذب العديـدة التي تتعهد المجتمع المسيطر . ويلعب راديو مونت كارلو ، وراديو – باريس ، وراديو – اندوريه ، دور الحماية ، على حد سواء ضد « التعريب » .

شبه وسيلة للصمود عند الاوروبيين المنعزلين ووسيلة للضغط الثقافي على المجتمع الخاضع . ويعاش الراديو لدى المزارعين الاوربيين ، على الجملة ، كصلة وصل مع العالم المتحضر واداة فعالة في مقاومة الأثر العارض لمجتمع من السكان الاصليين ، ثابت ، لا تطلعات له ، متأخر ، لا قيمة له .

وعلى العكس عند الجزائري ، فان الوضع مختلف برمته . فقد رأينا بأن الأسرة الميسورة تتردد في اقتناء جهاز للراديو . إذ ليس من المقرر المقاومة الواضحة ، المنظمة ، المعللة ، وانما ذلك هو اقرب الى نوع من عدم الاكتراث الكئيب بهذه القطعة من الوجود الفرنسي . ويصبح الوضع ، في الاوساط الريفية والاقاليم البعيدة لمراكز التعمير ، اكثر وضوحاً. فهناك جهل للمسألة وبمعنى اكثر دقة ، فان المسألة هي في هذه النقطة ، بعيدة عن اهتمامات المواطن الاصلي اليومية بحيث يدرك المرء سلفاً بصورة واضحة جداً الخطأ الذي قد يرتكبه في سؤاله الجزائري عن السبب الذي يمنعه من اقتناء جهاز لاقط للاذاعة .

فان الباحث الذي يتحرى اجوبة مرضية في هذه المرحلة لا يتوصل الى تبديد جهله اذ يجب ان تؤخذ جميع الاعذار المقدمة ، بأقصى الحذر في الحقيقة . ويجب ألا نتوقع ، على مستوى التجربة الحية ، الحصول على تفسير معقول للمواقف وللاختيار .

ويمكن هنا أن نحاول مستويين من التفسير . ان محطة الاذاعة كتكنيك من حيث الاداة بمعناها الضيق ، تنمى القدرات الحسية ، والفكرية والعضلية في مجتمع ما. **ومحطة الاذاعة في الجزائر المحتلة هي تكنيك رجل الاحتلال في إطار السيطرة الاستعمارية** ، لا تلبي أية حاجة حيوية لدى « المواطن الاصلي » . ذلك أن محطة الاذاعة ، كرمز للوجود الفرنسي ، كجهاز مادي داخل في الشكل الاستعماري ، قمين بأن يكون مشحوناً بطاقة سلبية في منتهى الاهمية . فان احتمال التعدد وامكانية الاتساع في سلطات الحواس والفكر ، في الراديو الفرنسي ،

مرفوضان ضمناً من قبل المواطن الاصلي ومنكران . فليست الاداة التكنيكية والمكتسبات العلمية الجديدة ، عندما تكون منطوية على عبء كاف لكي يزعزع تلك الاستعدادات لدى المجتمع الاصلي ، في الامور التي ينظر اليها ابداً بحد ذاتها وفي حياد مطمئن . فان الاداة التكنيكية تنغل في الوضع الاستعماري ، حيث توجد ، كما نعرف ، العوامل السلبية أو الايجابية ، دائماً ، بصورة ملحة جداً .

وعلى مستوى آخر فان محطة الاذاعة ، بصفتها جهازاً للاعلام وناقلة للغة وبصفتها حاملة رسالة ، قد يدرك امرها في صميم الوضع الاستعماري ، بطريقة خاصة . فالتكنيك الاذاعي ، والصحافة وبصورة عامة الاجهزة والبلاغات واجهزة ارسال الاشارات ، كلها في المجتمع الاستعماري توجد تبعاً لنظام مميز تماماً . والمجتمع الجزائري ، المجتمع الخاضع لا يشارك مطلقاً في هذه الدنيا من الاشارات . إذ ان البلاغات التي تذاع من راديو الجزائر تلتقط من الممثلين الوحيدين للسلطة في الجزائر ومن التابعين الوحيدين للقوة المسيطرة ، وتبدو بشكل سحري ، انها تتجنب اعضاء المجتمع من « السكان الاصليين » . وعدم اقتناء اجهزة للراديو من قبل هذا المجتمع يعزز بدقة ذلك الشعور بعالم الاعلام الاستعماري المغلق والمميز . وعلى صعيد البرامج اليومية من الواضح أن المدائح التي تزجى لجيوش الاحتلال كانت غير موجودة عملياً ، قبل عام ١٩٥٤ .وثمة اشارة تصدر من هنا وهناك ، حقيقية ، الى الايام الكبرى في فتح الجزائر ، يزدري بها رجل الاحتلال ببذاءة تهيج اللاشعور بالمقاوم الجزائري في عام ١٨٣٠ ويمتهن من قيمته . وهناك أيضاً تلك المظاهر التذكارية التي يدعى اليها المقاتلون « المسلمون » القدامى لوضع باقة من الازهار عند قدمي الجنرال بوجو أو المساعد بلاندان وكلاهما من ابطال الفتح وهما اللذان قاما بتصفية الوف الوطنيين الجزائريين . الا أنه لا يمكن التأكيد اجمالاً ، بان المحتوى العرقي الواضح أو الضد – جزائري هو الذي يبين لنا هذه اللامبالاة وهذه المقاومة من جانب المواطن

الاصلي . ويبدو أن التفسير يحوز على مزيد من الوضوح في كون الجزائري ينظر الى راديو الجزائر على انه عالم المستعمر الناطق . لذلك فان الجزائري قد عرف راديو ـ الجزائر قبل الحرب : « **بدافع من مزاجه الهزلي بأنه : « فرنسيون يتحدثون الى فرنسيين »** .

لقد ظهرت الجزائر منذ عام ١٩٤٥ ، بقسوة على المسرح العالمي . ذلك أن اخبار الخمس واربعين ألفاً من القتلى في صطيف وغلما قد أخذت ، لمدة اسابيع ، تغذي صحف العالم وبيانات الاعلام في مناطق مجهولة حتى ذلك الحين أو غير مبالية بمصير الجزائر . ولاح على الجزائريين أنفسهم ، كبادرة اولية للانقلابات الجوهرية ، تحول من جراء تأثير الاخوان الذين ماتوا او الذين شوهوا ومن خلال عطف رجال ونساء امريكا واوروبا وافريقيا الملتهب . فيقظة العالم المستعمر والتحرر المتزايد للشعوب التي طال استعبادها قد حددا مكان الجزائر في سلسلة من التطور ، تجاوزتها وهي تبنيها في ذات الوقت . ويرتدي ، هنا ، ظهور بلاد عربية متحررة أهمية فريدة . واول ادخال للاجهزة اللاقطة للاذاعة بكميات كبيرة ، الى الجزائر يعاصر انشاء محطات اذاعة وطنية في مصر وسورية ولبنان . وقد تزايدت الاجهزة ابتداء من عام ١٩٤٧ – ١٩٤٨ ولكن على نحو معتدل . وحتى في ذلك الحين فان الجزائري كان يهتم بالاستماع الى الاذاعات الاجنبية والعربية فقط وحدها . أما اجهزة الراديو فلا تدار على محطة راديو ـ الجزائر إلا لأنها تبث موسيقى جزائرية نموذجية وموسيقى وطنية . وامام هذا الطعم الذي يثير اللعاب في سوق الربح بالجزائر يمضي اصحاب الامتيازات من الاوروبيين للبحث عن ممثلين لهم من « السكان الاصليين » اذ يخيل للبيوتات الاوروبية عندئذ أن مبيع أجهزة الراديو يتعلق بجنسية التاجر . ثم يسعى لاغراء الوسطاء الجزائريين (الكومبرادور) اكثر فأكثر من أجل تجارة الاجهزة الاذاعية . وقد رافق هذا الابداع في نظام توزيع هذه الاجهزة ، احتدام في السوق . ذلك ان جزءاً من البرجوازية الجزائرية الصغيرة سوف يعمد ، اثناء هذه الفترة الى اقتناء اجهزة للراديو .

غير ان الشعب الجزائري قد أحس في عام ١٩٥١ – ١٩٥٢ بمناسبة أولى المناوشات في تونس ، بالضرورة لزيادة شبكة استعلاماته . واذا بمراكش – تباشر في عام ١٩٥٢ – ١٩٥٣ حربها التحريرية وفي الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ تنضم الجزائر الى الجبهة الغربية المعادية للاستعمار . ولقد حدث أكثر التحولات أهمية ، في نطاق اقتناء الراديو المحصور ، وفي حدود تعريف المواقف الجديدة في مواجهة هذا التكنيك المحدد للاستعلام ، في هذه الفترة .

ان ردود الفعل التي ندت عن رجل الاحتلال هي التي انبأت الجزائري بأن امرأ ما، ذا خطورة واهمية يجري في البلاد. ان الاوروبي يكون لنفسه بواسطة الشبكة الثلاثية ، الصحافة والراديو وتنقلاته ، إطلاعاً واضحاً إلى حد كافٍ ، على الاخطار التي تحيق بالمجتمع المستعمر . أما الجزائري ، الذي يقرأ في وجه رجل الاحتلال هزيمة الاستعمار المتزايدة فانه يشعر بالحاجة الحيوية والملحة في ان يكون على اطلاع . كان الاحساس المشتت بأن امرأ ما ، ذا طبيعة أساسية يجري، معززاً في الوقت ذاته بتصميم الوطنيين المدعم بالأفعال على الوجود كأمة، المعبر عن امنية دفينة في الشعب ويجسد ارادة كانت بالامس فارغة من محتواها ولكنه كان معززاً خاصة بالتفتيت الموضوعي الظاهر للعيان ، الذي طرأ على طمأنينة المعمّر .

إن كفاح التحرير ، الذي يتبدى أثره في وداعة المعمر المفاجئة أو ثورات غضبه غير المنتظرة والتي لا باعث لها ، يضع الجزائري في حالة من الشعور بالضرورة لمتابعة تطور المجابهة خطوة فخطوة . وفي هذه الحقبة التي يتموضع فيها الصراع ويتخذ ابعاده يضاعف الاوربيون مناخطائهم ، ذلك بأن المعمرين، في المزارع يجمعون العمال الزراعيين لكي يعلنوا عليهم بأن « عصابة المتمردين » الفلانية ، وتكون غير معروفة مع ذلك في المنطقة قد أبيدت في الاوراس أو في جبال القبائل . وفي مرات أخرى توزع، زجاجات الليموناده او قطع الكاتو على الخدم ابتهاجاً بتنفيذ الاعدام في ثلاثة أو اربعة متهمين على بعد بضعة كيلومترات

من الارض المملوكة .

وهكذا رأى الجزائري نفسه مساقاً إلى اقتناء مصادر خاصة به للاستعلام منذ الشهور الاولى للثورة ، بهدف حماية ذاته وتجنباً لما يعتبره مناورات كاذبة من رجل الاحتلال. واصبحت معرفته بما يحدث وفي ذات الوقت اطلاعه على خسائر العدو الحقيقية وعلى خسائره ، امراً اساسياً . وقد اخذ الجزائري ، في هذه الحقبة ، يحس بالحاجة الى النهوض بحياته الى مستوى الثورة . الى الدخول في شبكة الاستعلام الواسعة ، وهو بحاجة للولوج الى عالم تجري فيه أمور ، ويوجد فيه حدث ، وتتحرك فيه قوى . وعلى هذا يفضي الأمر بالجزائري ، من خلال وجود حرب ، أوقد قومه نارها الى جماعة تعمل . ويجب على الجزائري أن يرد على استعلامات العدو باستعلاماته الخاصة . ورداً على حقيقة رجل الاضطهاد ، التي نبذت باعتبارها كذباً مطلقاً ، وقدمت اخيراً حقيقة اخرى تمارس . فإن كذب رجل الاحتلال يكسب عندئذ قيمة ، إذ انه اليوم ، كذب صادر عن الشعور بالخطر ، محاصر في حالة الدفاع . فان دفاع رجل الاختلال وردود فعله ومقاوماته هي التي تلفت النظر الى فعالية العمل الوطني وتجعلها تشارك في عالم من الحقيقة . ورد فعل الجزائري ليس رفضاً متشنجاً ، يائساً . وهكذا يصبح كذب رجل الاحتلال، لانه يعترف انه مضطرب، وجها ايجابياً لحقيقة الامة الجديدة .

لقد حاول الجزائري اثناء شهور الحرب الاولى تنظيم جهـــازه الاعلامي بالصحافة المكتوبة . عندئذ كانت الصحـــافة الديموقراطية التي كانت لا تزال موجودة حتى ذلك الحين في الجزائر والصحف اليومية العريقة في معارضـــة الاستعمار أو ذات الارادة الموضوعية هي التي يقبل على قراءتها بشغف اذن المواطن الأصلي . فيستقي الجزائري من هذا القطاع الاعلامي عناصر تساعده على اعادة توازنه . فإن قوة البلاغ الصادر عن الاستعمار والاجهزة التي تعمل من أجل فرضه ولكي تجعل منه الحقيقة ، تصل ، في أغلب الاحيان الى حد من الاحكام ، لا يملك المستعمَر ازاءها ، سوى قناعته الداخلية ، التي تسير اكثر

فأكثر الى الافراط ، لكي يعارض بها هجمات الصحافة الفرنسية الجارحة إلى اقصى حد وتظاهرات السلطة العسكرية والبوليسية المسرحية. والرجل المدني، الذي يصطدم يومياً بأنباء افناء العصابات الاخيرة ، لا ينجو من اليـــأس إلا بموقف مؤمن وباعتقاد لا يلين .

بيد ان التأييد المعنوي الذي كانت تقدمـــه الصحافة الديموقراطية ، لمجرد كونه موضوعياً اخذ يتوقف تدريجياً . فالرقابة الذاتية في الصحافة المحليـــة المعروفة باستقامتها التقليدية تعزز هذا الاحساس بالنقص ، وبالشيء غير التام، وحتى بالخيانة على مستوى الاعلام . ويبدو للجزائري ، ان اجزاء كاملة من الحقيقة قد اخفيت عنه . وعنده ما يشبه اليقين على ان القوة الاستعمارية هي في طريق الانهيار أمام ناظريه وانه لا يتابع حشرجتها متابعة كافية . وهو يخشى فجأة ان يزول هذا الشيء الذي كثيراً ما مقته ، والذي أصيب اصابة قاتلة في الجبـــل ، وان ايامه ، على الارجح قد اصبحت معدودات ، قبل ان تترك له الفرصة عن كثب ليرى هذه القوة وهذه الغطرســـة كيف تتقوض . ويشعر الجزائري فيهذه الحقبة بإحساس منالخيبة فإن عدائيته تبقىمكبوحة لانه لا يعد النقاط ، ولا يسجل ، ساعة فساعة انكسارات العدو ، لانه اخيراً لا يقيس سنتيمتراً بسنتيمتر تضاؤل قوة رجل الاحتلال التدريجي .

ان الاوربي قد نظر ، بالاجمال الى ابعاد التمرد ، بموضوعية كافية . فهو لا يفكر في الحقيقة ، في ان الجيوش الثورية قد تستقر ، ذات صباح جميـــل في المدينة . ولكنه يعرف بدقة تقريباً أهمية قوى الثورة ، ولا ينفك يقارنها بقوى الجيوش الفرنسية . فكل طائرة تشق عنان السماء وكل آلة مدرعة تتقدم في الصباح ، هما على السواء إشراقة شمس في دنيا المعمّر المضطربـة ، الحائرة . ان الاوروبي يحس بالزلزلة ، إلا انه في الشهور الاولى من عام ١٩٥٥ كان يعتقد أنه لم يفقد شيئاً وانه ما يزال للاستعمار مستقبل في الجزائر تعزز موقعـه التصريحات

الرسمية في الراديو .

أما الجزائري ، من ناحيته وبخاصة الجزائري المقيم في مناطق الارياف، فقد كان يكمل ما لديه من نقص في الاعلام بمبالغات غير معقولة . ذلك أن ردوداً من الفعل تطرأ عندئذ لا تتناسب مع الحقيقة الموضوعية الى حد أنها تتخذ في نظر الملاحظ مساراً مرضياً . وقد حدث في الشهور الاولى من عام ١٩٥٥ أن انتشرت ، في قسطنطينه أنباء مفادها مثلاً ان الجزائر قد تقع في قبضة الوطنيين أو يشيع في مدينة الجزائر ان العلم الجزائري صار يرفرف فوق قسطنطينه وفيليب – فيل وباتنا .

وكان المعمرون ، في مراكز تعميرهم الصغيرة لا يفقهون الاطمئنان المفاجيء، الوحشي ، عند الفلاح وكان الانسان يراهم مرات عديدة يهرعون ، الى أقرب مدينة يهتفرن فيها لكي يحصلوا على التأكيد بأن امرأ هاماً ، لم يطرأ على البلاد . فالاوربي يدرك ان الحياة التي شيدها على حشرجة الشعب المستعمَر ، تفقده اطمئنانه .

فقبل التمرد ، كانت ثمة حياة وحركة ووجود للمعمّر ، يقابلها لدى المستعمَر حشرجته المستمرة . وقبل التمرد كانت حقيقة المعمر وعدم وجود المستعمَر . غير ان الاوربي منذ عام ١٩٥٤ اصبح يرى أن حياة أخرى قد بدأت تتململ بموازاة حياته ، وان الامور على ما يبدو في المجتمع الجزائري لا تتكرر كما في الماضي . ويعرف الاوربي، بعد عام ١٩٥٤ ، ان أمراً ما يخفى عنه وكانت هذه الحقبة التي يأخذ فيها التعبير القديم المبتذل، **التلفون العربي** ، معنى يكاد يكون علمياً .

يطلق الاوربيون ، على السرعة النسبية التي تنتشر بها الاخبار ، في بلاد المغرب من فم لاذن ، في مجتمع السكان الاصليين ،اسم **التلفون العربي**. ولم يكن المقصود في أية لحظة اخفاء أمر آخر، في طيات هذه العبارة أو وراء هذه اللفظة.

وفي عام ١٩٥٥ نسمع اوروبيين بل وجزائريين يلجأون خفية ، وكأنهم يفشون سراً من أسرار الدولة ، إلى خطة فنية للاذاعة على مسافة بعيدة ، مما يذكر بغموض بنظام الاشارات، أو بقرع الطبول كتلك التي نجدها في مناطق افريقيا. فإن الجزائري يمد الاوربي المنعزل اذن بالاحساس انه على صلة دائمة بالقيادة العليا للثورة . يظهر عند المواطن الاصلي نوع اسمى من الاطمئنان ، مجسم يستثير على مستوى السلوك بعض البوادر الفردية . هكذا فاننا نستطيع مشاهدة ظواهر من نوع الآموك [1] نموذجية تماماً .

ثمة أفراد تهب في داخلهم عاصفة فجائية هوجاء عندئذ فتقذف بهم خارج انفسهم ويرون وهم يهجمون في شارع، أو على مزرعة منعزلة، عزلاً من السلاح أو شاهرين سكينا بالياً مثلّما، صارخين : «تحيا الجزائر مستقلة ، اننا لمنتصرون». ان هذا السلوك الهجومي ، المتصف بالعنف جهاراً ، يكون مآله ، في غالب الأحيان الى رشة من العيارات النارية ترشقه بها احدى الدوريات من بندقية سريعة الطلقات . وعندما يستطيع الطبيب محادثة المدنف على الموت فإن اكثر التعابير جرياً على اللسان تكون : « لا تصدقونهم نحن الاقوى ، ان ربعنا قادمون وأنا مكلف باعلان نبأ قدومهم عليكم . نحن أشداء ولسوف نسحق العدو » .

ويحدث ان يكون هؤلاء « المستنيرون » مصابين فقط ، وقد يوكل أمر التحقيق معهم للبوليس. ولا تكون الطبيعة المرضية لمسلك المتهم منهم ملحوظة ويبقى أيامه تحت التعذيب الى ان تعلن الصحافة على الجمهور أنه لقي حتفه وهو

---

١ – Amok حالة نفسية تنتاب الإنسان في ماليزيا تبلغ درجة الجنون الفتاك . واصبحت صفة في علم النفس لمن تنتابه اضطرابات نفسية تدفعه للانتقام وهي أكثر ما تظهر في بلاد العالم الثالث موجهة ضد المستعمر – المترجم .

يحاول الهرب مرة اثناء نقله من مكان الى آخر او انه توفي بمرض طارىء . ونجد في زمرة المسيطرين على حد سواء هيجاناً ينتاب العقول ، ونشاهد ظهور الخوف الجماعي وظهور حركات هروب بين المعمرين سابقة للاجرام . والفرق في حالة المستعمر انه يكون دائماً لديه انتقال الى الفعل، حوادث قتل واقعية ومتنوعة . وفي نيتنا أن نعالج هذه القضايا المختلفة الناجمة عن كفاح التحرير ، فيدراسة تقوم مباشرة على الامراض العقلية ، بأشكالها وظواهرها الشاذة وبوصفها .

ويوشك الجزائري أن يجد نفسه على صعيد الاستعلام واقعاً في شبكة محدودة بدقة في المكان . ففي أية قرية يوجد اتفاق عام من جانب الناس جميعاً ، حول أهمية جيش التحرير الوطني العددية والمادية . ويمكن الحصول عند الطلب على معلومات حول قوة التسلح وبرنامج العمليات القادمة . ولا يستطيع أحد ، بداهة ، أن يحدد مصدر هذه المعلومات ، ولكن أقل شك في قيمتها غيرمسموح به وهنا يفيدنا الوصف الذي كان قد أعطي ، عندما ينهار أي جيش وطني ، لانتشار الاخبار المقلقة ، المفجعة ، الكوارثية في صفوف الشعب ، كطريقة للمراجعة في تقدير الظاهرة المعاكسة . فربما تكون فرق من الطابور الخامس اكتشفت وكانت مكلفة في عام ١٩٤٠ بتقليح عقل الشعب الافرنسي بلقاح الاندحار ، غير أنه لا يمكننا تجاهل الواقع وهو أن الارض كانت مهيأة وأنه كان يوجد نوع من عدم التعبئة الروحية يمكن تفسيرها بالاخفاق الذي منيت به الديموقراطية في اسبانيا وايطاليا وفي المانيا وبصورة خاصة في ميونيخ . حتى ليمكن القول بأن انهزامية عام ١٩٤٠ كانت الثمرة المباشرة لانهزامية ميونيخ .

أما في الجزائر فعلى العكس بالنسبة لجميع البلدان المستعمرة التي تشرع في حرب وطنية — كل خبر يكون حسناً وكل استعلام يكون مقوياً للعزائم . والطابور الخامس في الجزائر ، شيء يستحيل وجوده . والتحقق من هذا الواقع هو الذي يقود المتخصصين في علم الاجتماع إلى الالتقاء مع التفسير القديم الذي

يرى أن المحاكمة العقلية أو التجربة لا تجد إلى « الساكن الاصلي » سبيلاً . بينما يقدر المتخصصون في الحرب ، باعتبارهم اكثر تجربة ، ان لهؤلاء الرجال روح معنوية قدّت من الحديد أو أن تعصبهم لا يمكن فهمه . واذا ما نظر الى الفريق بمجموعه فانه يعطي انطباعاً بأنه يكمل استعلاماته بيقين متزايد ، مستمد من الحقيقة وهذه الظواهر ، هذه المواقف النابعة من الاعتقاد الشامل ، وهذه القناعة الجماعية ، تعبر عن ارادة الجماعة في البقاء على أقرب ما يمكن في الثورة ، بل وفي تخطي الثورة ، ان امكن ، حتى **تكون في فوهة النار** .

وفي ذات الوقت – كما سبق ان قلنا ، وبخاصة في مراكز المدن ، تبرز للوجود أنواع من السلوك أكثر تعقيداً . فالجزائريون المتعطشون للمعلومات الموضوعية يشترون الصحف الديموقراطية التي تأتي من فرنسا . وهذا نجاح مالي لا ريب فيه بالنسبة لهذه الصحف . وهكذا تتضاعف الاكسبريس ، وفرانس اوبزرفاتور والموند وتزيد ارسالياتها إلى الجزائر بنسبة واحد إلى ثلاثة وحتى إلى خمسة . ويكون مدراء أكشاك بيع الصحف ، وكلهم تقريباً أوربيون ، هم أول من ينبه إلى ما في هذا من خطر اقتصادي ومن خطر سياسي وعندما تدرس مسألة الصحافة المكتوبة في الجزائر ، يجب ان نتذكر دواماً وجود خاصية في نظام التوزيع . ذلك ان الباعة العموميين ، وجميعهم فتيان جزائريون ، يبيعون الصحافة المحلية فقط . والجرائد اليومية الاوروبية لا تقدم إلى المشترين في الطرق أو في منازلهم. بل يجب أن تطلب هذه الصحف من الاكشاك وهذا ما يجعل أصحاب الصحف المكتوبة في الجزائر يحسون مباشرة بمنافسة الصحافة القادمة من فرنسا . وتأخذ صراحة ، حملات التشهير التي تستهدف « الصحافة المتواطئة مع العدو » وما يلحق ببعض طبعاتها من مصادرات متكررة ، معنى خاصاً . أما اصحاب أكشاك بيع الصحف فقد أخذت عادتهم تتزايد بالاجابة بروح عدائية : « لم تصل بعد هذا النهار ، صحافة القذرين » .

ويكتشف الجزائريون في الاوساط المدنية وبخاصة في التجمعات الريفية ، ان

الاهتمام بوصول أو بعدم وصول هذه التي تدعى صحافة ، يكفي لتصنيفها . ان أصحاب أكشاك الصحف شأن رؤساء مكاتب التوزيع ، هم، في الجزائر كما هم في فرنسا ، من قدماء المحاربين ، بصفة رئيسية ، وقد حشروا حشراً في كادر تشكيلات المستعمرين المتطرفين . فان طلب **الاكسبريس** أو **الاومانيته** أو **الموند** ، بالنسبة للجزائري ، معناه الاعتراف علنا بالولاء للثورة ، وأغلب الأحيان يكون أمام مخبر سري ، ومعناه على كل حال، تحديد موقفه بلا احتراز بالنسبة للتعليمات الرسمية وبالتالي « الاستعمارية » ، وهو اظهار رغبته في التمييز ، وهو في نظر مدير الكشك ، تأكيد لا لبس فيه ، من جانب هذا الجزائري بالتضامن مع الثورة ، فشراء مثل تلك الجريدة يكون على هذا النحو شبيهاً بفعل وطني . فانه بسرعة فائقة اذن يصبح فعلا خطراً .

كل مرة يطلب فيها الجزائري احدى هذه الصحف يرى ممثل رجل الاحتلال ، مدير الكشك ، في هذا الطلب التعبير عن الوطنية ، المساوي لعمل حربي . وبالتدريج يسير اليافعون الجزائريون على عادة ايكال امر شراء هذه الصحف الى صغار جزائريين ذلك اما لان اليافعين قد انتظموا حقيقة في هذا الوقت في فعاليات حيوية من أجل الثورة واما لفطنة يمكن فهمها بالرجوع الى الجو المشحون بثورة الكراهية للاجنبي التي اهاجها المعمرون الفرنسيون عام ١٩٥٥ . وما هي الا اسابيع قليلة حتى تصبح « الحيلة » الجديدة مكشوفة فيمتنع اصحاب بيع الصحف ، كذلك ، ابتداء من حقبة معينة ، عن بيع الاكسبريس والاومانتيه والليبيراسيون لغير البالغين . ويصبح اليافعون مجبرين على كشف القناع عن انفسهم أو الاكتفاء بـ « صدى الجزائر » وكانت القيادة السياسية للثورة قد اصدرت أمرها بمقاطعة الصحافة المحلية في الجزائر في هذه الفترة خاصة .

ولقد كان هذا القرار يستجيب الى غاية مزدوجة . الرد العاجل أولا ، على هجوم الاحتكارات الجزائرية بتدبير له نتائج اقتصادية إذ بحرمان الجرائد اليومية الجزائرية من جزء كبير من زبائنها من السكان الاصليين تكون

الحركة الثورية قد قامت بفعالية كافية لزعزعة سوق الصحافة المحلية . ولكن القيادة السياسية كانت مقتنعة بخاصة بأن الجزائريين اذا تركوا للدعاية الاستعمارية وحدها سوف يتأثرون بالتدريج بالعمـــل المكشوف والمؤذي الذي يتجلى في تلك الصفحات الكاملة ، حيث تبسط بأبهـــة وبرفق الارقام والصور وحيث يمكن للانسان أن يقرأ على كل حال ، كل صباح ، الغاء الثورة ، بصورة واضحة .

وعلى مستوى الجماهير ، التي بقيت بمعزل عن هـــذا الصراع نسبياً ، حول الصحافة المكتوبة ، تصبح الضرورة ملحة ، من الحصول على اجهزة للراديو. كما يجب ان لا ننسى ، في الحقيقة أن امية الشعب التي اصبحت شاملة كانت تجعله لامبال بالأشياء المكتوبة . فقد كانت الغالبية الكبرى من الجزائريين ، في الشهور الاولى من تاريخ الثورة ، ترى في ذهنها كل شي مكتوب باللغة الفرنسية مماثلاً للتعبير عن سلطة الفاتح. فان شكل الخط في طباعة الاكسبريس أو فى «صدى الجزائر » كان العلامة على الوجود الفرنسي .

كان الحصول على جهاز للراديو ، يمثل في الجزائر عام ١٩٥٥ الوسيلة الوحيدة لحيازة مصدر ، غير فرنسي ، للاخبار ، عن الثورة. وتتخذ هذه الضرورة صفة الامر الملح عندما يعلم الشعب أن هناك جزائريين يقدمون كل يوم من القاهرة ، سجلاً بكفاح التحرير وهكذا تعود امواج الصفحـــات الكبرى المكتوبة في الجبال من قبل الاخوة والاهل والاصدقاء ، متدفقة من القــاهرة وسوريا ومن البلاد العربية جميعها تقريباً .

بيد أن ادخال اجهزة الراديو ، الى المنـــازل واكثر الدوارات تأخراً ، يتم على نحو تدريجي ، رغماً عن هذه المعطيات الجديدة . فلا تشاهد هزة حقيقية ، ولا تدفقاً هائلاً لاجهزة الراديو .

★

أما التحول الحقيقي فقد حدث في آخر عام ١٩٥٦ . اذ وزعت ، حقيقة ، في هذا الوقت ، منشورات تنبىء بوجود صوت الجزائر الحرة. حـــددت فيها ساعات الاستماع وأطوال موجة البث.وهذا الصوت « الذي يتكلم من الجبال» وغير محدد المكان جغرافيا ، ولكنه ينقل بلاغ الثورة العظيم الى الجزائر كلها ، يكتسب دفعة واحدة قيمة جوهرية . ففي أقل من عشرين يوماً نفذ جميع مـا في المستودعات من أجهزة الراديو وظهرت في الاسواق تجارة الاجهزة المستعملة . وانشأ الجزائريون المتمرسون لدى اصحاب محـــلات بيع الراديـو والادوات الكهربائية من الاوروبيين ورشات صغيرة . بالاضافة الى انـــه على التاجر ان يلبي حاجات أساسية . وعدم انتشار الانارة بالكهرباء الى مناطق واسعة في الجزائر ، يطرح في الحقيقة ، على المستهلك ، مسائل محددة. لذلك فان الاجهزة المدارة بالبطاريات هي التي تصبح منذ عام ١٩٥٦ أكثرها رواجـاً على الارض الجزائرية .فقد بيعت للجزائريين في بضعة اسابيع آلاف عديدة من الاجهزة. جهاز للفرد وحده وجهاز يقتنى من أجل الأسرة وجهاز لمجموعة من البيوت ، وجهاز للدوار [١] وجهاز للمشتى [٢] .

لم يعد ينظر لشراء أي جهاز،ابتداء منعام١٩٥٦ كأنه قبول بتكنيك حديث للاستعلام وانما كوسيلة وحيدة لمباشرة الاتصال بالثورة ومن أجل معايشتها . ويستطيع المتخصص بالتغيرات التكنيكية في البلدان النامية ، ان يكتشف

---

١ – Dauar دوار كلمة عربية الأصل تعني في الجزائر المنزل الكبير الذي يجمع عدة بيوت متفرعة من أسرة واحدة .

٢ – Mechta مشتى ، كلمة عربية ، أسم مكان ، حيث يلتقي رعاة أو فلاحون، لقضاء الشتاء ، وجمعها مشاتي . والكاتب يقصد هنا الى ان كل مجموعـــة كانت تشترك في شراء الراديو .

« المترجم »

علامة تحول أساسي في نوع الجهاز الخاص المدار **بالبطارية أو بالكهرباء** ، وهو شكل محسن وطليعه للجهاز الثابت المدار بالكهرباء . فان الجزائري يعطي في الحقيقة انطباعاً ، بانه يقفز مرحلة ، بل وانه دفعة واحدة ، يبلغ أكثر اشكال الاستعلام عصرية [1] .

وقد رأينا في الحقيقة ، أن هـــذا « التقدم » يفسر بفقدان الكهرباء في الدوارات الجزائرية .

ولم تفهم السلطات الفرنسية في الحال ، الاهمية الفريدة لهذا التغيير ازاء الراديو لدى الشعب الجزائري . فان مواقف المقاومة القديمة في نطاق العائلات تتفجر ، وقد اصبحنا نرى في أحد الدوارات ، جماعات من العائلات ، تتسمر انظارهم ، آباء وامهات واخوات وهم جالسون المرفق على المرفق ، على ابرة الراديو ، نتظاراً **لصوت الجزائر** . فان الأسرة الجزائرية تتكشف بنفسها ، وهي التي غدت فجأة غير مبالية بالاحتشام القديم والمعاشرة الجافة القديمة ، الخاليــة من الالفة ، على انها محصنة ضد حثالة الدعابات او الجمل التي يلقيها المذيـع أثنـاء الحديث هنا وهناك .

وتفقد الاداة التكنيكية ، بفقد الراديو على نحو سحري – ولكننا رأينـا التدرج المتوافق والديالكتيكي للضرورات الوطنية الجديدة – صفاته كجهاز من عند العدو .

لم يعد جهاز الراديو جزءاً من ترسانة الضغط الثقافي الذي يمارسه رجل الاحتلال ، فان المجتمع الجزائري ، إذ يجعل من الراديو وسيلة فريدة للمقاومة في وجه الضغوط البسيكولوجية والعسكرية ، التي يتعاظم هولها من قبل رجال

---

١ – ان مثل هذا التحقق ، يمكن ايضاً أن يحصل على مستوى الاتصالات العسكرية فان « جهاز الاتصال والمخابرات الهاتفية » في جيش التحرير الوطني قد ارتفع في أقل من خمسة عشر شهراً الى مستوى أرفع الانجازات في جيش عصري .

الاحتلال ، يقرر ، بحركة مستقلة داخلياً ، تحمل التكنيك الجديد ، وان يكون هكذا فرعاً من الطرق الجديدة في استخدام الاشارات ، التي ابدعتها الثورة .

وسوف يكون لصوت الجزائر المقاتلة ، على مستوى التلاحم والاستيلاء على الشعب بكتله ، أهمية رئيسية . ولسوف نرى بأن استخدام اللغات العربية والقبائلية والفرنسية ، باعتبارها افصاحاً عن مفهوم غير عرقي كما اضطر الاستعمار الى الاعتراف بذلك ، كان له فائدة في تطوير وتعزيز وحدةالشعب، بإشراك جبال الجرجرة بوجودها في المعركة من أجل الجزائريين الوطنيين في باتنا او تمور [1] . ان الافعال المقتطعة ، المجتزأة التي يلتقطها مراسل احدى الصحف، متعلق بالسيطرة الاستعمارية ، أو تبلغها السلطات العسكرية العدوة، تفقد صفتها الفوضوية، وتنتظم في فكرة سياسية وطنية وجزائرية ، انها تأخذ مكانها في استراتيجية عامة لاستعادة السيادة الشعبية . ان الافعال المتفرقة تندرج في ملحمة واسعة ، ويغدو القبائليون ، ليسوا اولئك « الذين في الجبال » وإنما الأخوة الذين يجعلون مع عمران وكريم حياة الجيوش المناوئة ، قاسية .

إن حيازة المرء لجهازه ، يعني دفع ضريبة للأمة أي شراء الحق في الولوج الى صفوف هذا الشعب من اجل الكفاح .

بيد ان السلطات الفرنسية بدأت تستبين اهمية هذا التقدم الشعبي في فن الاستعلام . وما لبثت الاجراءات القانونية ، بعد بضعة شهور من التردد ان ظهرت . واصبح بيع الراديو ممنوعاً إلا بتقديم ورقة بذلك تعطى من ادارة الأمن العسكري او من دوائر البوليس . أما بيع الاجهزة المدارة بالبطاريات فقد منع منعاً قاطعاً . وجرى ، عملياً جمع بطاريات الغيار من السوق. وسنحت

---

١ - ميناء جزائري ، في غرب الجزائر : اسمه العربي : غزوات . المترجم .

للتجار الجزائريين عندئذ في مضاعفة عمليات التهريب ، فرصة ، لكي يؤدوا خدمة وطنية بالعمل هكذا ، على توفير حاجة الشعب من بطاريات الغيار، بانتظام لا مثيل له [1] .

فالجزائري الذي يأمل ان يحيا في مستوى الثورة ، نفسه ، يملك اخيراً امكانية الاستماع الى صوت رسمي ، هو اصوات المقاتلين ، تشرح له المعَركة ، وتسرد له تاريخ التحرير في مسيرته واخيراً تعمل على اندماجه مع تنفس الامة الجديد .

وهنا تبرز ظاهرة تتسم بما يكفي من صفات الاصالة حتى تشد اليها انتباهنا. ذلك ان الخدمات الفرنسية المتخصصة الى ابعد حدود التخصص المتمكنة من تجربتها المكتسبة من الحروب الحديثة والمتدربة على ممارسة « حرب الموجات » سرعان ما تمكنت من تحديد أطوال محطة البث . واصبحت البرامــج عندئذ مشوشة بصورة منظمة وبالتدريج اصبح صوت الجــزائر المقاتـلة ، غير مسموع مما تفتق عنه شكل جديد من أشكال الكفاح ذلك ان بعض النشرات الموزعة نصحت الجزائريين بالمكوث للاستماع لمدة ساعتين أوثلاث ساعات متتالية واثناء الاذاعة نفسها كانت محطة ثانية تقوم بالبث على طول موجة اخرى في مقام المحطة الاولى المشوشة . وكان المستمع يندمج في معركة الموجات ويخمن تكتيك العدو ويحبط ، بطريقة جسدية تقريباً وعضلية، ستراتيجية الخصم . وفي اغلب الأحيان ، كان المشرف على الجهاز ، وقد ألصق اذنه به ، هو وحده الذي يفوز بالحظ غير المنتظر بسماع الصوت ويرضى الجزائريون الآخرون ، الحضور في

---

١ — ان ورود اجهزة وبطاريات جديدة بالطريق القانوني الى الجزائر يزداد صعوبة بعـد ذلك بالطبع وسوف يصبح تموين السوق منها ابتداء من عام ١٩٥٨ عن طريق مراكش وتونس بواسطة الثوار . فان الادخال المنظم لهذه الوسائل التي تقيم الصلة مع الصوت الرسمي للثورة قد اصبح بالنسبة للشعب من حيث الاهمية كأدخال السلاح والاعتدة من أجل الجيش الوطني.

الصالة ، بصدى هذا الصوت ينقله اليهم المترجم المحظوظ الذي بحكم حصاره اثر نهاية الاذاعة . وتطرح عليه عندئذ اسئلة محددة حول هذا الصوت المجسد. ذلك ان الحاضرين يودون الاستعلام عن تلك المعركة التي اشارت اليها الصحافة الفرنسية في الاربع والعشرين ساعة الاخيرة والترجمان متضايق، مثقل بالذنب، يعترف احياناً بأن الصوت لم يأت على ذكرها .

ولكن بعد تبادل النظرات باتفاق مشترك ، يكون من المقرر ان الصوت قد أبدى رأيه تماماً في هذه الحوادث إلا ان الترجمان لم ينتبه للتعليمات المعطاة . وعندئذ يشرع في عملية تمحيص حقيقية . يساهم فيها جميعهم ويعاد فيها ترتيب وتشييد معارك الامس وما قبله وفقا لأمنية الجماعة العميقة ولأعتقادها الذي لا يتزعزع ويستدرك المستمع ما في الاخبار من طابع التجزئة بابتداع مستقل في الاعلام .

ان الاستماع **الى صوت الجزائر المقاتلة** ، ليس من قبيل الاهتمام بالاستماع الى الجزء الآخر وانما هو مطلب داخلي للاتحاد بجسم الامة التي تكافح ولاستعادة مسؤولية الاعداد الوطني الجديد وتحملها ولسماع وترديد الملحمة العظيمة المنجزة في الأعالي ، بين الصخور وفوق الجبال . وكل صباح يطلع الجزائري رفاقه على نتيجة الساعات التي قضاها في الاستماع . وكل صباح يتمم لجاره أو لرفيقه ما سكت عنه **الصوت** من اشياء ويجيب على القضايا الماكرة التي تطرحها صحافة العدو . ويردد بالمعلومات المعلنة رسمياً من قيادة الثورة على تأكيدات رجل الاحتلال الرسمية وعلى نشرات الخصم الهادرة .

ان المناضل هو الذي يطلق احياناً ، للترويج ، ما يقدرانه وجهة نظر الادارة السياسية . ولأن السكوت ، اذا طال ، عن ذكر هذه الواقعة أو تلك يمكن ان ينكشف عن حقيقة مؤلمة وخطرة على وحدة الشعب ، فإن الامة بأكملها تطلق تعليقاتها اثناء الاذاعة ، بجمل متناثرة وتمنحها دلالة محددة . ان

صوت الجزائر المقاتلة، إذ هو غير مسموع جيداً، ويغطيه تشويش لا ينقطع، ومضطر الى تبديل الموجة مرتين أو ثلاث مرات مـدة الاذاعة الواحدة، كان يكاد لا يسمع على نحو متواصل ابداً . انه صوت متقطع غير متواصل . ولكن **صوت الجزائر** كان ومن قرية الى اخرى ومن غوربي[1] الى غوربي آخر، يقول اشياء جديدة ومعارك مجيدة أكثر فأكثر ويرسم بوضوح انهيـار القوة المحتلة . ويفقد العدو ثقله النوعي، وعلى مستوى ضمير رجل الاحتلال فانه يمهد لسلسلة من التعثرات الأساسية . ان صوت الجزائر هذا الذي يعيش شهوراً عديدة مطارداً من شبكات تشويش العدو القوية، هذه « الكلمة » وان كانت غير مسموعـة في الغالب يغذي ايمان المواطن بالثورة .

هذا الصوت الذي يحس بأنه حاضر والذي تخمن حقيقته يزداد قيمة بالمقارنة مع أهمية موجات التشويش المنطلقة من محطات العدو المتخصصة . ذلك ان قوة التخريب المعادية هي التي تحدد حقيقة العبارة الوطنية واحتدامها . وكلمة الجزائر المكافحة **وصوت** كل جزائري وراديو **المجاهدين**[2] الذي يـكاد يتسم بملامح شبحية في الاذهان، كل هذا يمنح المعركة أقصى وجودها .

ان التأكيد على سماع **صوت الجزائر**، في هذه الظروف تزوير للحقيقة، في بعض معانيها ولكنها بخاصة تكون الفرصة لإعلان المشاركة سراً في كنه الثورة. وهو القيام باختيار مقصود، وان كان غير جلي في الشهور الاولى، بين كذبـة العدو الموروثة وبين كذبة الرجل المستعمر الخاصة التي تكتسب فجأة حجماً

---

١ – Gaurbi غوربي وهي كلمـة محليـة تعني البيت المكون في الغالب من الصفيـح في الأحياء الفقيرة . وعن الجزائر اخذتها اللغة الفرنسية واصبحت مستعملة للدلالة على هذا النوع من البيوت أو خيام اللاجئين أو مساكن الزنوج الفقيرة في امريكا . المترجم

٢ – بالعربية في النص الافرنسي .

من الحقيقة .

ان هذا الصوت الذي غالباً ما يكون غائباً ، غير ممكن سماعـه طبيعياً ، والذي يشعر كل واحد بأنه يرتفع في داخـــله ، المبني على مفهوم داخلي هو مفهوم **الوطن** ، يتجسم بطريقة لا يمكن رفضها . فكل جزائري ، من جهته ، يروج وينقل اللغة الجديدة . كيفية وجود هذا الصوت تذكر بأكثر من معنى ، بكيفية وجود الثورة : فهي موجودة ، مناخياً . ولكن لا موضوعياً ، قطعاً منفصلة [١] .

ان جهاز الراديو هو الضامن لهذه الكذبة الصحيحة . فمن الساعة الواحـدة والعشرين الى الرابعة والعشرين يجلس الجزائري كل مساء للاستماع . وقد يحدث للمستمع ، آخر السهرة ، عندما لا يسمع الصوت أن يدع الراديو موجهـــاً نحو موجة من التشويش أو ذبذبات بسيطة ، مقدراً أن ها هنا يوجد صوت المقاتلين. وتمتلىء القاعة لمدة ساعة بضجة مزعجة ومؤلمة من التشويش . ويحسب الجزائري ان ما وراء كل تموج وكل تشنج فعـّــال في الراديو ، ليست كلمات فحسب وانما معارك مجسدة . فان حرب الموجات تعيد في الغوربي طبع نسخة أخرى ، لخير المواطن ، عن تصادم شعبه المسلح بالاستعمار . وبصورة عامـــة ، يعود النصر معقوداً لصوت الجزائر حتى اذا ما انتهت النشرة الاذاعيـــة وأقلعت محطات العدو عن عملها في التشويش استطاعت من ثم موسيقى الجزائر المحاربة العسكرية

---

١ – يجب ان نذكر في سياق الافكار ذاته ، تجربة الاستماع في بلاد القبائل فان الفلاحين وقد تحولقوا عشرات بل مئـــات حول جهاز للراديو يصغون خاشعين لـ « صوت العرب » ونادرون هم الذين يفهمون العربية الفصحى المستخدمة في هذه الاذاعـات إلا أن الوجه يكون رضياً ويقسو سيماؤه عندما تصدح لفظة الاستقلال في « الغوربي » وهكذا يكون الصوت العربي الذي يطرق الاسماع أربع مرات في الساعة بكلمة استقلال Istiqlal كاف في هذا المستوى من يقظة الضمير لكي يصون الايمان بالنصر .

بكل حرية املاء صدور المؤمنين ورؤوسهم . وقد لعبت هذه الانغام القاسية القليلة التي تأتي مكافأة لثلاث ساعات من الأمل اليومي ، دوراً أساسياً مدة شهور في اعداد وتعزيز الشعور الوطني الجزائري .

ومن المهم على مستوى البسيكولوجيا المرضية التنويه ببعض الظواهر التي لها صلة بالراديو والتي برزت بمناسبة حرب التحرير . ان المقالات المتخصصة التي عالجت أوضاع الجزائريين المتهلوسين تشير باستمرار في المرحلة المسماة بالعمل الخارجي ، إلى وجود أصوات اذاعية عدائية وهجومية بشكل قوي ، فان لهذه الاصوات المعدنية ، الجارحة ، الشتامة ، الكريهة ، جميعها ، عند الجزائري طابع من يتهم ويفرط في التحقيق . والراديو الذي يكون مصدراً للحذر ، على مستوى الانسان السوي ، باعتباره كيفية بقيمة رجل الاحتلال ونموذجاً لغزو عنيف من قبل الرجل الذي يضطهد ، فانه يتسم ، في نطاق الحالة المرضية بعلامات خبل من الدرجة العالية . وبالاضافة الى العناصر السحرية ، ذات المسار اللاعقلاني ، التي نجدها في غالبية المجتمعات المتجانسة أي التي ينتفي منها أي اضطهاد اجنبي ، فان للراديو في الجزائر قيمة نوعية خاصة . ولقد رأينا أن الصوت المسموع ، ليس لا مبال ، وليس محايداً : انه صوت الرجل الذي يضطهد ، صوت العدو . فالكلمة لا تقبل وتفك رموزها وتفهم وانما تنبذ . والاتصال ليس موضوع بحث أبداً وانما هو مرفوض ذلك ان الانفتاح الذاتي على الآخر ، يكون بالضبط ، ممنوعاً ، عضوياً في الوضع الاستعماري . فان الراديو قبل عام ١٩٥٤ هو في نطاق البسيكولوجيا المرضية ، شيء معيب ، مدعاة للقلق وموجب للعنة .

واعتباراً من عام ١٩٥٤ تتخذ محطة الارسال معانٍ جديدة كل الجدة . ويفقد الراديو ، ومحطة الاستقبال ما فيهما من ناتج العدوانية ويتجردان من طابعهما الاجنبي وينتظمان في الامة المكافحة المتلاحمة ؛ وتصبح الأصوات الاذاعية ، في حالات الاضطراب النفسي المؤدي إلى الهلوسة ، ابتداء من عام

١٩٥٦ ، أصواتاً تحمي وتشارك في الذنب وتختفي منها الشتائم والاتهامات وتفسح المكان للكلمات المشجعة ؛ فان التكنيك الاجنبي « المهضوم » بمناسبة الكفاح الوطني قد غدا اداة للمعركة من أجل الشعب وعنصراً واقياً ضد الاضطراب [١] .

وعلى مستوى الاتصال دائماً ، يجب علينا أن نشير الى الاكتساب بواسطة اللغة الفرنسية ، لقيم غير منتشرة . فقد كانت اللغة الفرنسية وهي عملياً لغة الاحتلال وناقلة للقوة التي تضطهد ، تبدو أنها ملزمة أبد الدهر ، بالحكم على الجزائري باحتقار . فقد كان كل تعبير فرنسي له صلة بالجزائري ينطوي على مضمون مهين. وكل كلمة فرنسية تطرق الاسماع كانت أمراً ، أو تهديداً أو شتيمة . ولقاء الجزائري بالاوروبي محصور في دائرة هذه المعاني الثلاث . ولسوف يكون بث بلاغات الجزائر المقاتلة بالفرنسية ، محرراً للغة العدو من مدلولاتها التاريخية . والرسالة نفسها التي توجه بلغات ثلاث مختلفة ، توحد التجربة وتمنحها ابعاداً عالمية . وتفقد اللغة الفرنسية صفتها الملعونة ، ما دام انها تتكشف عن قدرتها كذلك على نقل رسائل الحقيقة لصالح الامة التي تنتظرها . ومهما بدا في هذا الكلام من تناقض فان الثورة الجزائرية ، بل ان كفاح الشعب الجزائري هو الذي يسهل بث اللغة الفرنسية في الأمة .

ان الجمل الفرنسية ، تفقد في علم النفس المرضى ، ما فيها من صفة الشتيمة الآلية واللعن . والذين يسمعون أصواتاً فرنسية من المتهلوسين الجزائريين يوردون

---

١ – إن ظهور حالات الحماية المرضية ، وأهميتها كتكنيك للدفاع الذاتي وحتى للشفاء الذاتي في التطور التاريخي للأمراض العقلية قد سبق لها ان درست في علم الطب النفسي الكلاسيكي. إن المتهلوس الذي تلاحقه « أصواته » التي تكيل له الاتهام ليس أمامه من سبيل إلا ان يخلق اصواتاً صديقة . وعلينا ان نجد آلية التحول الى ضدها التي نشير اليها في الوضع الاستعماري الذي يسير بطريق الانحطاط .

نوايا تقل فيها الروح العدائية أكثر فأكثر ، ولا يكون نادراً ، في النهايـة ، أن نرى في لغة رجل الاحتلال هلوسات تتخذ طابعاً ودياً من الدعم ومن الحماية[1].

لم تقدر سلطات الاحتلال حق التقدير أهمية موقف الجزائري الجديد بازاء اللغة الفرنسية ، فلم يعد التعبير بالفرنسية وفهم الفرنسية مماثلاً للخيانة أو مطابقاً لحالة تخاذل أمام رجل الاحتلال . ذلك ان اللغة الفرنسية التي يستعملها صوت المقاتلين ، والتي تتيح نقل رسالة الثورة بصورة فعّالة ،تصبح أيضاً أداة للتحرر . وبينما يعبر أي صوت فرنسي في حالة البسيكولوجيا المرضية ، في الهذيان ، عن النبذ وعن المعاقبة ، وعن الخزي ، فاننا نجد عملاً رئيسياً للتخلص من كراهية اللغة الفرنسية يبتدىء من كفاح التحرير اننا نشاهد ما يشبه الأخذ بلغة رجل الاحتلال من قبل « الساكن الأصلي » [2]

وقد أدرك الفرنسيون هذه الظاهرة بعد مؤتمر الصمام في آب ١٩٥٦ . ومما يذكر ان ذلك كان بمناسبة اجتماع المسؤولين السياسيين والعسكريين عن الثورة ، في وادي الصمام ، في قطاع عمروش ، القائد آنئذ ، لارساء قواعد الكفـــاح العقائدية وتشكيل المجلس الوطني للثورة الجزائرية . وقد انكشفت واقعة ادارة الاعمال باللغة الفرنسية ، فجأة لقوى الاحتلال عن ان تردف الجزائـري العام

---

١ — ليس المقصود هنا طفو الصفة الازدواجية المتناقضة ، بل المقصود تحـــول في الصفة النوعية ، أي التغيير الجذري فيها ولا يقصد تأرجحاً وانما تجاوزاً ديالكتيكياً .

٢ — وعلى العكس ، فان « صوت الجزائر » سوف يسمع في شكل الحكم بالموت من قبل بعض الجزائريين المتعاونين . فان هؤلاء الرجال ، الذين أصيبوا بنوبات من الغم حادة ، ينتمون في أغلب الأحيان الى دوائر البوليس ، وتوجه اليهم الاتهامات فيشتمون ويدانون من قبل راديو « المتمردين » . وكذلك فان ثمة أوربيات وأوربيين ممن يبدو عليهم فورات هياجيـــة مضطربة يحسون بوضوح شديد تهديدات أو ادانات تصدر اليهم باللغة العربية ومثل هذه الظواهر كانت عملياً مجهولة قبل عام ١٩٥٤ .

والتقليدي في استخدام اللغة الفرنسية في ظل الوضع الاستعماري ، يمكن ان يزول طالما ان مجابهة حاسمة تقذف بارادة الشعب في الاستقلال الوطني وجهاً لوجه ضد السلطة المسيطرة .

لقد اوقعت هذه الظاهرة السلطات الفرنسية في غاية الحيرة . رأت فيها ، في البداية البرهان ، المقطوع به منذ زمن بعيد ، على عدم مقدرة اللغة العربية في اداء مفاهيم عمليات حرب ثورية حديثة . غير ان المقررات المتخذة في الوقت نفسه على مذهب رجل الاحتلال اللغوي قد حشرت هذا الرجل لإدراك طابع هذه الاشارات الخاص بها واوقعت الارتباك والتشويش في جهازه الدفاعي . فبين التوجيهات الصادرة عن المنطقة العسكرية العاشرة في الجزائر وتلك الصادرة عن مركز القيادة الاقليمية في عين بسام تستقر دائرة من المشاركة في الجرم ، نوع من استطالة الرقم . فان هذين النسقين من الحقائق يتخذ كلاهما منفصلاً عن الآخر ، وضعاً استقلالياً بواسطة نظام لغوي واحد .

كان انصار الاندماج ، من جانبهم يرون في ذلك مناسبة جديدة للتأكيد على ان « الجزائر فرنسية » ، جاعلين مخالفة رجل الاحتلال وسيلة الاتصال العملية الوحيدة الموجودة في متناول القبائليين والعرب والشاوية والاباضية ... الخ . ان هذا الرأي استمرار لمذهب الاستعمار نفسه ، على مستوى اللغة : فان تدخل الأمة الأجنبية هو الذي ينظم الفوضى المتأصلة في البلاد المستعمرة . وفي هذه الشروط ترى اللغة الفرنسية نفسها مع الاشكالات الوجودية في صميم المجتمع الجزائري .

ان استعمال اللغة الفرنسية سواء في هذه الحالة أو تلك هو في ذات الوقت جعل خاصة من خواص رجل الاحتلال مألوفة والظهور مظهر المتقبل لما يصدر عن رجل الاحتلال من اشارات ورموز وبالتالي من – أوامر معينة ولم يدرس الفرنسيون بما يكفي من الجدية هذا المسلك الجديد من الجزائري إزاء لغتهم .

فان غالبية مؤتمرات الاحزاب الوطنية قبل عام ١٩٥٤ قد جرت باللغة العربية. وبتعبير أدق فإن المناضلين من بلاد القبائل أو من الأوراس كانوا يتعلمون العربية بمناسبة فاعلياتهم الوطنية. كان التكلم بالعربية، ورفض الفرنسية كلغة وككيفية للاضطهاد الثقافي، قبل عام ١٩٥٤، شكلاً من الامتياز والتفرد اليومي والوجود الوطني. ذلك ان الاحزاب الوطنية، قبل ١٩٥٤ كانت تنمي أمل المناضلين وتعد الضمير السياسي للشعب وذلك بتقييم مختلف الهيئات واحدة ومختلف صفات الامة المحتلة. فكانت اللغة العربية تشكل عندئذ نموذج الوجود واكثر الوسائل واقعية التي تملكها كينونة الأمة من أجل كشف القناع عن حقيقتها [١].

ان حقيقة المعركة، في آب (اغسطس) عام ١٩٥٦ وارتباك رجل الاحتلال، قد جردا اللغة العربية من صفتها المقدسة، وجردا اللغة الفرنسية من مقولاتها الملعونة وتمكنت لغة التخاطب الجديدة بين صفوف الأمة عندئذ من الاعلان عن نفسها، بواسطة شبكات متعددة، معبرة.

ولقد اتحد جهاز الاذاعة كتكتيك اعلام مع اللغة الفرنسية باعتبارها دعامة لاتصال ممكن، بالامة المكافحة في وقت واحد تقريباً.

ولقد رأينا ان اجهزة الراديو قد تزايدت تمشياً مع انشاء صوت الجزائر المقاتلة بنسب هائلة. ذلك ان آلة الاستقبال أي التكنيك الإذاعي لإيصال الفكرة من مسافة بعيدة، لم تكن، قبل عام ١٩٥٤ مجرد موضوع محايد في الجزائر. كان للراديو في تصور الشعب، باعتباره شريطاً لنقل حرارة السلطة

---

١ – لقد قررت الادارة السياسية في الوقت نفسه تدمير الراديو الفرنسي في الجزائر فان وجود صوت وطني يقود المسؤولين الى مواجهة أمر إسكات راديو الجزائر وهكذا تسبب انفجار القنابل الموقوتة بأضرار هامة لحقت بالمنشآت الفنية إلا ان البث عاد بسرعة كافية.

المستعمرة وكوسيلة تحت تصرف رجل الاحتلال من أجل العمل على أن يتشبع به جسم الامة مادياً ، معانٍ محقّرة . فان ادارة مفتاح الراديو قبل عام ١٩٥٤ كانت تعني إفساح المكان لكلمة رجل الاحتلال ، انها تعني السماح للغة الرجل المستعمِر بالولوج الى قلب البيت نفيسه وهو آخر معقل من معاقل الروح الوطنية الرفيعة . وكان وجود جهاز الراديو ، قبل عام ١٩٥٤ في منزل جزائري يعتبر سمة التحول الى التفرنج والاستعداد لها . فهو الانفتاح الواعي على تأثير الرجل المسيطر وعلى ضغطه . وهو القرار **باعطاء الكلام لرجل الاحتلال** فإن اقتناء جهاز معناه القبول بالحصار في الداخل من قبل الرجل المستعمِر . وهذا معناه إظهار أنه يؤثر المساكنة داخل النطاق الاستعماري. وهو ، بلا أدنى شك،القاء السلاح أمام رجل الاحتلال .

لقد أتينا على ذكر الأسباب التي كان الشعب يفسر بها تحفظاته إزاء الراديو. فقد كان المبرر الرئيسي عندئذ هو الاهتمام بالابقاء على سلامة اشكال الحياة الاجتماعية التقليدية وعلى نظام التسلسل المراتبي في الاسرة .

كان يقال : « اننا نجهل دائماً البرنامج الذي سوف نقع عليه في الاذاعة » أو « يذكر في البرنامج أي شيء » وتظهر أحياناً حجة دينية غير قابلة للجدل : « انه راديو الكفار » وقد رأينا ان مثل هذه الامور العقلانية ليست سوى آليات ابتدعت من كل حدب وصوب لتبرير نبذ وجود رجل الاحتلال .

ويجد الجزائري نفسه بإنشاء **صوت الجزائر المقاتلة** أمام إلزام حيوي يدفعه الى الاستماع للبلاغ ليتمثله ثم ليقوم بما يستدعيه في الحال . وعلى هذا فان شراء جهاز للراديو والركوع على ركبتين أمامه واسناد الرأس الى مصدر الصوت فيه لم يعد قط رغبة في الحصول على معلومات ، بل على مستوى التجربة الهائلة التي تجري في البلاد ، غدا الاصغاء الى همسات الامة الأولى .

وربما ان الجزائر الجديدة التي طفقت تسير ، قد قررت بأن تروي قصتها

وبأن تنطق فان جهاز الراديو يصبح لا غنى عنه . فهو الذي يسمح **للصوت** بأن يمد شرايينه في القرى وعلى الهضاب . ان اقتناء جهـــاز للراديو هو الدخول في الحرب دخولاً مجلجلا .

وبواسطة الراديو وهو الاداة الفنية التي كانت مرفوضة قبل عام ١٩٥٤، يقرر الشعب الجزائري ، إعطاء دفع جديد للثورة . وهكذا أخـذ الجزائري وهو يصغي الى الثورة يشعر بأنه يوجد معها وبأنه يجعلها توجد هي ايضاً .

ان ذكرى الاذاعات الحرة ، التي ولدت اثناء الحرب العالمية الثانية ، تعمل على إبراز نوعية الامثولة الجزائرية . فقد حافــظ كل من الشعب ، البولوني والبلجيكي والفرنسي ، في ظل الاحتلال الالماني ، على بقاء التماس ، من خلال الاذاعات المبثوثة من لندن ، مع صورة معينة لأمتهم . وكان الأمـــل وروح المقاومة ، يغذيان عندئذ يومياً ، ويصانان. ونحن نتذكر مثلا ان الاستماع لصوت فرنسا الحرة كان نهجا من الوجود الوطني ، وشكلا من اشكال المعركة . كما ان المشاركة الحارة ، الصوفية تقريباً ، التي أبداها الشعب الفرنسي ازاء صوت لندن قد ذكرت بما يكفي حتى لا نقف عندها طويلاً . فالاستماع الى صوت فرنســا الحرة ، من عام ١٩٤٠ الى عام ١٩٤٤ كان بالتأكيد استماعاً مفضلا وجوهرياً في فرنسا . الا ان الاستماع الى الاذاعة كمسلك ، لم يكن أمراً جديداً . فقد كان صوت لندن يأخذ مكانه في قائمة الاذاعات المرسلة الطويلة ، التي كانت من قبل ، موجودة ، من الانسان الفرنسي منذ ماقبل الحرب . ومن خـــلال مسلك المستمع الشامــــل ، المتعلق بالآلة الاذاعية تطفو في مخيلته صورة رفيعة ، هي صورة فرنسا المحتلة ، تستقبل رسالة الامل من فرنسا الحرة . أما في الجزائر فإن الامور تكتسي علامات مميزة ، خاصة . فهناك ، بداية ، عملية لتجريد الآلة مما يواكبها من معاني المنع والنهي . ثم تكتسب الاداة تدريجياً لا مقولة الحيـــاد فحسب وانما تتمتع بناتج ايجابي .

ان القبول بالتكنيك الاذاعي وشراء جهاز، ومعايشة الأمة وهي في كفاحها، تكون اموراً متطابقة . فالاندفاع الجنوني الذي افرغ الشعب به كميات الاجهزة المخزنة يقدم لنا صورة على درجة كافية من الدقة عن رغبته في الاشتراك بالحوار الناشىء منذ عام ١٩٥٥ ما بين المحارب والامة .

ليس راديو الجزائر ، في المجتمع المستعمر ، صوت بين أصوات أخرى . انه **صوت رجل الاحتلال** . فان التقاط راديو – الجزائر هو منح السيطرة حقاً ، وهو اظهار الرغبة بالعيش على وفاق مع الاضطهاد . انه اعطاء الحق للعدو . فادارة مفتاح الراديو هي بالتالي اشادة للصيغة : « هنا الجزائر ، محطة الاذاعة الفرنسية » . فان اقتناء الرجل المستعمَر جهازاً للراديو هو استسلام منه لجهاز العدو وتهيئة لطرد الامل من قلبه .

وعلى العكس فان وجود **صوت الجزائر المقاتلة** يعدل من معطيات المسألة تعديلاً عميقاً . حيث يشعر كل جزائري ، في الواقع ، بأنه مدعو ويريد أن يصبح عنصراً قادراً على التجاوب في شبكة المعاني الواسعة التي نشأت من معركة التحرير. ان الحرب، مصدر الحوادث اليومية ذات الطابع العسكري والسياسي، هي مدار تعليق مسهب في برامج الاعلام التابعة للاذاعات الاجنبية . وينطلق صوت **الجبال** في المقام الاول. وقد رأينا ان صفة هذا الصوت الشبحية واختفاءها من ساحة السمع بسرعة ، لا تضعف في شيء من حقيقته التي تسمع ولا في سلطانه . ويفقد راديو – الجزائر واذاعة الجزائر ما لهما من صفات السيادة .

لقد انقضى ، بعد ذلك الوقت الذي كانت فيه ادارة مفتاح الراديو آلياً ، تشكل دعوة موجهة للعدو . فإن الراديو باعتباره تكنيكاً قد أخذ يتميز ، بالنسبة للجزائري . ولم يعد جهاز الراديو باعتباره تكنيكاً مباشرة من فم رجل الاحتلال، وحده بل من على يمين موجة البث في راديو– الجزائر أو على شمالها، أو على اطوال مختلفة ومتعددة من الموجات ، يمكن التقاط محطات لا حصر لها،

ومن الجزائر تميز الاصدقاء بينها ، كما يبرز المتواطؤن مع العدو والمحايدون . فان حيازة جهاز، لا تعني في هذه الظروف، الوقوع تحت تصرف رجل الاحتلال ولا اعطائه الكلام ، ولا الاستسلام . انما على العكس هي اظهار الرغبة على مستوى الاستعلام بمعناه الدقيق ، في تحديد الانسان لابعاده وفي سماع أصوات أخرى وفي الانفتاح على آفاق اخرى . ذلك ان الجزائري قد اختبر ، أثناء كفاح التحرير وبفضل انشاء **صوت الجزائر المقاتلة** واكتشف ، حسياً ، وجود اصوات أخرى غير صمته القديم ، وغير صوت الرجل المسيطر ، المضخم إلى ابعد الحدود .

ان مونولوج الوضع الاستعماري القديم الذي اصبح مزعزعاً بوجود الكفاح، قد اختفى بأكمله ابتداء منعام ١٩٥٦ . فصوت الجزائرالمقاتلة وجميع الاصوات التي يلتقطها جهاز الاستقبال ، بدأت تكشف الآن للجزائري النقاب عما يتحلى به الصوت الفرنسي ، الذي كان يعرض كصوت وحيد حتى ذلك الحين من صفة واهية ونسبية جداً بل وخادعة . ان صوت رجل الاحتلال ينتابه الوهن .

ان **كلمة** الامة وان **فعل** الأمة ينظمان العالم وهما يعملان على تجديده .

فقد نبذ مجتمع السكان الأصليين بمجموعه ، جهاز الراديو قبل عام ١٩٥٤ واغلق نفسه من دون تطور تكنيك طرق الاعلام . فالمجتمع الجزائري ، في مجمله ، لا يتقبل الاذاعة فليس هناك موقف لاقط أمام المستورد الذي ينظمه رجل الاحتلال . وفي الوضع الاستعماري لا تفي المحطة بأية حاجة من حاجات الجزائري [1] . ولكنها على العكس ، كما رأينا من قبل كانت في تصور الناس

---

١ – يجب علينا ان نشير في سلسلة هذه الافكار إلى موقف السلطات الفرنسية بجزائر اليوم . ونحن نعلم بأن التلفزيون موجود في الجزائر منذ سنوات عدة . والى يومنا هذا كان تعليق بلغتين معاً يرافق البث . ومنذ بعض الوقت توقف التعليق بالعربية . ان هذه الظاهرة تعبر مرة أخرى بأن راديو – الجزائر يتفق اتفاقاً كاملاً مع الصيغة : « الفرنسيون يخاطبون الفرنسيين».

وسيلة يمتلكها العدو لمتابعة عمله في تفتيت الشخصية الجزائريـــة من دون أن يوقظ الانتباه .

فقد أحدث الكفاح الوطني وخلق راديو – الجزائر الحرة ، تحولاً أساسياً في صميم الشعب . وولج الراديو الى المسرح باندفاع قوي وليس بتأصل تدريجي . فليس هناك تكديس للأرباح المحلية واضافة للمناطق التي تضررت شيئاً فشيئاً . بل يشاهد في وسائل الادراك وفي عالم الادراك نفسه . انقلاب رأساً على عقب. فلم يكن في الجزائر ، ثمة من مسلك قابل للتأثير ، ومذعن وموافق ، فيما مضى بالمعنى الحقيقي بازاء الراديو. ومن حيث العملية العقلية فانه يشاهد ، ابتداء من عام ١٩٥٦ ما يشبه الاختراع في التكنيك .

هكذا فان صوت الجزائر الذي انشىء من لا شيء ، قد جعل الامة توجد ، وسلم الى كل مواطن كياناً جديداً وعرّفه اليه بوضوح .

وقد جرى الجند الفرنسيون المشتركون في العمليات على عادة مصـــادرة جميع أجهزة الراديو ، اثناء غزواتهم ابتداء من عام ١٩٥٧ . وفي الوقت نفسه أصبح من الممنوع التقـــاط عدد معين من المحطات . أما اليوم فان الامور قد تطورت . فصوت الجزائر المقاتلة قد تضاعف . إذ أصبحت تـذاع من تونس ودمشق والقاهرة والرباط برامـــج من أجل الشعب . والجزائريون هم الذين ينظمون هذه البرامج .ولا تحاول الاجهزة الفرنسية التشويش على هذه الاذاعات القوية والعديدة .

ويملك الجزائري الفرصة يومياً للاستماع إلى خمسة أو ستة اذاعات مختلفة بالعربية أو الفرنسية ويستطيع بواسطتها أن يتابع خطوة فخطوة تطور الثورة المظفر . ولقد رأينا ، على مستوى الاعلام عملية ابطال لقيمة كلمة رجل الاحتلال . وبعد فرض الصوت الوطني للوقوف في وجه منولوج الرجل المسيطر ، اصبح جهـاز الراديو يستقبل الاشارات المبثوثة من جميع ارجاء العالم . ان **اسبوع التضامن** مع الجزائر ، المنظم من قبـــل الشعب الصيني أو مقررات مؤتمر الشعوب

الافريقية عن حرب الجزائر تربط الفلاح بالموجة العارمة التي تجتث جذور الطغيان .

ولسوف يكون للراديو وهو يتحد في هذه الظروف بحياة الامة ، أهمية فريدة ، في هذه المرحلة من بناء البلاد . وسوف لا يبقى في الجزائر ، بعد الحرب ، عدم تلاؤم بين الشعب وبين ما يعد معبراً عنه ومكان التربية الثورية لكفاح التحرير يجب أن تحل التربية الثورية لبناء الامة . وعندئذ يمكن تقدير الاستفادة الخصبة التي يمكن أن تؤديها هذه الأداة المتمثلة في جهاز – الراديو . ان الجزائر قد عرفت تجربة ذات مميزات خاصة. فلقد كان الراديو ، مدة سنوات عديدة ، بالنسبة للكثيرين احدى وسائل الوقوف موقف الرفض من الاحتلال والاعتقاد بالتحرير . فقد فتح التماثل ما بين صوت الثورة وبين حقيقة الامة الاساسية ، افاقا غير محدودة .

الفصل الثالث

الأسرة الجزائرية

لقد رأينا بمعالجتنا للالتزام الثوري وتحويل الحجاب الى اداة، ان تبدل المرأة الجزائرية قد أخذ ينجلي . ومن المفهوم أن هذا الانقلاب لم يتمكن من التحقق دون أن يمس القطاعات الاخرى من الحياة الجزائرية بالتغيير .

لقد خلف وجود كفاح التحرير وطابع القمع الذي كان أخذا بالتدرج الى الشمول ، ندوباً خطرة في جماعة الاسرة : اختطاف اب من الشارع بصحبة أولاده ، وتجريده من ثيابه وتجريدهم في الوقت نفسه وتعذيبه أمام أعينهم ، وهذا نوع من الاخاء في المعاناة بين رجال عراة الاكتاف ، مضرجين بالدماء ومثخني الجراح يمتن ما بينهم ؛ زوج يوقف ويعتقل ويودع السجن ؛ ان النساء إذن ، هن المكلفات بالتماس الوسائل التي تحول دون موت اولادهن جوعاً . ولسوف نعود الى هذا الجانب من الصراع الجزائري الفريد والهام جداً ولكننا نريد هنا متابعة تطور الاسرة الجزائرية وتحولها وتغيراتها الكبرى بمناسبة حرب التحرير وخلال مسيرتها .

ان أهم نقطة ، في هذا التبدل ، كما تبدو لنا هي ان الاسرة المتجانسة ،والتي تشكل كتلة واحدة تقريباً تنفض فكل عضو من اعضاء هذه الاسرة يكسب

في شخصيته ما يفقده بانتمائه لعالم من القيم مشوش تقريباً . وثمة اشخاص معينين يجدون انفسهم أمام اختيارات وانتقاءات جديدة. والمواقف المسلكية المألوفة ،التي كانت متينة البنيات وتصل الى حقائق ثابتة لا تتبدل ، تتكشف فجأة عن أنها عقيمة فتهجر. والتقاليد، في الحقيقة، ليست مجموعة من الحركات الاولية فحسب! أو جملة من المعتقدات القديمة . فعلى ادنى المستويات هناك قيم موجودة ومطالبة بالتبرير . والابن يلتمس الاب ليشرح ويفسر ويحدد الشرعية .

من المهم أن نبرهن بأن الاب المستعمَر ينفح اولاده، في فترة كفاح التحرير، الشعور بالتردد وتجنب الاختيار وحتى تبني سلوكية الهرب وعدم المسؤولية . فان تجربة كهذه ، المرعبة بالنسبة للولد عندما يكون مدارها الوحيد هو فلك الاسرة ، تفقد هنا ضررها . إذ ان هذه التجربة تجري في الحقيقة على المستوى الوطني وتندمج بالهزة التأسيسية الكبرى لعالم جديد ، يُحَسُّ بها على مدى رقعة البلاد كلها .

كان وجود احزاب وطنية ، قبل عام ١٩٥٤ ، قد ادخل على حياة المواطن الاصلي الخاصة فروقاً طفيفة . وعملت الاحزاب الوطنية ، والعمل السياسي البرلماني وبث شعارات القطيعة مع فرنسا ، في صميم الاسرة ، على خلق بعض التناقضات . وهي أوضاع تستحث كلها الى العمل مقاومة المجتمع المستعمر الراكدة . وهكذا تحاول الاحزاب الوطنية احلال الوعي والحركة والخلق محل السكون المتشنج في المجتمع المسيطر عليه . ويعطي الشعب ، في جملته ، الحق لهذه الاحزاب ولكن ذكرى وحشية العسكريين ورجال البوليس الفرنسيين ، الخرافية الجارحة ما تزاد ماثلة في الاذهان وما يزال شهود العيان الذين شهدوا الاجتياح الاستعماري ، على قيد الحياة حتى ثلاثين عاماً خلت أو اربعين عاماً وكثيراً ما رووا حوادث الفتح لهذا الشعب. وما تزال قصص التذبيح والحرائق متداولة في مناطق عديدة. ان الفاتح قد استقر بفضل كثير من البطش وضاعف من مراكز التعمير ، حتى أوقع الشعب في نوع من السلبية كانت السيطرة

الاستعمارية نفسها تسعى اليها ، ثم اتسعت هذه السلبية تدريجياً ، باليأس . ان الابن الذي كان ، قبل عام ١٩٥٤ ، يتبنى موقفاً وطنياً لم يكن يفعل ذلك ابداً وايم الحق ، ضد رأي الاب ، الا ان فاعليته كمناضل لم تكن لتبدل شيئاً في مسلكه كابن في اطار الاسرة الجزائرية. ان الصلات القائمة على الاحترام المطلق الواجب نحو الاب وعلى المبدأ القائل بأن الحقيقة هي أولا ملك القدماء لا جدال فيها ، لم تفسد بعد وبقيت صفات الحياء والخجل والخوف من النظر الى الاب والكلام بصوت عال في حضرته ، اموراً سليمة حتى لدى المناضل الوطني . ويصون عدم وجود العمل الثوري بمعناه الخاص ، الشخصية في رسومها المتخيلة المعتادة .

في بلاد مستعمرة يبقى العمل السياسي الذي يجري على الصعيد البرلماني عملاً شرعياً ، مدة طويلة . وابتداء من مرحلة معينة ، عندما تكون السبل الرسمية ، المسالمة قد استنفدت اغراضها ، يتشدد المناضل في مواقفه وينتقل الحزب السياسي الى العمل المباشر وتكون القضايا التي تطرح عندئذ على الابن هي قضايا حياة أو موت للوطن . فان موقفه ، في نطاق العلاقات المتبادلة ، مع الأب وبقية اعضاء الاسرة ، يتخلص من كل ما من شأنه أن يتكشف عما فيه من عدم فائدة واجداب بالنسبة للوضع الثوري. وينطلق الشخص في نموه ويستقل ذاتياً ويصبح خالقاً للقيم . وينصهر التعلق الطفولي القديم بالأب ، بشمس الثورة . وبعد صطيف والمعارك التي كانت تديرها الاحزاب الوطنية مدة ما بعد الحرب ، فان الاوضاع ، في الجزائر قد أخذت تتحدد وخطا الشعب خطوات هامة نحو النضج السياسي .

وفي الفاتح من نوفمبر عام ١٩٥٤ ، طرحت الثورة من جديد جميع القضايا : القضايا المتعلقة بالفلسفة الاستعمارية ولكن كذلك القضايا التي تتعلق بالمجتمع المستعمَر. **فالمجتمع المستعمَر يدرك ، انه من أجل الوصول الى غايته بالعمل الهائل الذي اندفع فيه ومن اجل قهر النظرية الاستعمارية ومن اجل تحقيق**

الأمة الجزائرية ، عليه أن يبذل جهداً عظيماً في مغالبته لنفسه ، وأن يبسط جميع أوصاله وأن يجدد دمه وروحه . ومن خلال مجرى حوادث الحرب المتعددة يفهم الشعب ان عليه ، اذا اراد أن يمنح الحياة لعالم جديد ، ان يخلق من الاجزاء المتفرقة جميعها مجتمعاً جزائرياً جديداً . وعلى الجزائري لكي يحقق تطلعاته ان يتوافق مع ايقاع فريد لجرد القيم وتقديراتها الجديدة . وهكذا تفلت الحياة دفعة واحدة من يد الامناء التقليديين عليها وتضع نفسها في متناول أي باحث عنها . وتباشر ، الجماعة ، التي كانت فيما مضى تنتظر من الأب تحديد تقديراته للقيم ، على نسق مشتت تقصياً فردياً .

وامام نظام القيم الجديد الذي ادخلته الثورة يرى كل جزائري أنه مدفوع لكي يعطي لنفسه تعريفاً وليتخذ موقفاً ولكي يختار .

الابن والاب

في الوقت الذي دعي فيه الشعب الى تبني اشكال جذرية من الكفاح كانت الأسرة الجزائرية ما تزال بعد قوية البنية . الا ان الأب ، على صعيد الوعي الوطني بات يعاني تأخراً هائلاً عن الابن . ذلك ان عالماً جديداً قد أخذ بالبزوغ بدون دراية الأهل وهو يتطور بسرعة خاصة منذ زمن طويل . حقيقة ان نتفاً من الجمل كانت قد علقت في ذهن الأب بغموض وبصورة عابرة الى جانب بعض الاشارات اللاذعة ، ولكن العزم على اشهار السلاح لقتال رجل الاحتلال لم يخطر بباله قط . ان كل جزائري قد صاغ امنية في سقوط النظام الاستعماري ، مرة واحدة في حياته على الأقل ، اثناء اجتماع من الاجتماعات أو مجرد نقاش ، اذ دائماً كانت تمر في السوق ، والمقهى ، وعلى طريق الحج وفي مجرى الاعياد التقليدية ، لحظة يتآمر فيها الجزائري ضد رجل الاحتلال . الا ان هذه النوايا تشبه التشكي اليائس لدى جميع المستضعفين في جميع بلاد العالم . فان عمق

تغلغل جذور المجتمع المستعمر وجنونه من أجل ان يتحول الى ضرورة والبؤس الذي يرتفع فوقه ، قد لون الحياة بتلك السيماء الشهيرة ، المستسلمة التي يصفها المتخصصون في دراسة البلدان المتخلفة تحت عنوان **القدرية**.

لقد انفجرت الطلقات الأولى في الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ في وسط هـــذه اللعنة وامام هذه الثورة التي شطرت بشراسة ، العالم الواحد الى عالمين اكتشف الأب انه بلا سلاح وانه قلق بعض الشيء . ثم يتحول هـذا القلق الى اضطراب بحضور الابن الذي يصبح منهمكاً ومسدد الفكر . ويخيم جو مأساتي وقاس . . ورجال البوليس الفرنسي الذين يظن بأنهم يقظين ، والمدينة الاوروبيـــة التي تصوب بأكملها حقدها الهائل باتجاه الحي الجزائري . وفي اغلب الأحيان يقف الأهـــل موقفاً مشتركاً ، موحداً . وتعود حكم ما قبل ١٩٥٤ الى الظهور ، ويطل موكب النصائح المعتادة بالتزام الحذر كما تبدو وكذلك النوايا الانهزامية : « امكثوا هادئين ، ان الفرنسيين اقوياء جـــداً ، انكم لم تصلوا الى ما تبتغون ابداً » . غير ان الابن يتجنب المناقشة ويتحايد الجواب ويحـاول بالا يعارض دنيا الاستسلام والانتظار اللامتناهيين في حياة الأب ، بالعالم الجديد الذي يقوم ببنائه . ويطلب الأب من الأبن أحياناً التزام السكينة وترك الكفـاح والعودة الى كنف الأسرة وتكريس نفسه لذويه . ويوجه الى العازبين حديث الزواج ، والى المتزوجين التذكير بواجباتهم . ويصبح أمر الخلاف مفضوحاً . وهو مـــا يدعو الشاب الجزائري الى الدفاع عن موقفه والبرهان على شرعية مسلكه الذي يتبناه امام والده . فانه يدين الحذر الذي يطالبه به والده ويطرحه بحزم . **إلا أنه لا يوجد في ذلك رفض أو طرد للأب** . وانما نشهد على العكس بداية العمل على تحويل الأسرة . فالمناضل يتطابـــق مع الابن ويشرع الى كسب الأب الى جانب افكاره . إلا ان كلمات الابن ليست هي التي تعمل على اقناعه . ولكنها ابعاد الالتزام الشعبي والمعلومات التي يتلقاها عن القمع . واذا بالاطمئنان الأبوي القديم ، الذي اصبح مثلوماً ، ينهار نهائياً . ولم يعد الأب يعرف كيف — يبقي

على التوازن ويكتشف عندئذ ان الوسيلة الوحيدة للابقاء على وجوده ، هي في الانضمام الى صف الابن . وهذه هي الحقبة التي يدفن فيها الأب القيم القديمة ويسلس القياد . وقد عثر جاك لانزمان في آخر مؤلفاته ، **يحيا كاسترو** ، على الظاهرة نفسها في المجتمع الكوبي خلال الثورة التي قام بها فيديل كاسترو .

« ... ان من واجب الأب في بلادنا ، في جميع الأزمنة – ونحن نعتقد حقاً بذلك أن يعلم ابنه وان ينقل تجربته اليه . وكانت هذه التجربة ، يا سيدي هي الوشيجة التي تشد اعضاء الأسرة الواحدة بعضهم الى بعض . كان الابن ، في الخطوط العريضة ، على اتفاق مع الأب دوماً وانت تعرف لا شك ، المثل الكوبي : « هذا الأبن من هذا الأب » ؟

– بالطبع .

– فلم يكن الأب والأبن حتى ذلك اليوم اذن إلا رجلاً واحداً ، الى ان جاء ذات يوم رجل لاجىء الى الجبل فانتزع منا ابناءنا ، مع أنه هو نفسه صغير السن جداً . هذا الرجل هو نوع من يسوع المسيح . وانني لأقولها لك ! ما هو وزن أب اذا ما وضع في – مقابل – يسوع ؟ لا شيء يا سيدي . وقد تساءلنا عندئذ نحن الأباء لماذا غادرنا ابناؤنا ؟ وبحثنا في رأسنا المسكين ، عن سبب مثل هذا الانفصال ، وقد فكرنا ، يا سيدي ، بأن تجربتنا الموروثة تقريباً ، جيلاً بعد جيل كانت خاطئة ! فلم تكن تجربتنا تلك تساوي شيئاً ، فهي لم تكن سوى نسق من الحياة ، كان ينتقل منذ أجيال على هذا النحو ، من الأب الى الأبن بدون كبير تأمل فيه . وقد كفى لذلك رجل واحد ، رجل لم يكن لديه ما يقدمه إلا المثل الاعلى والطهارة . فكان ذلك أفضل من تجربتنا ومن مالنا ومن مراكزنا ومن صلاتنا ... » [1].

---

١ – ج . لانزمان ، فيفا كاسترو ص ١١٤ .

غير أن هذا التحول الذي يطرأ على الاب لا يزيل ، جذرياً ، انماط السلوك التقليدية . وبصعوبة يفرض الاب الصمت على رغبته ، في ارجاع سيادته المنهارة الى ما كانت عليه ، والتخلص من وسواس نتائج هذه الحرب المعلنة ، المخيفة ، وهذا فان اشكالاً جديدة من الممانعة الابوية ، تأخذ في النشوء ، وهي مظاهر مقنعة ، للسلطة الابوية . فان الاب لا يعلن في وجه الفتى الجزائري الذي يقرر مثلاً الانضمام الى المقاومة في الجبل منعاً جازماً . ولكنه يطلب المزيد من الانضباط في المناضل ويسأل عما اذا كان الانضمام استجابة لتعبئة ما ، أم انه يتم بدافع شخصي . ويكون الاب في حالة التذرع بالدافع الشخصي أول من يذكر الابن – المناضل بمبادىء الانضباط : اذا احتاجك رؤساؤك فانهم سيطلبونك . وهكذا لا يملك الاب من الذرائع الاخرى ، لكي يعارض عملاً من اعمال الابن – كالالتحاق بالمقاومين في الجبل – ذلك العمل الذي اصبح يعرض ابتداء من عام ١٩٥٦ للخطر بقية اعضاء الاسرة الباقين في مكانهم ، إلا أن يعترف بالقيم الجديدة وان يعتصم بسلطات اخرى .

★

وهكذا فاننا لا نشاهد في أية لحظة من اللحظات ، تصادماً حقيقياً مؤلماً . فان الاب يمحي امام العالم الجديد ويسلس القياد لابنه . والفتى الجزائري هو الذي يدفع بالاسرة في الحركة الواسعة للتحرر الوطني . بيد أن الموقف احياناً يكون اشد صعوبة . ذلك أن الاب يجد نفسه ، عندما يكون مشهوراً بتعاونه مع الادارة المستعمرة ، مرغماً على الاختيار وهو يمارس وظيفته وسواء كان : قائداً من رجال الشرطة ، باشاغا ، أو منتخباً عن المصانع ، فانه يرى نفسه في آن واحد منبوذاً ومحكوماً عليه من قبل الجزائر الجديدة المجسدة بابنه . وفي أغلب الاحيان يستقيل . الا أنه يحدث أن يكون التدنس قد بلغ حداً لم يعد من السهل فيه التحرر من طوق المستعمر . إذ ان سلسلة التراجعات الطويلة تكون قد وصلت إلى تلك النقطة الموجبة حيث يصبح أي نكوص إلى الوراء غير ممكن

وقد عانت اسر جزائرية عديدة تلك المآسي المرعبة حيث يجد الابن ان لا مناص – وهو في اجتماع للتقرير في مصير والده الخائن للوطن – في أن ينضم إلى الاكثرية وأن يتقبل احد الاحكام حسماً . والابن هو الذي يذهب في مرات اخرى ، ليعين في قلب اللجنة مقدار مساهمة ذويه المالية من اجل الثورة ويمكن تخيل مدى التناقض في ذلك الوضع الذي يقف فيه الاب من ابنه موقف المتظلم من ضخامة المبلغ المطلوب من المسؤولين ، كما لو كان الابن شريكه ... ان سقوط الاب الذي قامت به القوى الجديدة التى برزت على مسرح الوطن لا يمكن ، أن يمضي دون أن يمس العلاقات القديمة التي كانت تنظم المجتمع الجزائري .

الابنة والاب

تقف البنت ، من الصبي في الأسرة الجزائرية ، على مسافة درجة الى الوراء دائماً . وكما هو الوضع في جميع المجتمعات التي يمثل العمل في الارض فيها المصدر الرئيسي لمورد القوت ، فان الذكر وهو المنتج المميز يتمتع بمركز سيادي تقريباً . لذلك فان ميلاد الصبي في أية اسرة يستقبل بحماس أكثر من ميلاد البنت اذ يرى الأب فيه ، حقيقة ، رفيقا في اشغاله ووريثا لارض الأسرة ووصياً على الأم والاخوات بعد موته . ومن دون ان تكون الفتاة مذلولة أو مهملة فانها تحس احساساً كافياً بالتقدير المتزايد الذي يحاط به اخوها .

والفتاة الشابة ، على العموم ، لا تملك الفرصة لكي تنمي شخصيتها ولكي تتعود المبادرات . فهي تأخذ مكانها في شبكة التقاليد المنزلية الواسعة في المجتمع الجزائري . وتُجبَل حياة المرأة في البيت من تصرفات متحدرة بالتقليد من اجيال سابقة لا تسمح بأي تجديد . وتتعهد الامية والبؤس وهوية الشعب المضطهد الشخصية الخصائص النوعية في دنيا الرجل المستعمر وتعززها الى الحد

الذي يفقدها طبيعتها . وبدون جهد فان الفتـــاة تتبنى التصرفات والقيم في المجتمع النسائي الجزائري . ومن فم امها تتلقن قيمة الرجل التي لا تدانيها قيمة . ذلك ان المرأة في مجتمـــع متخلف ، وفي الجزائر بصورة رئيسية تكون قاصرة دائماً والرجل يقوم بدور الوصي عليها قبل كل شيء ، أخـاً كان أم عماً أم زوجاً . وتتعلم الفتاة الشابة تجنب المناقشات مع الرجال وألا « تدفع الرجل الى النهاية » وتثقل السهولة التي يتم بها اقرار الطلاق في المجتمـــع الجزائري ، كأهل المرأة باستمرار ، خوفاً من وسواس الرجوع الى اسرتها . ويتبنى الشاب الفتى من جهته مسلك الأب .

وتأخذ الفتاة ، بسرعة كافية في تجنب الظهور أمام الاب في نطاق الاسرة . وعندما تغدو الفتاة ، في سن البلوغ يطبق نوع من الاتفاق الضمني ينطوي على عدم تواجد الاب وجهاً لوجه مع ابنته ويرتب كل شيء لكي يجهل الاب ان ابنته قد اصبحت بالغة . سوف يقول الاب ان هذا الامر لا يعنيه ، إلا ان ذلك ينطوي على تصميم على تجاهل وضع الفتاة الشابة الجديد . وهـذه الضرورة التي تحيط بالاب لعـــدم مجالسة المرأة الجديدة في البيت ، تقود من يحيطون بالفتاة الشابة الى أن يتبصروا في امر زواجها . وليس الزواج المبكر في الجزائر رغبة في انقاص عدد الافواه المطلوب اطعامها ، ولكنه ، حرفياً ، الاهتمام بعـــدم الابقاء على امرأة جديدة بدون هوية شخصية ، وعلى فتيات بالغات في المنزل . إذ على الفتاة الشابة التي كسبت شرط المرأة أن تتزوج وأن يكون لهـا أولاد . ووجود فتاة بالغ في اسرة من الاسر ، في المنزل هو مسألة صعبة إلى ابعـــد الحدود . فالفتاة البالغ تكون في انتظار الاخذ ، ومن هنا تكون المشقة التي تبقى عليها في البيت محمية ، مراقبة . ومن هنا ايضاً السهولة التي تتزوج بها .

في هـذه الظروف كما نرى ، سوف لا تفهم الفتاة الشابة التي تختـار زوجاً بنفسها أو ترفض رجلاً تعرضه عليها اسرتها . فالفتاة التي تحس بقلق ذويها وتمارس ضغطها موقفها الجديد كفتاة – ثيب ترى في الزواج تحرراً وخلاصاً ، وعملية

تسوية نهائية . ان حياة المرأة الجزائرية لا تتطور بحسب المراحل الثلاث المعروفة في الغرب : طفولة - بلوغ - زواج ، والفتاة الشابة الجزائرية لا تعرف سوى مرحلتين : طفولة - بلوغ فزواج . والفتاة البالغ في الجزائر التي لا تتزوج تطيل وضعاً غير سوي. ويجب الا ننسى أبداً بأن الأمية والتسكع السائدان في الجزائر لا يبقيان للفتاة الشابة أي حل آخر . ويجب على المرأة العازبة في الدوار أن تتزوج - وتصل الفتـــاة مستوى المرأة في السادسة عشرة . فالمرأة التي تبقى معتبرة قاصرة الى ما لا نهاية عليها أن تجد لنفسها وصياً باسرع ما يمكن وترتعد فرائص الاب خوفاً من أن يموت ويخلف ابنته وراءه بلا سند وغير قادرة اذن على البقاء .

هكذا نرى اذن بان الفتاة الجزائرية ، غـــير المتعلمة ، المحجبة ، المعطلة كالجزائر بأكملها ، بالسيطرة الاستعمارية ، تبدو غير مهيأة للقيام باعباء مهمات ثورية . ذلك أن الفتاه الجزائرية تخجل من جسدها ومن ثدييها ومن طمثها فانها خجولة من كونها امرأة امام ذويها . وهي خجولة من الكلام أمام ابيهـا ومن رفع نظرها اليه . وابوها ايضاً هو خجل امامهـــا فان التحليل بعمق يوضح في الواقع ان الاب يرى المرأة في ابنته . وبالعكس فان الابنة ترى الرجل في ابيها. ان المنع هنا من الشدة ، والنواهي قد بلغت تلك الدرجة ، التي تجعلهـا محفورة في صلب الشخصية نفسها إلى حد أن التواجد نفسه يصبح غير محتمل . وهـذه الامور المسلكية جديرة بأن تذكرنا بالطقوس المتبعة لدى بعض الجماعات لتجنب الالم المبرح الذي ينشأ عن الاضطرابات الجنسية اللاشعورية المحرمة . إلا أن هناك بخاصة تقديراً ، على نطـــاق ضيق ، لحالة المرأة الشخصية المتهيئة فقط للزواج والامومة.

ان تلك القيود جميعها ، هي التي سوف تقلب قلباً كاملاً . وتوضع من جديد على بساط البحث من قبل كفـــاح التحرير . فالمرأة الجزائرية السافرة ، التي تحتل مكاناً في العمل الثوري تتزايد أهميته ، تطور شخصيتها وتكتشف المجال

الذي يشحذ الهمة من أجل المسؤولية . ان حرب الشعب الجزائري تتماثـــل عندئذ مع حرية المرأة ودخولها في التاريخ . فهذه المرأة التي تنقل عبر طرقات الجزائر أو قسطنطينة القنابل اليدوية ، أو خزنات البنادق أو البنادق سريعة الطلقات ، هذه المرأة التي سوف تحقـّر غداً ، وتنتهك حرمتها وتعذب ، لم تعد تستطيع التفكير مرة أخرى في التفاصيل الخاصة جداً بتصرفاتها المسلكيـــة القديمة ، ان هذه المرأة التي تكتب الصفحات البطولية في التاريخ الجزائري ، تعمل على نسف العالم الضيق، اللامسؤول ، الذي كانت تعيش فيه فتمضي جنباً الى جنب متعاونة مع الرجل في تحطيم النظـــام الاستعماري وفي ميلاد امرأة جديدة .

لقد بدأت تصبح للنساء في الجزائر ، ابتداء من عـــام ١٩٥٥ ، قدوات وتأخذ بالانتشار حقيقـــة في المجتمع الجزائري وبتزايد مستمر قصص النساء العديدات اللواتي يقضين نحبهن في الجبال أو في المدن ويودعن السجون من أجل أن تولد الجزائر المستقلة . ان اولئك هن النساء المناضلات اللواتي يشكلن أجهزة المراجعة ، التي ستأخذ صورة المجتمع النسائي الجزائري ، وبالتدريـــج تختفي المرأة – من – أجل – الزواج وتحل محلهـــا المرأة من أجل – العمل وتفسح الفتاة الشابة المكان للمناضلة والمرأة غير المميـّزة ، للأخت .

وتتلقى الخلايا النسائية في جبهة التحرير الوطنية طلبات الانتساب بالجملة . وغالباً ما كان عدم تحلي هاته المجندات الحديثات بالصبر يعرّض التقاليد السرية بأكملها للخطر . فكان المسؤولون مضطرين الى أن يضبطوا فرامل ذلك الحماس وتلك الجذرية الغريبة دائماً ، التي تعتبر علامـــات مميزة لكل جيل من الشباب يطور عالماً جديداً . فانهن ، منـــذ انخراطهن في العمل يطالبن بأشد المهمات خطراً . وبالتدريج، فان الاعداد السياسي الذي يخضعن له يؤدي بهن الى عـــدم مواجهة الكفاح في ظل شكل متفجر . ولسوف تعرف الجزائرية الشابة عندئذ كيف تكبح نفاذ صبرها ، وتتحلى بصفات غير مشكوك فيها من الهدوء ورباط

الجأش والتصميم .

وقد يحدث أن تكون الفتاة الجزائرية الشابة مطلوبة من السلطة أو أن عدداً كبيراً من اعضاء الشبكة المنتمية اليها قد تم توقيفه . فتصبح ضرورة الاختفاء والهرب ضرورة عاجلة . وهكذا تغادر المناضلة أسرتها أولاً ، وتلجأ الى كنف اصدقاء. إلا ان الأمر بالالتحاق بأقرب فرقة من فرق المقاومة لا يلبث أن يصلها من ادارة الشبكة. وبعد ان تكون الفتاة قد تعرضت لتقلبات سابقة قامت بأدوارها مثل فتاة سافرة ، ومتبرجة ، تخرج في اي وقت من البيت ، وتذهب الى حيث لا يعلم أحد الخ ... فان الأهل لا يجسرون على المعارضة . والاب نفسه ، لا يملك الخيار . إذ يصبح خوفه القديم من العار ، احمق تماماً ، بالنظر الى المأساة الهائلة التي يعيشها الشعب كما أن السلطات الوطنية التي تقرر انضمام الفتاة الى المقاومة ، سوف لا تفهم معنى لحذر الاب وتحفظه . فلم يعد مسموحاً منذ زمن طويل ، وضع اخلاقية فتاة وطنية موضع الشك . ومن ثم فان المعركة قاسية بخاصة ، وقريبة ولا ترحم . فيجب الاسراع . وهكذا تصعد الفتاة اذن الى الجبل بمفردها مع رجال آخرين . وسوف يبقى الأهل شهوراً تتلو شهوراً دون اخبار تصلهم عن فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، تبيت في الغابات أو في المغائر وتجوب الجبل بلباس الرجل تمسك ببندقيتها .

ان موقف الاب من البنات الاخريات الباقيات في المنزل أو من أية امرأة اخرى يصادفها في الشارع يتبدل بطريقة جذرية . والبنت التي لم تكن بعد قد صعدت للانضمام الى المقاومين والتي لا تناضل ، تعرف المكانة الرئيسية للنساء في الكفاح الثوري . ويكفّ الرجال عن اعتبار الحق بجانبهم . وتخرج المرأة عن صمتها . فان المجتمع الجزائري وهو في معركة التحرير وفي التضحيات التي يزجيها في سبيل تحرره من النظام الاستعماري ، يجدد نفسه ويعمل على ايجاد

قيم لم تكن معروفة مبنية على علاقات جديدة بين الجنسين . فقد كفت المرأة عن كونها متممة للرجـل . وبمعنى أدق فانها قد انتزعت مكانتهـــا بقوة ساعدها .

قد تنزل الفتاة ، احياناً عند اهلها ، تحمل هوية شخصية جديدة . وعندئذ تسنح أمامها الفرصة لتقص على ابيها وامها الاعمال الخارقة التي كانت تجري كل يوم في الجبل . وتضع أمام اعينهم صوراً . وتتكلم عن رؤسائها ، عن اخوتها ، عن الأهالي وعن الجرحى وعن الاسرى الفرنسيين المساجـــين . وتنظر الى الاب نظرة مستقيمة وتجلس قبالة الاب وتتحدث اليه دون ان تكون منزعجة . ولا يشيح الاب بوجهه عنها ، فليس به من ذلك أي خجل . وإنما به على العكس فرح حقيقي للقاء ابنته لرؤية شخصيتها الجديـــدة تشع في المنزل ، وهو ليس مستاء من كلام ابنته بصوت عال ولا تراوده فكرة تذكيرهـــا ، ابداً ، بان واجب المرأة السكوت . ولا يعاني الاب من أية حاجة ، مدة ايام مأذونيتهـــا الثلاث ، للاستفسار من ابنته حول سلوكهـــا الاخلاقي في مراكز المقاومـة . ان هذا السكوت لا يفصح عن عدم اهتمام أو عن التخلي عن القدسيـــة التي كانت بالامس للبكارة – التابو . ذلك ان الاب يقدر الخطوة الهائلة التي خطاهـــا المجتمع فتتبدى له تلك الاسئلة التي لا تنفك ماثلة في ذهنه ، غير مناسبة وغير اساسية . فان الفتاة الجزائرية التي تظهر في الفلك المتحرك للتاريخ ، تدعو اباها الى نوع من التحول ومن الاقتلاع للذات . ويغدو سؤال امرأة عمـــا اذا كانت « جدية » وهي تواجه الموت يومـياً ، سخرية وهزءاً لاذعـــاً . فالفتـــاة المناضلة اذ تتبنى مواقف مسلكيـــة جديدة ، تخلت من السلوكيـات التقليدية المتناسقة . وتختفي القيم والمخاوف الجنونية المجدبـة التي تبقي على الانسان في هالة الطفولة .

الأخـــوة

ان الاخ البكر هو ، في الجزائر الخليفة المقرر للاب . وبسرعة فائقة يتبنى اعضاء الاسرة الاخرون ، موقف الاحترام والامتثال امامه . وهناك عدد معين من الامور التي لا تؤتى في حضرة الاخ البكر . فمن المتعلق به عدم التواجد معه ضمن مجموعة من الفتيان حيث يكون محتملاً اطلاق أي نوع من الدعابات خفيفة كانت أم ثقيلة . ويتماثل موقف الاخ الاصغر من اخيه الاكبر مع موقف الابن من الاب . والانقلاب الذي رأيناه في علاقات الاب بالابن ، يقع هنا عيناً ولكنه بنوع خاص يسترعي الانتباه . ذلك أن اخوة يناضلون في المواقع وفي الخلية نفسها ، وعند افتضاح أمر الشبكة ، ينضمون الى المقـاومة . فانهم يقاتلون في الوحدة نفسها ويتألمون معاً من الجوع ومن فقدان الذخيرة احياناً . وتحل مكان الصلات المقننة والطقوسية ، السائدة في فترة ما قبل الحرب ، نماذج من العلاقات المتبادلة جديدة كل الجدة . ان الاخوين قد انخرطا في عمل محدد واحد ويمتثلان لاوامر السلطة ذاتها [1] .

ان العلاقة القديمة إذ تجري في الدائرة المغلقة للاسرة ، تصاب بمفاسد جذرية. بل قد يحدث حتى أن يكون الاخ الاصغر هو المسؤول من بين الجماعة . فلا يقف الاحترام التقليدي للاخ الاكبر عائقاً في وجه الرئيس السياسي أو العسكري .

---

١ – كان الأخوة ، في فترة ما قبل الثورة ، اذا ما عملوا معاً في مشروع واحـــد يطلبون من رئيس العمال بأن يختص كل منهم للعمل في ورشة مختلفة عن الآخر . وكذلك في المستشفى فان اخوين ممرضين فيه كان كل منهما يبـذل مساعيـه ليعين للعمل في جناح يختلف عن جناح اخيه .

وإذ يكون الاخ متول لسلطة من صميم الثورة فانه مدعو الى تجاوز التصرفات الآلية والامور المسلكية الجامدة . وتظهر طلعة الرجل الذي كان يبدو أنه يتوارى خلف الاخ . فلم يعد الحق بجانب الاخ الاكبر بالضرورة ، ولكل شخص الحق في أن يحدد قيمه الجديدة .

الزوجان

كذلك تبدلت علاقات المرأة بالزوج بمناسبة حرب التحرير . وعلى حين كانت لكل فرد وظائفه المحددة في المنزل فان طبيعة الكفاح الشاملة — سوف تفرض تصرفات سلوكية لم تكن منتظرة .

ها هو ذا مصطفى يعود الى بيته . فقد كان ، منذ هنيهة مع فدائي آخر ، يقذف بعدة قنابل يدوية ، اماكن الشرطة القضائية حيث يعذب بعض المواطنين ليلاً ونهاراً . فلا رغبة لديه في الكلام . ويضطجع ثم يغمض عينيه . وكانت زوجته قد رأته يدخل ولكنها لم تلحظ شيئاً . وبعد ساعة ينتشر الخبر في الحي بأن وطنيين قد نفذا عملاً هجومياً هائلاً . ويجري تقدير خسائر العدو واحصائها في الممر أو في صحن الدار . بينما تكون الدوريات الغاضبة التي تغمر الشوارع برهاناً لا ريب فيه على أن رجالنا قد اصابوا الاستعماريين في الصميم . وبعد أن ترجع الزوجة الى الغرفة تطلق أمام مشهد زوجها الغافي ، الذي لا دخل له بالحادث ، العنان لإزدرائها : « ألم تكن أنت الذي كان يمكنه أن يفعل ذلك، انه لاسهل على الانسان ان ينام ويأكل ». ثم يمر ذكر ذلك الجار المعتقل وذلك الآخر الذي نفذ العدو حكمه فيه واخيراً ابن العم الذي ارسل صوراً، من مكمنه في مراكز المقاومة . ويلزم مصطفى الذي نعتته زوجته بالجبن ، صمته سعيداً في الوقت نفسه لغضب زوجته البريء ولنجاحه في مهمته . هذا المثل، الذي كان على جانب من التواتر عام ١٩٥٦ يقدم فائدة هائلة . ذلك ان اتهام

رجل ما بالجبن ، على صعيد العلاقات المتبادلة ما بين الذكور انفسهم في الجزائر يعتبر شتيمة لا تمحى الا بالدم.ولا يسمح أحد لأي كان بوضع شجاعته أو رجولته موضع الشك ، ولا يمكن لأحد أن يثقل مثل هذا الأمر . ولكن عندما تكون المرأة هي التي تتهم ، فان الأمر يصبح غير قابل للتساهل جسدياً . على ان كفاح التحرير يرفع المرأة الى مستوى من التجديدالداخلي تستطيع منه الوصول الى نعت زوجها بالجبان . وكثيراً ما تلوم المرأة الجزائرية زوجها تلميحاً او تصريحاً على عدم النشاط وعدم الالتزام وعدم النضال . وهذه هي الفترة التي كانت الفتيات الشابات اثناءها يقسمن الايمان فيما بينهن على عدم قبول الزواج بمن لا ينتسب الى جبهة التحرير الوطنية . والمرأة الجزائرية ، وهي تتغلب على الحذر ، تفقد اية غريزة للمحافظة المنزلية . اذ ان لومها لزوجها على عدم مشاركته في المعركة ، من المعروف أنها معركة طاحنة ، سلوك أقل ما يقال فيه انه مخالف للمألوف . ولكن النساء لم يعدن ، كما في الماضي يراعين ظروف الرجل . فان مهنته كرجل تفضي به الى العمل الوطني وما من أحد يستطيع تأكيد رجولته اذا لم يشكل جزءاً من اجزاء الأمة المكافحة .

واحياناً أخرى لا تكون الزوجة جاهلة بنشاط زوجها . ذلك أنه كثيراً ما يتوارى باعتباره مناضلاً منذ زمن بعيد ، واحياناً تعثر على مسدس تحت وسادته . وعندما كانت تتوالى التحريات عنه كان طلب المرأة من زوجها يتزايد بالاطلاع على مجريات الامور . فهي تصر على أن تطلع على بعض الاسماء وعناوين المناضلين الواجب اخطارهم في حال توقيف الزوج وتقود الزوج باسم الفاعلية بنفسها إلى قبول اشراكها بدخائل العمل . وهي تحذر زوجها من كبريائه التي تغريه بالبقاء : وحده ، هدفاً للضربة بتذكيره بذلك المناضل الذي اعترف تحت وطأة التعذيب فحطم شبكة بأكملها . وهي الكبرياء المستترة وراء قناع السرية . وهكذا تنهار مقاوماته شيئاً فشيئاً واذا بالزوجين المناضلين المتلاحمين إذا هما يشاركان بميلاد الامة ، يصبحان قاعدة القياس في الجزائر.

ويرجع الزوج احياناً في اجازة بعد غياب شهور عديدة في صفوف المقاومة. ولفرط تأثره برقة ركن الزوجية يصل به الأمر الى أن يسر لزوجته برغبته في عدم الصعود الى « هناك » وتحس الزوجة التي استردت بالقوة التي تتصورها أهميتها كامرأة ، كما يحس الزوج بالحاجة للاستمرار ولعدم انقطاع هذه الساعات المعبأة والتي تبدو وكأنها تنفلت من الزمن . وكما هو الحال دوماً ، في مثل هذا الوضع فان فوران المشاعر المبذولة في حياة التجربة يرتبط باحتمال حدوث الموت الممكن دائماً ، غداً أو في الايام القادمة . بيد ان المرأة هي التي تطلب من زوجها طرد مثل هذه الفكرة من ذهنه . « فبماذا تجيب أهالي القرية على اسئلتهم التي سوف يوجهونها اليك ؟ لقد وعدت بالعودة مع الاستقلال واقسمت على اعادة الحرية . فكيف تستطيع مواجهة الرجعة الى حياة عادية بينما يبقى جميع الرجال في الجبال أو في السجن؟ ». والمرأة ، التي لا يكون لها أولاد في الغالب تقرر وهي تشاهد التجنيد من الامة بالجملة وترى فتيات القرية يذهبن دفعة تلو أخرى ، الالتحاق بزوجها . حقيقة انها سوف لا تراه كثيراً، غير أن الازواج يستطيعون في فترة الهدوء النسبي أن يتلاقوا . ولم يكن نادراً أن تصل المرأة إلى مراكز المقاومة فتعلم نبأ استشهاد بعلها فانها ترجع، غالب الاحيان ، الى عند أهلها غير أن هزة عظيمة قد تحدث في داخلها احياناً اخرى ، فتقرر البقاء مع المقاتلين والمشاركة في الكفاح التحريري . يكون وجود المرأة بين المعتصمين للقتال أقل ازعاجاً للزوج في نشاطها النضالي في المراكز . ذلك أن المرأة التي تذهب في مهمة مسافة ثلاثمائة كيلومتر بعيداً عن مسكنها ، والتي تبيت أنى كان برفقة مجهولين ، تطرح ، رغم كل شيء على زوجها عدداً معيناً من المشاكل ولم تكن هذه المشاكل لتعلن ابداً ولكن ليس ثمة من ثورة تمحو نهائياً مخلفات الماضي دون أن تورث اضطرابات ، تكاد آليتها تكون غريزية إذ :«فليس هناك ما يستثيرك مثل سماعك شخصاً يطلب زوجتك إلى الهاتف . فتناديها وتناولها السماعة ، ثم ترى نفسك منصاعاً لدعوتها اياك لمغادرة الغرفة ... ثم تنصرف زوجتك لتعود أحياناً بعد اربع ساعات أو بعد أربعة أيام . ولم تكن لتقدم لك

أي تفسير ، ولكنك لا تستطيع أن تجهل العمل الذي انخرطت فيه ما دمت أنت نفسك قد جندتها فيه وأنت بنفسك لقنتها قواعد السرية الدقيقة » .

لقد التصق الزوجان الجزائريان أحدهما بالآخر على نحو متين اثناء هذه الثورة . ان العرى التي تكون احياناً غير وثيقة ، المتسمة بطابع الآنية ، الممكن نقضها في أية لحظة ، تتعزز أو على الاقل يتبدل محتواها . وذلك الذي كان يتحدد بشيء وحيد الا وهو المساكنة فانه الان يقبل كثرة متناسقة . أولاً ذلك الواقع الذي يملي عليهما اقتحامهما للاخطار معاً ، ورجوع كل واحد منهما ، من جبهته الى الفراش ، وكل منهما يحمل معه جزءاً من السر . وهو ايضاً الشعور بالمشاركة في العمل الهائل من اجل تدمير عالم الاضطهاد . فلم يعد الزوجان مغلقين على نفسهما . وهما لا يجدان نهايتهما في ذاتيهما وهما ليسا النتيجة للغريزة الطبيعية في بقاء النوع ولا الوسيلة التي اتخذت صفة الشرعية لارضاء رغباتهما الجنسية . لكن الزوجين يصبحان الخلية الاساسية للمدينة والنواة الخصبة للأمة . ان الزوجين الجزائريين، اذ يصبحان حلقة صغيرة في سلسلة التنظيم الثوري ، يتحولان الى وحدة وجود . **فالاختلاط ما بين التجربة المقاتلة والحياة الزوجية يعمق العلاقات بين الازواج ويوثق روابط الزواج . فثمة انبجاس في ذلك وتفتح يحدثان في آن واحد للمواطن والوطني وللزوج العصري. وينتزع الزوجان الجزائريان من نفسيهما نقاط الضعف** التقليدية في الوقت الذي يكتب فيه تلاحم الشعب في التاريخ . ولم يعد هذان الزوجان حادثاً ولكنه شيء ما مسترجع مراد ومبني . وهما كما نرى ذلك ، اساس اللقاء بين الجنسين بعينه الذي يجد نفسه مطروحاً هنا .

الزواج والطلاق

يقرر الزواج بصفة عامة في الجزائر بين الأسر . وبصورة دائمة تقريباً يرى الزوج وجه زوجته بمناسبة الزواج. واسباب هذا التقليد الاجتماعية والاقتصادية معروفة معرفة كافية بحيث لا تقتضي منا العودة اليها . فالزواج في العالم الثالث ليس عقداً شخصياً ولكنه عقد ما بين عصبية وعصبية أخرى ، ما بين قبيلة وقبيلة أخرى وأسرة وأسرة أخرى . . .

ولسوف تسير الأمور بالثورة ، بصورة غير محسوسة ، نحو التبدل . لان وجود النساء في مناطق المقاومة السرية ولقاء الرجال بالنساء العازبات ، بينما تكون المرأة قائمة على العناية بالرجل على أثر غارة او الاصابة بمرض ما ، ليطرح أمام المسؤولين المحليين في جبهة التحرير الوطنية مسائل غير متوقعة . لذلك يحدث ان يذهب رجال لمقابلة الضابط ويطلبون الزواج بهذه أو تلك من الممرضات . ويتردد المسؤول في جبهة التحرير مدة طويلة . اذ لا يستطيع أي شخص ان يقرر زواج فتاة ما لم يكن هذا الشخص هو ابوها وفي غياب ابيها ، عمها او اخوها . فان المسؤول لا يعترف لنفسه بالحق في أخذ طلب المجاهد بعين الاعتبار ويجد نفسه مرغماً احياناً على فصل العاشقين احدهما عن الآخر . ولكن الحب موجود ويجب ان يحسب له حساب مما يدعو ادارة الثورة الى اعطاء تعليمات يمكن بموجبها اتمام عقود الزواج أمام المسؤول المدني .

وهكذا تفتح سجلات للاحوال الشخصية . ويمكن عندئذ تسجيل عقود الزواج والمواليد والوفيات . وتبطل ، في أماكن المقاومة ، عادة ترتيب الزواج بين الاسر . وتكون ارتباطات القران جميعها اختيارية . لقد كان لدى كل من هذين الزوجين الوقت الكافي ليتعارفا ويتوادا ويتحابا . وليس هناك ما

لم يعالج بالنظر من قبل الادارات المسؤولة حتى احتمال وقـــوع الحب من أول نظرة · فان التعليمات تنصح بنتيجة كل طلب يقدم للتصريح بالزواج ، بأنه من الأفضل تأجيل اتخاذ أي قرار لمدة ثلاثة أشهر . وعندما يعلم الاب بنبأ زواج ابنته ،على مسرح المقاومة فان ذلك لا يدفعه الى التمرد أو الوقوف في وجه العقل وانما على العكس تماماً ، تطلب صور الزواج ويرسل الاطفـــال الذين يولدون على ارض المقاومة لتربيتهم في كنف الأهل الذين يحيطون ، ابناء الثورة بالعناية اللازمة .

ولا يمكن لمثل هذه التجديدات ان تدع انماط الزواج التقليدية ، التي تتكرر في سائر انحاء البلاد بدون ان يطرأ عليها تعديل . وتبدأ النساء الجزائريات قبل كل شيء يطلبن ضمانات حول وطنية الزوج المقبل . فانهن يطلبن ان يكون المتقدم اليهن بطلب الزواج عضواً في جبهـــة التحرير الوطنية . وتنحني سلطة الاب الثقيلة والتي لم تكن تقبل الجدل أمـــام هذا الطلب الجديد . وقبل الثورة كانت الفتـــاة المطلوبـة للزواج ، تهجر وسط الأسرة لمـدة أيام وتلجأ الى كنف الاقارب . وتفسير ذلك بالحيـاء الذي تحسه الفتـاة عندما تكون مدار بحث جنسي . وكان من المعتـاد أيضاً بعـد الزواج سعي الزوجة الشابـة الى تجنب الظهور أمـام ابيها لمـدة شهر أو شهرين . إلا ان هذه الصفات المسلكية العفة ، الطفولية ، قد اختفت بالثورة واكثرية الفتيات المتزوجات ، اليوم ، قد حضرن بذاتهن على توقيـع عقـود زواجهن وناقشن في كيفياتها وبالطبع قد اعطين رأيهن في القرين . ولسوف يأخـذ الزواج مجراه في التحول الجذري في قلب المعركة التي يديرها المجاهدون والمجاهدات .

ويتخذ الطلاق أي انفصال القرينين ، في هذه الظروف كيفيات مختلفة . فان طلاق الرجل لزوجته ، الذي كان بالامكان في أية لحظة اعلانه في الحال ، والذي كان يعبر عن ضعف في الرباط الزوجي ، لا تتم الموافقة عليـــه قانوناً الآن بصورة آليـــة . وعلى الزوج أن يفسر لماذا يطلق . ثم تجري المحاولات للتوفيق . ويبقى للمسؤول المحلي من جميـع الوجـــوه اصدار القرار

الاخير . وتخرج الاسرة من هذا الامتحان ارسخ قدمـاً حيث كان من الممكن للنظام الاستعماري أن يحشد كل شيء من اجل ان يكسر ارادة الشعب . ذلك ان الجزائري، في وسط أكثر الاخطار جسامة ، يخترع اشكالاً عصرية للوجود ويمنح للشخص قيمته المثلى .

المجتمع النسائي

ان النساء اللواتي يحاربن واللواتي يتزوجن في مناطق المقاومة يحدثن في المجتمع النسائي الجزائري اعادة تغيير جذرية لبعض التصرفات. ومع ذلك يجب الحذر من ان تفهم التغييرات الرئيسية المتحققة بصورة متواطئة . فان الحرب التي يشنها النظام الاستعماري الفرنسي ضد الشعب الجزائري تضطره الى ان يكون باستمرار وبأكمله مجنداً في المعركة . ويصعب على الانسان ، في وجه خصم اقسم على الاحتفاظ بالجزائر حتى ولو كانت بدون الجزائريين، أن يبقى هو نفسه وأن يصون مآثر أو قيماً سليمة . وقــد تبدل المجتمع النسائي في آن واحد بالتضامن العضوي مع الثورة لان الخصم أيضاً يقطع من اللحم الجزائري بعنف لم يسمع بمثله .

ان النساء ، اللواتي اعتدن أن يقصدن جبانة القرية نهــار الجمعة ، أو يقمن بزيارة المزار المحلي واللواتي يشكلن جزءاً من عشرات آلاف الاسر المجمعة قـد انقطعن عن القيام بمثل هذا النشاط كما انقطعن عن غيره [1] .

---

١ – من المعروف أن القوى الاستعمارية قــد عملت على تجميع أكثر من مليون جزائري وحصرتهم داخل الاسلاك الشائكة . وهذه هي « مراكز التجمع » الشهيرة حيث يرتفع مستوى الحالات المرضية وحالات الوفاة فيصل الى ارقام عالية على نحو غير عادي بحسب رأي السلطات الفرنسية نفسها .

وفي المعسكر ، فانهن ينتظمن حالا في صميم خلايا جبهة التحرير الوطنية . ويلتقين بنساء من مناطق أخرى ويتبادلن تجاربهن عن القمع . وتجارب ما قبل الثورة ايضاً ، وآمالهن ، فالمرأة الجزائرية التي تكون في التجمع ، مفصولة عن زوجها الذي بقي في عداد المقاتلين ، تنصرف الى الاهتمام بالعجزة وبالايتام وتتعلم القراءة والخياطة و كثيراً ما تغادر المعسكر مع رفيقات عديدات وتنضم الى جيش التحرير الوطني .

بهذه الارتحالات الهائلة التي يرغم عليها الاهالي يختل نظام الهيئة الاجتماعية وعالم الادراك فيعاد بناؤهما من جديد وهكذا فان المشتى الذي يخلى من سكانه لا يكون مشتى قد هاجر . واذا تتبعنا تطور العملية بأناة نجدها تتم كما يلي : —
قصف المنطقة بالقنابل عدة مرات ثم عمليات تمشيط متعددة ، فيتوجه الرجال الاصحاء إلى الجبل ويوارى القتلى التراب بسرعة ويلجأ رهائن المشتى إلى مدينة مجاورة ، في كنف اقارب أو اصدقاء .

وهكذا فان المشتى الذي يعاد تجميعه يكون مشتى محطماً ، تالفاً . فهو يضم جماعة أكثر من الرجال والنساء والاطفال . وفي هذه الظروف لا تبقى أية مأثرة سليمة ، دون أن تمس . ولا يبقى أي ايقاع سالف غير فاسد . فان اجزاء الاسر الجزائرية المجمعة في حلقات ، داخل الاسلاك الشائكة لا تأكل ولا تنام كعهدها بذلك في السابق . وتتضح لنا صحة هذا إذا ما وقع مثلاً ما يدعو إلى حداد ما . فان الولولة والعويل وتخديش الوجوه وتلويات الجسد نجدها قد اختفت ، كلها اليوم عملياً . ولم يعد للبكاء التقليدي على الميت وجود تقريباً في الجزائر . وكل هذا قد بدأ في عام ١٩٥٥ عندما كانت فرق الجنود الفرنسية تجتاح بقصد التسلية أو في نطاق القيام بعملية قمع ، محلة حيث تطلق بنادقها الرشاشة على خمسة أو عشرة رجال . فان هؤلاء الموتى الذين يقضون نحبهم جماعة ، دون تمهيد ودون مرض يعالج ويكافح ثم يلقون في حفرة على قارعة الطريق ، قلما كان بالامكان ان ينتزعوا او ان يهيجوا آلية

عاطفية ، متجانسة مع مجتمع من المجتمعات فالنواح والعويل وتخديش الوجوه تشارك في عالم محدد وسوى فالانسان لا يبكي ولا يصرخ ولا يفعل كما كان يفعل من قبل عندما يتعلق الامر بالموت قتلاً بالجملة . فهو يكظ على اسنانه ويصلي بصمت ولا يبقى أمامه سوى خطوة أخرى حتى يصل الأمر به الى اطلاق صرخات الفرح ، الزغاريد التي تنطلق تحية لاستقبال استشهاد المجاهد الذي سقط في ساحة الشرف الا انه يجب الا يظن بأن الاحتفالات التقليدية تتكرر عندما يكون الامر متعلقاً بالموت الطبيعي كأحوال المرض او الحوادث . فحتى لو حصل ذلك فان ما وصلت اليه حالة اليأس في الانسان من انعدام الطاقة تقريباً يحول بينه وبين استعادة فنون اليأس المعتادة . فقد قلبت الحرب المجتمع الجزائري من هذه الناحية رأساً على عقب بحيث أصبح ينظر الى كل وفاة على انها نتيجة مباشرة أو غير مباشرة للقمع الاستعماري . وليس هناك حادث موت واحد اليوم في الجزائر لا يكون ضحية النظام الاستعماري الفرنسي فان وجود المدني الجزائري، الذي ليس له علاقة بالحرب لاعادة الفتح الاستعماري ، هو أمر مستحيل في الجزائر . واكثر من هذا فلا يقع أي موت لأي جزائري خارج الجزائر ،ولا يعزى سببه الى النظام الاستعماري الفرنسي. فان الشعب الجزائري قد قرر على هذا النحو بان النظام الاستعماري الفرنسي لا يمكن ان يكون ، الى ان يتحقق الاستقلال ، بريئاً من أي جرح من الجروح التي تمزق جسده وضميره .

الجزائر المشتته

كانت نتيجة التكتيك المتبع من قبل النظام الاستعماري الفرنسي منذ بداية الثورة ، هي تمزيق الشعب وتقسيمه من أجل هدف واحد هو جعل أي التحام مستحيلاً . وقد انصرف الجهد في البداية الى الرجال الذين اعتقلوا بعشرات

الآلاف . ومن المعروف ان مراكز الاعتقالات في عام ١٩٥٥ — ١٩٥٦ قد تزايدت على أرض الوطن بنسبة لا حد لها . ففي لودي Lodi وبول قازيل Paul cazelles (أي عين وساره الآن) وبرّاوية ... معسكرات حجزت الآباء والازواج مدة سنتين واصبحت المرأة الجزائرية التي غدت فجأة بلا زوج، مجبرة على التماس الوسائل لاعالة اطفالها . وهذا ما قادها الى التنقل والتجول والقيام بمشاويرها ، والى الحياة بدون حماية الرجل . وهي تقوم احياناً بزيارة زوجها في المعتقل على مسافة مائة أو مائتي كيلومتراً من مسكنها . وعندما يكون الرجال غير معتقلين فانهم يكونون في أماكن المقاومة وتقوم الامهات اللواتي يتسلمن الجعالات المخصصة للاسرة والموزعة من قبل جبهة التحرير وحدهن على تربية الاولاد . وفي المدن تضم السجون عدداً وافراً من الرجال الجزائريين ولكي تنجو عشرات العائلات من قصف الطيران الفرنسي بالجملة ولكي تفر من وجه معسكرات التجميع، فانها تلجأ الى تونس وإلى مراكش.

لقد استوقفت عمليات التقتيل المتعددة التي قام بها النظام الاستعماري الفرنسي ضد الجزائريين والجزائريات انتباه العالم واثار ما نعرفه من موجات الاستنكار. إلا أنه يجب تحري الواقع الجزائري عن كثب أكثر . يجب ألا نحلق من فوقها. بل يجب على العكس أن نمشي اليها خطوة فخطوة على طول الجرح الكبير الذي اصيب به الشعب الجزائري والأرض الجزائرية . يجب أن تستنطق الأرض الجزائرية شبراً شبراً وأن تقدر تجزئة الأسرة الجزائرية وحالة التشتت التي وقعت فيها . فكم من امرأة اقتادها العسكريون وها هي تعود بعد ثمانية ايام وما بالمرء من حاجة لسؤالها حتى يدرك بأن سترها قد هتك عشرات المرات. وزوج اقتاده العدو وهو يرجع فاذا بالارتشاحات الدموية تغطي جسده وبحياته تترنح وبعقله لا حياة فيه . وكم مر اطفال مشتتين وايتام لا حصر لهم ،شاردين، جائعين . وعندما يستقبل رجل زوجته التي مكثت اسبوعين في معسكر فرنسي ويقول لها صباح الخير ويسألها اذا كانت جائعة ويتجنب النظر اليها ويطأطىء الرأس، فان الافتراض بأن الاسرة الجزائرية قد بقيت سليمة لا يعود

ممكناً وان الحقد على النظام الاستعماري لم ينتشر بلا حدود . فلم يكن النظام الاستعماري الفرنسي ليريد منذ عام ١٩٥٤ ، شيئاً آخر الا كسر ارادة الشعب وتهشيم مقاومته وتصفية آماله . ومنذ خمس سنوات لم يتراجع أمام أي موقف جذري لا امام الارهاب ولا امام التعذيب . أنه وهو يحيك المؤامرات لهؤلاء الرجال والنسوة يعمل على تجميعهم تحت راية رمز واحد . والشعب الجزائري الذي يذهب على حد سواء ضحيتة لذات البغي ، عاملاً في وقت واحـــد على التثبت من العدو الاوحد ، فان هذا الشعب المشتت موضوعياً ، ليحقق وحدته ويقيم على الالم جماعة روحية تكوّن أقوى دعامة في حصن الثورة الجزائرية .

الفصل الرابع

الطب والنظام الاستعماري

المثل الجزائري

ان علم الطب الغربي الذي ادخل في الجزائر في آن واحد مع الروح العرقية ومع الاذلال قد احدث دوماً باعتباره جزءاً من الجهاز التعسفي موقفاً له معنيان لدى المواطن الاصلي . ويمكننا أن نعثر على هـذه الصفة المزدوجة في موضوع جميع انماط وجود رجل الاحتلال الحاضر . بل نحن ، في الطب نتطرق الى واحدة من القسمات التي تتميز أكثر من غيرها بطابع المأساة في الوضع الاستعماري .

انه لامر حسن أن تعمل بلاد أكثر تقدماً في التقنية بموضوعية تامة وانسانية تامة ، على افادة بلاد أخرى من معلوماتها ومن اكتشافات علمائها . وعندما تستهدف المادة التعليمية المقصودة صحة الانسان ويكون من مبدئها العمل على تسكين الالم ، يصبح من الواضح أنه لا يمكن تبرير أي مسلك سلبي منها . الا أن الوضع الاستعماري ، اذا التزمنا الدقة ، قد بلغ شأواً من الغطرسة بحيث يحصر الرجل المستعمَر على النظر بين الاحتقار إلى جميع الامور التي يشارك المستعمر

فيهـــا بلا تفريق . لذلك يتصور المستعمَر الطبيب والمهندس والمعلم والشرطي والناطور بارتباك يكاد يكون عضويا . ان الزيارةْالاجبارية التي يقوم بهاالطبيب **للدّوار** أو للقرية تسبقها مساعي سلطات البوليس لحشد الاهــالي . لذلك فان الطبيب الذي يجيء في هذا الجو من الضغط الشامل لا يكون ابـداً طبيباً من اهالي البلد ولكنه دوماً طبيب ينتمي إلى المجتمـع المسيطر وفي أكثر الأحيان إلى الجيش .

ولم تكن الاحصائيات الصادرة عن الانجازات الصحية تفسر من قبل المواطن الأصلي على انها تحسين في الكفاح ضد المرض بصورة عامة وانما كبرهان جديد على احكام قبضة رجل الاحتلال على البلاد . فعندما تقـدم السلطات الفرنسية للزوار مصح تيزي – أوزو أو مجموعة الادوات الجراحية في مستشفى مصطفى بالجزائر فانها تعني القول في آن واحد : « اليكم ما فعلناه من أجل رجال هـذه البلاد ، هذه البلاد تدين لنا بكل شيء وبدوننا لا يمكن أن توجد بلاد » . ان لدى المواطن الاصلي من جراء ذلك تقييد حقيقي لعقله وصعوبة ناجمة عن وضعه تمنعه من أن يكون موضوعياً ، ليفرق ما بين الحبة الصالحة وبين الزوان.

وهناك حالات شاذة بداهة . ففي بعض فترات الانفراج وبعض المواجهات كان الفرد المستعمَر يعترف ، بما يتضمنه عمل الرجل المسيطر من ايجابية . غـير ان رجل الاحتلال كان يلتقط هذه الاقوال الصادرة عن الطوية السليمة ويحولها في الحال الى تبرير لعملية الاحتلال . فعندما يقول المواطن الاصلي بعد بذل جهد كبير باتجاه الحقيقة : « هذا حسن . وأنا اقوله لكم لانـني افكر فيه » فان المستعمِر يحرفه ويترجمه هكذا : « لا تنصرفوا، اذ ماذا نفعل بدونكم ؟ » .

كذلك يكتشف المرء دواماً، على مستوى المجتمع بأكمله اي مستوى المجتمع المستعمَر ، ذلك الاحساس بالهرب امام موقف التمييز بين الفروق ذلك ان كل تفريق يكون في تصور رجل الاحتلال بالضبط دعوة لادامة الطغيان واعترافاً

بالعجز الوراثي . واذا ما نظر الى الشعب المستعمر في مجموعه وبمناسبة حوادث معينة فانه سوف يتصرف بإزاء مختلف قطاعات النشاط الصادرة عن الفريق المسيطر ، بطريقة فجّة وغير مميزة وقاطعة . لذلك لا يكون من المستغرب استخلاص مثل الافكار التالية ، في الجانب المتطرف : « لم يطلب احد منا شيئاً منكم ، فمن ذا الذي دعاكم ؟ خذوا مستشفياتكم وتجهيزاتكم في المرافىء وعودوا الى بلادكم » .

ذلك ان عملية الاستعمار بعد ارتكازها على الفتح العسكري والجهاز البوليسي ، سوف تجد تبرير وجودها وشرعية بقائها في اعمالها .

وعندما يجد الرجل المستعمَر نفسه ، بآسم الحقيقة والعقل محاصراً لكي يقول نعم لبعض اشكال وجود رجل الاحتلال فانه يبصر نفسه قد سقط في الحال سجين النظام كله وان حقيقة العمل الطبي في الجزائر هي أيضاً حقيقة المثول الفرنسي في شكله الاستعماري في الجزائر . ولما كان لا يستطيع ان يترك جانباً تلتهمه نار الاستعمار فجأة للباقي ، لأنه من الشعب ولأن شعبه يريد ان يكون له وجود وطني على ارضه ، فانه لا يجد امامه عندئذ إلا اختيارات محدودة . وهو يمج في ذات الوقت ، الاطباء والمعلمين والمهندسين والمظليين .

ان مسلك الرجل المريض ، في مجتمع متجانس يكون امام حاجته للعلاج، مسلك الثقة . فانه يكل امره للطبيب ويستسلم اليه . وهو يعرض جسده عليه ويقبل بأن يوقظ الألم او يهيجه باليد الطبية ذلك ان المريض لا يجهل ان نتيجة الألم اثناء الفحص تنبىء بالراحة لجسده .

ولا يكون المريض ، في مجتمع متجانس ، حذرا من طبيبه في اية لحظة من اللحظات ومن الواضح ، على مستوى التكنيك والمعلومات ، ان شكا ما يمكن ان يتسرب الى فكر المريض، الا ان تردد الطبيب هو الذي يصحح الثقة

الاصلية . وهذا السلوك هو سلوك عالمي وهو يلتقي في نطاقات جغرافية وطنية محددة . وواضح للعيان ان تبدلات محسوسة تظهر في بعض المناسبات . فان السجين الالماني الذي يضطر لاجراء عملية جراحية على يد جراح فرنسي يتوسل في اكثر الأحيان وهو في مرحلة ما قبل نفاذ البنج فيه ، الا يقتلوه . وكذلك فاننا نلمس لدى الجراح اهتماماً بنجاح العملية من أجل سجناء آخرين لأنه لا يجهل التفسير الذي يمكن ان يعطى لأية وفاة اثناء العملية . وقد عثر الادب والسينما من جهة اخرى ، في هذه المواقف الخاصة على مواضيع مرجحة للمعالجة ، ويصار على أثر كل حرب ، الى استثمار تجاري حقيقي لهذه المسائل. ويعرف ذلك السجناء الفرنسيون في المعسكرات الالمانية ، معرفة جيدة وهم الذين يطلبون، لذلك من اطباء الصحة العاملين في قسم المرضى في المعسكر ، حضور العمليات الجراحية التي يجريها لهم الالمان .

وتتضاعف هـذه المواقف على الأرض المستعمرة . ويفسر موت الجزائريين المفاجىء فى المستشفيات، وهو شيء دارج في أي تشكيل صحي ، على انه ناتج عن تصميم على القتل ، واع، وعلى انه نتيجة مناورات اجرامية من الطبيب الاوربي . وينطوي رفض الجزائري الدخول إلى المستشفى ، دوما على القبول بهذه الغـلالة من الشك في انسانية الطبيب المسيطر العميقة . ويجب القول بان عملية الاختبار على الحي – وان كانت ليست القاعدة – في الخدمات المتعلقة بالمشافي ، تمارس بنسب لا يمكن التغاضي عنها [1] .

---

١ – فقد رأى جميع الجنود الفرنسيين، الداخلين في اقسام خدمات الطب النفسي التابعة للجيش الفرنسي بالجزائر ، تلـك النوبات من الصراع التجريبي التي يجري احداثها لدى الجزائريين ولدى رماة افريقيا السوداء من أجـل تحديد الاحتدام النوعي لكل من العرقين ، ان هؤلاء الرجال الذين يمارس الاطباء الفرنسيون فيهـم عملياتهم التجريبية كانوا قد سيقوا الى المستشفى تحت ستار « الذريعة العلمية » لاجراء فحوص تكميلية .

فللمجتمع الجزائري وحده وللشعب الجزائري وحده يعود اشهار القرار بمنع مثل هـذا =

لا يزال الجزائري منذ عشرات السنين يهرب من الدخول إلى المستشفى على الرغم مما يسديه الطبيب من النصائح . وعلى الرغم من التأكيد الصادر عن الخبير على أن أي تردد يعرض حياة المريض للخطر الشديد فاننا نصادف ، بصورة عامة تشنجا ونبذاً لفكرة الانتقال الى المستشفى . ولم تكن الموافقة على ذلك تعطى إلا في اللحظة الاخيرة دائماً ، ساعة لا يبقى أي أمل تقريباً . وحتى في هذه الساعة فان الرجل الذي يصدر القرار يتخذه مخالفاً لرغبة المجموع . ولما كانت الحالة ميؤوساً منها وان القرار جاء متأخراً كثيراً فان الموت يقع في اغلب الاحيان .

وتعطي مثل هذه التجارب مجالاً للجماعة لكي ترسخ اعتقادها الاصلي في طابع رجل الاحتلال الاساسي السيء ، حتى وان كان طبيباً . والجزائري الذي يصل بعد جهود اكيدة ، مقدرة ، الى استبعاد اساليب الوقاية التقليدية والى ان يفرض قرار الدخول الى المستشفى ، فأنه يشعر فجأة شعوراً لا متناهياً بالذنب . وكذا يكون الالتزام بعدم الرجوع الى هذا الذنب قد اعطى داخلياً فتكون العودة الى قيم الجماعة ، التي اهملت مؤقتاً ، ابلغ أثراً ، مقصورة على هذه القيم وحدها دون سواها .

ان المرء ليرتكب خطأً فادحاً ويمنع عن نفسه فهم مثل هذه الوقائع وهو يشبه هذه السلوكية بتلك التي سبق وصفها في صميم السكان الريفيين الفقراء في البلدان الاوروبية فان الرجل المستعمَر الذي يظهر تردده بالدخول الى المستشفى لا يفعل ذلك منطلقاً من قيم متجانسة مثل الخوف من المدينة والخوف من الاقصاء والخوف من ألا يكون في حماية منزل الاسرة والخوف من رواية

= العار الى جانب شائنات أخرى ، بالقتال، في أن يجرى فوق تربة الوطن .

الجوار ان اهله قد ارسلوه ليموت في المستشفى ، وانهم بذلك يتخلصون من عبء ما . والرجل المستعمَر لا يرفض ارسال المريض الى المستشفى فحسب وانما يرفض ارساله الى مستشفى البيض او مستشفى الغرباء أي مستشفى رجل الاحتلال على كل حال .

يجب علينا تحليل كل من ردود الفعل لدى الرجل المستعمر بأناة وبوضوح ايضاً وفي كل مرة يتعذر فيها الفهم يجب ان نقول لأنفسنا بأننا في صميم مأساة، وهذه المأساة هي ان التلاقي مستحيل في كل وضع استعماري . ولقد زُعم مدة من الزمن أن تردد المواطن الاصلي في أناطة امره بالطبيب الأوروبي مردّه الى تعلق هذا المواطن الاصلي بالوصفات الطبية التقليدية أو بتمسكه الثابت بالسحَرة او بأولئك الذين يمارسون العلاج بين الجماعة .

ومن البديهي ان توجد حقيقة بسيكولوجية كهذه وكان بالامكان ابراز وجودها منذ سنوات خلت ليس بين الجماعات الشعبية في البلاد المتقدمة عموماً فحسب ، وانما ايضاً في الاوساط الطبية . فقد روى لنا لوريش leriche مواقف التردد او الاعتراض من بعض الاطباء على استعمال ميزان الحرارة باعتبار انهم كانوا معتادين على تقدير الحرارة بجس النبض ومن الممكن مضاعفة الأمثلة في هذا المضمار الى ما لا نهاية . ولا يمكن ان يكون من قبيل الخداع على صعيد العملية العقلية، وجود افراد معتادين على ممارسة بعض الحركات بأزاء مرض معين ، وعلى تبني بعض التصرفات لمواجهة المرض الذي يكون في تصورهم خللاً ، يرفضون التخلي عن هذه الحركات لأن حركات أخرى قد فرضت عليهم ، بمعنى أن التقنية الجديدة تتوطن بالقوة ولا تتسامح ببقاء أية بقية تقليدية .

وهنا ايضاً نعثر على المعطيات نفسها :

« ان الاقلاع عما كنت معتاداً ان افعله عندما تسعل زوجتي والسماح للطبيب الاوروبي بأعطائها حقناً ، وان ارى نفسي اشتم تماماً وانعت بالمتوحش (هذا موجود) لأنني استعملت ، لأبني الذي يشكو من أوجاع في رأسه منذ ثلاثة أيام ، الحِجامة على الجبهة ، ان نسبة الحق لمن يشتم والخطأ للحجامة التي

تتحدّر إليّ من بعيد ، من بعيد جداً تكون ، على المستوى الراديكالي الصرف ، مسلكاً إيجابياً . ذلك أن أبني مصاب بكل دقة بالتهاب في السحـاءة وتجب معالجته في الحقيقة كما يعالج التهاب السحايا الا أن الامتياز الاستعماري قد بلغ ذلك الحد الذي يفسر فيه ما يجب أن يكون فظاظة اخوية ورقيقة من شخص لا يروم سوى منفعتي ، على انها ظاهرة من التعجرف وارادة الاذلال من رجل الاحتلال » .

ليس ممكناً ان يتوصل المجتمع المستعمروالمجتمع المستعمر الى ان يكونا على اتفاق لاحترام قيمة وحيدة في وقت واحد وفي مكان واحد فاذا بفرض المستحيل ، افصح المجتمع المستعمَر عن اتفاقه مع المجتمع المستعمِر في نقطة ما فما من شك في انه لا يبدأ بالكلام عن الاندماج الناجح . ويجب الآن الدخول في متاهة العلاقـات العامة في المجتمع الجزائري الجهنمية بمشكلة الكفاح ضد المرض الذي ينظـر اليه كقطاع من الحضور الفرنسي ، لان هذه المتاهة مأساويـــة . ولسوف نرى الموقف الجديد الذي تبناه الشعب الجزائري من التكنيك الطبي يتخذ علاماتـه المحددة عندئذ اثناء كفاح التحرير .

الاستشارة

يكون الرجل المستعمر الذي يذهب لرؤية الطبيب دوماً على شيء مـــن العناد . فهو يجيب بكلمة ذات مقطع واحد وهو شحيح بالبيانات وسرعان ما يثير في الطبيب نفاذ الصبر . وهذا الموقف لا يقارن بذلك النوع مـن الخوف المنبعث عن الشعور بالحرام ، خفيفاً كان ام حاداً ، الذي يحسه كل مريض وهو في حضرة الطبيب . ونحن نعرف تلك التعابير : فلان من الاطباء حسن المقابلة مع المريض ، يريح الانسان ويبدد خوفه . غير ان الابتكارات الفردية ، وحرية الانسان في ان يكون هو نفسه والاجتذاب بالاطراء والنجاح في « المقابـلة »

ليست بالضبط ، في الوضع الاستعماري ، من الامور التي يمكن ملاحظتها. فان الوضع الاستعماري يجعل العلاقات على نمط واحد ذلك انه يشطر المجتمع المستعمَر الى شطرين متباينين .

وسرعان ما يفقدالطبيب الأمل في الحصول على معلومات من الرجل المستعمَر فينقلب الى الفحص الاكلنيكي ، ظاناً بأن الجسد سوف يكون أكثر افصاحاً . بيد ان جسد الرجل المستعمر يكون عنيداً على حد سواء . فان العضلات تكون على حالة من التقلص المزمن وليس فيها استرخاء . هذا هو الرجل بكامله ، هذا هو الرجل المستعمَر الذي يواجه خبيراً ومستعمِراً في وقت واحد معا [١] ويجب أن نصغي ، بكل تأكيد الى تأملات الاطباء الاوروبيين الذين قاموا بالفحص . الا أنه يجب كذلك الاستماع الى تأملات الذين يطلبون الفحص الطبي لدى خروجهم من المستشفى . فبينما نجد الاطباء يقولون : « ان المرض لديهم هو في بدائيته ، غير متميز التميز الصحيح ، منتشر كما يكون لدى الحيوان ، وهو أحرى بان يكون تعباً عاماً من ان يكون ألماً محدد المكان »، فان المرضى يقولون : « لقد سألوني عن الموضع الذي أشكو الوجع منه ، كما لو انني نفسي كنت الطبيب ، انهم يعتقدون انفسهم انهم أقوياء وهم ليسوا بقادرين حتى على معرفة مكان ألمي فهم ليبتدرونك منذ لحظة دخولك ، بالسؤال ماذا بك ...».

يقول الاطباء : « هؤلاء الناس اجلاف » . ويقول المرضى : « انهم لا يوحون لنا بالثقة » . وبينما يؤكد الاطباء على ان الرجل المستعمَر لا يعرف ماذا يريد ، هل البقاء مريضا أم الشفاء فان المواطن الاصلي يردد : « ان الانسان

---

١ - إن هذه الملاحظة الخاصة تعيدنا إلى موقف الرجل المستعمر الشامل الذي ليس له مع المستعمر أبداً تقريباً مسلكاً ثابتاً قائماً على حقيقة . فالرجل المستعمر لا يعترف ولا يقر ولا يكشف عن نفسه بوضوح أمام المستعمر . أنظر الاتصال في مؤتمر الأطباء النفسيين والأمراض العصبية للغة الفرنسية ، حول الجزائري والاعتراف في ممارسة الطب الشرعي .

يعرف كيف يدخل عليهم ، ولكنه يجهل كيف سيخرج من عندهم ، وفيما اذا كان سيخرج». ويعد الطبيب وحتى المرض قاعدة يجري عليها العمل بما يكفي من السرعة : ان الطبّ لا يمارس مع هؤلاء الناس وانما الفن البيطري هو الذي يصلح لهم (أجل يقال هـذا) [1] ولكن الطبيب اخيراً ، لشدة التصلب ، يكون فكرة تقريبية عن المرض موضوع التحدي ويسجل علاجاً في اكثر الاحيان لا يصار الى اتباعه . واذا بعلماء الاجتماع عندئذ يقدمون تفسيراً لهذه التصرفات ويصنفونها جميعاً تحت عنوان القدرية .

إلا ان تحليل هذا المسلك على أساس إرجاعه باستمرار إلى الاطار الاستعماري يتيح لنا ، على العكس الوصول الى نتائج أخرى .

يعتبر الرجل المستعمَر نفسه منتصراً عندما ينجو من الطبيب ، ويبقى جسده ، بتمامه مصاناً . فالاستشارة الطبية بالنسبة للمستعمَر هي دائماً بمثابة امتحان . وعندما تكون الطائلة التي يحرزها عليه الرجل المستعمِر لا تعدو ان تكون حبوباً يجب ابتلاعها أو دواء للشرب فان المستعمَر يحس بشعور الانتصار على العدو . وتضع نهاية الاستشارة حداً للمجابهة ولا تكون الأدوية والنصائح الا آثاراً لذلك الامتحان . أما فيما يتعلق بالقدرية كمثل ذلك الرفض الظاهر من الاب للشعور بأنه يدين بحياة ابنه لتدخل المستعمِر فانه يجب دراستها من زاويتين . يوجد في ذلك أولاً الواقع وهو أن الرجل المستعمَر ، مثله في ذلك مثل رجال البلدان المتخلفة أو المحرومين في جميع مناطق الدنيا ، لا ينظر الى الحياة على انها تفتح أو تطور لخصب أساسي وانما على انها كفاح دائم ضد موت جوي (بالاختناق) . وهذا **الموت الواصل الى نهايته** قد جعل مادياً ، من الجوع المتأصل والبطالة ، والاعتلالات الصحية الهامة ، وانعدام النوافذ المطلة

---

١ – هناك عدد معين من الأطباء يتصرفون بداهة على نحو سوي وانساني . إلا انه يقال عنهم بالضبط : « انهم لا يشبهون الآخرين » .

على المستقبل .

ان جميع هذه التصغيرات الفعالة وجميع هذه النتف الماثلة في وجود الرجل المستعمَر تضفي على الحياة مسحة من الموت غير كامل . فان مسلك الرفض أو الامتناع في وجه التدخل الطبي لا يكون رفضا للحياة وانما هي سلبية أكبر أمام هذا الموت القريب والمعدي . ومن زاوية أخرى فان انعدام التصرف المستنير يؤكد احتراز المستعمَر من الخبير المستعمِر . ان كلمات الخبير تؤخذ دائما مأخذ التحقير . وتفسد الحقيقة التي يفصح عنها موضوعياً ، على الدوام بسبب من كذب الوضع الاستعماري .

المراقبة الطبية والعناية ، و « السلطة المزدوجة »

أما وانه لا يحسن الاستشارة فان المستعْمَر الجزائري سوف يتكشف عن انه مريض مسكين ان عدم الانتظام في تناول الدواء والخطأ في المقادير أو في طرق الاشراف ، وعدم القدرة في تقدير اهمية الزيارات الطبية الدورية والموقف الغريب ، المستهتر من نظام الطعام المقرر هي اكثر ما شاهده الطبيب المستعمِر من الخواص بروزاً واكثرها شيوعاً . ومن هنا الانطباع السائد بأن المريض يخادع مع طبيبه . فليس للطبيب من سلطة على المريض . فانه يقدر تقديراً راسخاً ، على الرغم من الوعود والايمان ، وجود استعداد للهرب وعدم الالتزام. وتصطدم جميع الجهود المبذولة من قبل الطبيب ومعاونيه الممرضين ، لتخفيف هذه الحالة الراهنة لا بمعارضة متماسكة وإنما بحالة « غيبوبة » المريض .

وقبل كل شيء ، فان طالب المشورة لا يرجع مرة اخرى . على الرغم من إسداء النصح أثناء ذلك بان مرضه ، يتطلب الفحص ، من اجل الشفاء عدة مرات في فترات محددة . ويكون ذلك كله مكتوباً على الوصفة فيطلب شرحه ثم يعاد عليه شرحه ويضرب موعداً قاطعاً مع الطبيب في تاريخ معين . ولكن

الطبيب ينتظره عبثاً . فان المريض سوف لا يأتي . وعندما يعود يمكن التحقق بشيء من الذعر من ان المرض قد تطور تطوراً مخيفاً . والحقيقة ان المريض يعود بعد خمسة او ستة اشهر واحياناً بعد سنة . والأمر الاشد خطورة هو ان الدواء لا يكون قد استعمل وتكشف المحاورة مع المريض ان الدواء لم يكن قد قد استعمل إلا مرة واحدة أو أن المقدار المقرر لمدة شهر – وهـــذا احتمال ممكن دائماً – قد استهلك دفعة واحدة . وهذه الخاصة جديرة بالوقوف عندها لأن التفاسير التي سبق أن أعطيت فيها تبدو لنا غير مقنعة .

ترى النظرية الاجتماعية ان « المواطن الاصلي » يأمل بحـزم في الشفاء مرة واحدة . ففي نظر المواطن الأصلي ، حقيقة ، ان المرض لا يتطور بالتدريج ، ولكنه يعصف بالفرد بوحشية وبضربة واحدة ، بحيث تكون قوة الدواء اقل عملاً في تكراره المتتابـع ، المنسق ، المتدرج ، منها في صفته المجملة ومنها في مفعوله كدفعة واحدة ، ومن هنا تفضيل المواطن الأصلي للحقنـة . وبحسب هذه النظرية ، سوف يكون هناك اذن ، دائماً ضرورة بالنسبة للشافي أن يتم الشفاء فوراً . وهكذا فان زيارات المزار وصنع التعاويذ وكتابـــة الحجاب تكون من الامور العلاجية التي يتم تعاطيها دفعة واحدة مع اقصى مالها مـــن تأثير . وكما ان اهمال واجب ديني او ارتكاب إحـــدى المحرمات يثير المرض كذلك فان انجاز بعض الاعمال او اتباع تعليمات الشيخ (المرابط) له قدرة على طرد المرض واقامـــة التوازن بين مختلف القوى التي تتدخل في حيـاة الجماعة .

من المؤكد ان هذا التفسير يحتوي على قسم من الحقيقة ، الا ان تعليل واقعة جديدة ، ناشئة عن وضع استعماري ، انطلاقاً من سلوكيات موجودة قبل الفتح الأجنبي ووفقاً لأفق مماثل ، حتى وان كانت الواقعة تحافظ على صلات وثيقـة الشبه برسوم متخيلة تقليدية ، يبدو لنا تعليلاً خاطئاً في بعض نواحيه . ولقـد رأينا بأن السيطرة الاستعمارية تحرك لدى الرجل المستعْمَر ، جملة من التصرفات المتشنجة ومواقف الرفض وتحافظ على بقائها . فان الرجـل المستعمَر يبذل

جهداً هائلاً ليمكث في معزل عن العالم الاستعماري، ولكي لا يفسح مجالاً يمكّن لعمل الفاتح . وفي الحياة العادية فانهم ، مستعمرين ومستعمَرين لا يتوقفون عن اقامة علاقات من الارتباط الاقتصادي والتكنيكي والاداري . وبكل وضوح فانالنظام الاستعماري يقلب فيمجتمع السكان الأصليين جميع المعطيات. ذلك أن الجماعة المسيطرة تأتي معها بقيمها وتفرضها على درجة من العنف بحيث تحشر حياة المستعْمَر نفسه حشراً في المقاومة وبالتالي في العمل السري . وتحرف السيطرة الاستعمارية ، في هذه الظروف ، طبيعة كل شيء حتى العلاقات التي يرعاها المستعْمَر بثقافته الخاصة ، وتكون ممارسة التقليد في عدد كثير من الحالات،ممارسة مضطربة اذ أن المستعمَر لا يستطيع أن ينبذ تماماً الاكتشافات الحديثة وترسانة الكفاح ضد الأمراض المتمثلة بالمستشفيات المتنقلة والممرضات.. ولكن الرجل المستعمَر الذي يقبل بتدخل التكنيك الطبي في حياته يصبح معرضاً ، ان لم يذهب الى المستشفى ، لضغوط هامة من قبل جماعته . ذلك أن طرق العلاج التقليدية تطبق على عدة أشكال الىجانب التكنيك الطبي « دواءان أفضل بكثير من دواء واحد » . وغالباً ما يجب أن نتذكر بأن المستعمَرالذي يقبل بالبنسلين أو الديجتالين يحرص في نفس الوقت على متابعة العلاج المقرر من قبل الشيخ الشافي في قريته أو في حيه .

ويشعر المستعمَر ، شعوراً مشوشاً ، ان البنسلين أشد فعالية ، غير أنه ، لأسباب سياسية وبسيكولوجية واجتماعية (اذ ان الشافي يملأ وظيفة وهوبحاجة اذن الى أن يعيش) يكون كذلك مضطراً الىتناول قسطه من الطب التقليدي. وبصعوبة يستطيع المستعمَر ، بسيكولوجياً ، حتى في هذا القطاع المحدد أن ينبذ عادات جماعته وردود فعل ثقافته على المرض . فارتشاف الدواء وان لم يكن الا مرة واحدة يكون تقليلاً ، ربما على نحو محدود ، وعلى أية حال بدون لبس ، للمسعى الغربي . وهذا معناه ترك طابع ثقته في علم الطب الأجنبي . وتجرعه للكمية المقررة كلها دفعة واحدة يعني حرفياً الوصول بعلاقته مع هذا العلم الى نهايتها .

ان تبني مسلك متطور في الزمن ، يحترم وصفة المستعمر احتراماً يصل حد الوسواس تقريباً ، يكون مسعى ينكشف عن صعوبة في كثير من الحالات . وتتدخل السلطة الأخرى ، في الواقع ، من خط مواز فتفصم الدائرة الموحدة للعلاج الغربي . فكل ابتلاع حبة دواء أو كل أخذ حقنة ، تستدعي تطبيق مستحضر أو القيام بزيارة ولي صالح . ويظهر الخوف على المريض أحياناً ، من أن يكون ملتقى لقوى مختلفة ومتضاربة . ويفسح هذا الخوف المجال لنشوء توترات هامة وتتغير لوحة المرض كلها . ومرة أخرى فان العالم الاستعماري يتكشف عن تعقد وعن انه بناء من طبقات مختلفة الى أقصى الحدود . ففيه دائماً تعارض بين عوالم متنافية وتبادل مؤثرات متناقضة لتقنيات مختلفة وتصادم محتدم بين القيم .

المستعمر والطبيب الأهلي

لا يكتفي الوضع الاستعماري بافساد علاقات الطبيب بالمريض . فقد بينا أن الطبيب يبدو دائماً كما لو كان في حلقة صغيرة في الشبكة المستعمِرة أو كناطق باسم القوة المحتلة. ولسوف نرى أن هذا الالتباس الذي يبعثه التكنيك الطبي عند المريض نجده حتى اذا كان الطبيب ينتمي عندئذ الى الشعب الواقع تحت السيطرة . اذ يوجد لدى الجماعة المستعمَرة ازدواجية متناقضة ظاهرة إزاء كل عضو منها يكتسب خبرة الرجل الفاتح أو أساليبه إذ يكون الخبير من الأهالي الأصليين بالنسبة للجماعة برهاناً حياً ، حقيقة على قدرة أي عضو من أعضائه في أن يكون مهندساً أو محامياً أو طبيباً . ولكن هذا يكون في الوقت نفسه – على مستوى داخلي – تأكداً من ابتعاد مفاجىء يتم بين الجماعة المتجانسة ، المنكمشة على نفسها وهذه الفلتة التي انطلقت خارج مقولات الشعب النوعية النفسية والعاطفية . ان الطبيب أصلاً هو طبيب أصبح اوروبياً ، غريبا وهو يعتبر ، في بعض المناسبات كأنه لا يشكل جزءاً من المجتمع الخاضع

للسيطرة . فانه بصورة مضمرة قد قذف به في معسكر الطغاة ، في المعسكر الخصم . ولا يكون من قبيل الصدفة إذا استعمل هذا التعبير لوصف الرجل المتطور في بعض المستعمرات : « لقد أخذ بعادات السيد » .

يشبه الطبيب الأهلي في نظر جزء كبير من المستعمَرين بالشرطي المنتمي للسكان الأصليين وبالقائد Caid وبالوجيه . فالرجل المستعمِر يشمخ بأنفه لنجاح **فصيلته العرقية** ويصف في الوقت نفسه ذلك الخبير على درجة من الاحتقار . ويتميز مسلك الطبيب الاهلي من طب بلاده التقليدي بروح عدائية هامة خلال مدة طويلة .

ويشعر الطبيب الاهلي من الناحية البسيكولوجية ، انه مجبر على الاشارة بشكل قاطع إلى انتسابه الجديد لعالم عقلاني ومن هنا المسعى المتغاير كل المغايرة الذي يكف به عن مشاركة شعبه في ممارسته السحرية . لذلك ينظر المستعمَر اليه نظرة مزدوجة . كما ينظر الطبيب الأهلي بازدواجه إلى بعض ملامح ثقافته ، وسوف يتكشف اللقاء بين الطبيب والمريض عن صعوبة . والمستعمَر المريض هو الذي يحدد في البداية مسلكه . ذلك انه منذ ذلك الوقت الذي اعترف فيه حقيقة بتفوق التكنيك الغربي على طرق العلاج التقليدية يرى أن من الافضل التوجه الى المستعمرين الذين هم في الحقيقة «المالكون الحقيقيون لزمام التكنيك». وبات من المألوف ، على صعيد الزبائن أن يرى الانسان مثلاً ، أطباء أوروبيين يستقبلون مرضى من الجزائريين ومن الاوروبيين في وقت واحد ، بينما يكون زبائن الأطباء الجزائريين عادة من الجزائريين وحدهم . ومن الممكن بالطبع ذكر بعض الحالات الشاذة . إلا أن هذا الوصف في جملته مقبول بالنسبة للجزائر ، وكثيراً ما يكون الطبيب الأهلي بفعل مركب القوانين البسيكولوجية التي تتحكم في المجتمع الاستعماري ، بلا سند. وهذه هي من الناحية العملية مأساة رجال الفكر المستعمَرين ، قبل كفاح التحرير ، والتي نأتي على ذكرها هنا .

ولسوف نرى في الحال أية تبدلات مهمة قد أدخلت الى الجزائر بفضل حرب التحرير الوطنية .

الطبيب الاوروبي أثناء كفاح التحرير

يتبنى الطبيب المستعمَر بصورة عامة موقف جماعته في وجه كفاح الشعب الجزائرى ذلك أن خلف «الطبيب الذي يضمد جروح الانسانية يظهر الرجل ، عضو المجتمع المسيطر الذي ينعم في الجزائر بمستوى من الحياة أرفع بما لا يقاس أبداً بمستوى مثله في العاصمة الام [1] .

بالاضافة الى ذلك فان الطبيب ، في مراكز التعمير ، يكون دائماً تقريبا من أصحاب الاطيان في وقت واحد . ومن النادر أن نرى في الجزائر في مستعمرة نموذجية للاستيطان طبيباً لا يتعلق بالاستغلال الزراعي وبالعمل في الارض . وسواء كانت الارض تعود اليه من أسرته أو أنه عمل شخصياً على اكتسابها فان الطبيب هو واحد من المعمرين . فان المستوطنين الاوروبيين في

---

١ - تأخذ الممارسة الطبية في أكثر الأحيان مظهر القرصنة المنظمة في المستعمرات . حقن من الماء المقطر مرتين تثبت في الفاتورة على أنها بنسلين أو فيتامين ب ١٢ وفحص أشعة للرئتين وجلسات معالجة بالاشعة « بهدف حصر السرطان » ، بينما لا يكون الطبيب يملك أية آلة من أنواع الأشعة .فانه يكفي للطبيب في حالة عدم حيازته للاشعة أن يضع المريض خلف زجاج شفاف وفي نهاية خمسة عشر أو عشرين دقيقة يعلن انتهاء جلسة التصوير . حتى لقد يحدث بان يتباهى أطباء التجمعات الريفية (في الجزائر أمثلة عديدة أصبحت معروفة) إنهم يمارسون التصوير بالأشعة بواسطة المكنسة الكهربائية ولنذكر موقف ذلك الأوروبي الذي يمارس مهنته في رابليه (منطقة أورليان فيل) والذي يشرح كيف يحدث له في أيام السوق أن يكسب أكثر من ٣٠,٠٠٠ فرنكاً في فترة الصباح . « إنني أضع ثلاث إبر غير متساوية الحجم مملوءة بسيروم مملح وأقول للمريض : أي الحقن تريد ، حقنة الخمسمائة أم الألف أم الألف وخمسمائة » .ثم يضيف هذا الطبيب أن المريض يختار على وجه التقريب الابرة الأعلى ثمناً دائماً .

الجزائر لم يتوصلوا بعد الى تنشئة قطاعات الحياة الاقتصادية المختلفة على نحو قاطع . فالمجتمع الاستعماري هو مجتمع متحرك ، بنياتها غير سليمة ويبدل المهاجر فيه دائماً ، حتى وان كان خبير درجة معينة من تعدد الطاقات . فليس هناك من لا يشعر بأن شخصية كل أوروبي يسكن المستعمرات تنطوي على صانع حاذق أو خبير في استصلاح الارض أو مغامر . وليس هناك من لا يشعر حتى الموظف المنقول لمدة سنتين إلى أرض المستعمرة انه قد تغير ، في نواحي معينة ، بسيكولوجيا .

فان الفرد الاوروبي في الجزائر لا يتخذ مكانه في مجتمع ذي بنية مستقرة نسبياً. اذ ان المجتمع المستعمر يكون في حركة دائمة . وكل معمر يبتدع مجتمعاً جديداً ، يضع بنيات جديدة في المكان أو يرسم خطوطها . والفروق الموجودة بين الصناع والموظفين والعمال وذوي المهن الحرة تكون غير محددة تحديداً صحيحاً . فلكل طبيب كرومه ،ويعتني المحامي بما يخصه من حقول الرز بانهماك عنيد كأي معمر . ولا يحدد الطبيب مركزه اجتماعياً بممارسته الوحيدة لمهنته فهو ، على حد سواء ، صاحب مطاحن وخوابي للخمر وبساتين للبرتقال ، وهو يقدم طلبه للناس بغنج على أنه تكملة بسيطة لرصيده . وعندما لا يكون الطبيب رهين زبائنه فحسب ، من حيث الكسب ، وانما تأتيه دخول هائلة من موارد أخرى فانه يكوّن لنفسه مفهوماً معيناً عن الأخلاقية المهنية والممارسة الطبية . ان الغطرسة الاستعمارية واحتقار الزبون والجلافة الحاقدة في تصرفه مع المريض من الأهالي وفقدان الضمير ، نجدها كلها في قليل أو كثير في ثنايا الجملة التالية : «انني لا اعيش من وراء الزبائن». اما طبيب مدينة بزانسون أو ليبج أو بال فقد أفلت من أسار الارض واتخذ مقراً له في القطاع الاقتصادي المحدد بخبرته .

ولما كان الطبيب على اتصال بانسانية جريحه ، على الدوام هي انسانية المرضى والعجزة ، فانه يتخذ مقامه على صعيد من القيم . ومن هنا انتماؤه

المعتاد للأحزاب الديمقراطية وأفكاره المعادية للمستعمِرين . أما في المستعمرات فيشكل الطبيب جزءاً من الهيئة المستعمِرة ومن السيطرة ومن الاستغلال. ولا يجب الاستغراب اذن اذا نحن وجدنا ، في الجزائر أطباء أو أساتذة في الكليات يتخذون مكانهم على رأس الحركات الاستعمارية .

ان ما يهتم به الطبيب الجزائري هو بقاء الاضطهاد الاستعماري . ولا يعني هذا تعلقاً بالقيم أو بالمبادىء وإنما بمستوى الحياة المرتفع الى درجة لا مثيل لها والذي يوفره له الوضع الاستعماري . وهذا ما يفسر في أغلب الأحيان تحوله الى رئيس للميليشيا أو منظم للغارات « ضد – الارهابيين » . فثمة خصال من رجل الكاوبوي Cow - Boy أو من خصال مستصلح الاراضي البور ، في المستعمرات حتى لدى الرجـــل المثقف في الزمن العادي أي خارج حرب التحرير . وحال انـــدلاع الازمة يشهر راعي البقر مسدسه وأدواتـــه التي يستعملها في التعذيب .

يجب على المرء ، في هذه الحرب الرهيبة التي تضرج الجزائر بالدماء ، أن يبذل جهداً ليفهم وقائع معينة تكون من الناحية الموضوعية مؤلمة ، في وضع طبيعي . فلم يفسر مقتل بعض الاطباء في الجزائر تفسيراً كافياً في العالم أبـداً . اذ في أشد الحروب ضراوة ، يشاء التقليد أن تبقى الهيئة الطبية ، متروكة على حدة . فقد حدث لنا ، مثلاً في عام ١٩٤٤ ونحن نقوم بتحرير قرية في منطقة بلفور ، ان أقمنا حارساً على باب احدى المدارس التي كان يجري فيها جراحون ألمان عمليات للمصابين . ولا يجهل رجال السياسة الجزائريون وجود قوانـــين للحرب . فانهم يعرفون تعقيـــد المسألة والوضع المأساة في قضية المستوطنـين الاوروبيين . فكيف نفسر لأنفسنا في هذه الحالات القرارات المتخذة لاغتيال حياة طبيب .

يكاد أن يكون ذلك دوماً لان الطبيب نفسه ، من جراء تصرفـه ، قرر طرد نفسه من الدائرة المجيرة له التي كانت مبادىء وقيم مهنته الطبية تنسجهـا

حوله . فالطبيب الذي قتل في الجزائر منفرداً ، يكون دوماً مجرم حرب . اذ ثمة في أي وضع مستعمَر حقائق خاصة بـه . ذلك ان الطبيب يتكشف أحياناً في منطقة ما انه أكثر السفاحين سفكاً للدماءواشد المستعمرين، ولم تعد صفته كطبيب تدخل في التصور . وكما انه اصبح طبيباً بالاضافة الى ممتلكاته كذلك فانه سوف يكون أداة التعذيب وبصفة عرضية ، طبيباً . وعلى هـذا نظمت السلطة المسيطرة ، مسلك الطبيب برمته بازاء كفاح التحرير وهكـذا يجب على كل طبيب تحت طائلة الملاحقة الجنائية ، يساعد جزائرياً يبدو الاشتباه له بجرحه ،أن يأخذ اسم هذا المريض وعنوانه واسماء الذين يصحبونه وعناوينهم وان يُسلم الدوسيه الخاص بهم إلى السلطات [1] .

أما فيما يتعلق بالصيادلة فان الأمر الذي يوجه اليهم يتضمن عـدم تسليم الأدوية كالبنسلين والستربتومايسين والأدوية التي تحصر تطور الالتهابات بصورة عامة والكحول والقطن المعقم والحقـن المضادة للكزاز بدون الاستناد إلى وصفة طبية . بالاضافة إلى انهم ينصحون بشدة بالعمل على تسجيل هوية المشترى وعنوان المريض .

ومنذ أن اصبحت هذه الاجراءات معروفة لدى الشعب فانها قد أيدته في

---

١ — لقد تبنى مجلس نقابة الأطباء في فرنسا ، في وجه هذه الاجراءات موقفاً حازمـاً متلائماً مع التقاليد الفرنسية العظيمة .وهكذا فان رئيسه البروفسوربييدوليفر Piedelievre في رسالة رسمية موجهة إلى مجالس نقابات الأطباء في الجزائر وقسطنطينة ووهران ، قد كتب يقول : « أسمح لنفسي بتذكيركم بأن السر المهني لا يمكن إفشاؤه في أية حالة ولا بأية حجة . وإنني لأعلمكم أيضاً أن على الأطباء بذل العناية لجميع الأشخاص ، بنفس الوجدان ، أياً كان دينهم أو عرقهم وسواء كانوا أصدقاء أم أعداء . وإنني لأذكركم أخـيراً بأن قانون الواجبات المسلكية قد حدد ذلك تماماً في مادته الثالثة : «يجب على الطبيب معالجة جميع مرضـاه بنفس الوجدان أياً كانت ظروفهم وجنسياتهم ودينهم وشهرتهم والمشاعر التي يوحون بها اليه». ولنضف أيضاً أن كثيراً من الأطباء الأوروبيين قد رفضوا تنفيذ القرارات التي تبنتها السلطات الفرنسية في الجزائر .

تيقنه من أن هناك تفاهماً كاملاً بين المستعمرين على محاربته وقد خصصت السلطات الفرنسية لمراقبة الصيدليات التي يديرها جزائريون رجالاً من البوليس المدني او من المجندين يرابطون حولها ، مقتنعة من حرص الاطباء والصيادلة الاوروبيين على تنفيذ القرار . واصبح التموين من الادوية في بعض الاقاليم مسألة صعبة ومؤلمة . فإن الكحول والسلفاميد والسيرانج قد أصبحت ممنوعة . ولذلك كانت القيادة العسكرية الفرنسية عــام ١٩٥٥ تحشر في إحصائياتها لخسائر الجزائريين دائماً تقريباً ، عدداً من الجرحى يفترض « اعتبارهم في عداد الاموات لانعدام وسائل العناية » .

ولسوف يعزز الطبيب المستعمر مع ذلك ، ببعض مواقفه انتسابه إلى المجتمع المتسلط . فعندما يبدأ التحقيق القضائي مع جزائريين ، لم يكونوا قــد قضوا نحبهم أثناء الاستجوابات البوليسية ، كان يحدث للدفاع أن يطلب اجراء كشف الطبيب الشرعي . وكانت الموافقة تعطى للمحامين أحياناً . وكان قرار الطبيب الاوروبي المعين لذلك ، يتضمن دائماً أنه لم يظهر بالفحص الطبي ما يــدع مجالاً للتقدير بأن المتهم قد عذب . وفي مرات نادرة في بداية عام ١٩٥٥ كان بعض الجزائريين ينتدبون للخبرة . ولكن سرعان ما صدرت التعليمات المحــددة تمنع هذا الامر . كذلك كان الاطباء الاوروبيون ممن يحدث لهم ان يتحققوا مــن « وجود آثار يمكنها أن تؤدي الى فرضية حدوث الجروح الناتجة على الارجــح من الحركات الصادرة عن المتهم » ويعطون تقريراً بذلك فإنهم يسببون في الحال طلب خبرة جديدة ضد الخبرة ــ السابقة . وبالطبع فإنه لا يحصل أبداً أن يوجه الطلب الى هؤلاء الاطباء مرة ثانية . كما يحدث كذلك للطبيب الاوروبي في الجزائر أن يعطي السلطة القضائية شهادة موت طبيعي لجزائري قتل تحت التعذيب أو ببساطة أكثر نفذ فيه حكم القتل ، بلا أدنى احساس . كذلك من الثابت أيضاً أن يقترن طلب الدفاع لتشريح الجثة بالموافقة الا ان النتائج تكون دائماً سلبية .

هكذا فان الطبيب الاوروبي على صعيد التكنيك الصرف يتعاون بفعالية مع القوى الاستعمارية فيما تقوم به من أشد الامور رعباً وأخسها . ونود أن نذكر هنا بعضاً من الاعمال التي تمارسها الهيئة الطبية الاوروبية في الجزائر والتي تلقي ضوءاً على بعض « اعمال القتل » الصادرة عن الاطباء .

وتأتي « حقنة الحقيقة » في رأس القائمة . ان المبدأ فيها معروف فهي مادة كيماوية ذات خصائص منومة تحقن في الشريان مما يحدث ، عندما تتم العملية ببطء نوعاً من فقدان المراقبة وحالة من عدم الشفوف في الشعور . انها وسيلة علاجية مستعملة في الطب وهي بالطبع طريقة خطيرة جداً يمكن ان تكون سبباً في عوارض تلف للشخصية ضخمة . ومن ناحية اخرى فان عديداً من اطباء الامراض العقلية ، تقديراً منهم بتفوق أخطارها على احتمالات التحسن التي تؤدي اليها ، قد أقلعوا ، منذ زمن طويل ، عن هذا الاسلوب في تفحص واكتشاف مناطق اللاشعور .

ان جميع أكاديميات الطب في جميع بلدان العالم قد أنكرت صراحة ممارسة هذا العمل لغايات قضائية ويضع الطبيب الذي يخرق هذه التعليمات الشرعية ، نفسه بالطبع خارج المبادىء الاساسية في الطب . ويجب على الطبيب الذي يحارب الى جانب شعبه باعتباره طبيبا ، أن يحترم ميثاق الامم المتعلق بمهنته فان الطبيب المجرم تكون عقوبته الموت في جميع بلدان العالم ، ولدينا مثل اطباء المعسكرات النازية في الاختبار الانساني ، لاتخاذه قدوة للاعتبار على نحو خاص .

ان الاطباء الاوروبيين في الجزائر يستعملون « حقنة الحقيقة » بكثرة تطير باللب . ونحن نذكر هنا بالتجربة التي قام بها هنري ألغ Henri Alleg وساقها في كتابه المسألة [1] .

---

١ – هـ . اللغ ، المسألة ، ص ٧٤ وما بعدها – طبعة ١٩٥٨ .

كان يحدث لنا أن نعالج رجالاً ونساء خضعوا أياما كاملة لذلك النوع من التعذيب ولسوف ندرس في مكان آخر النتائج الخطرة لهذه الاعمال ولكننا منذ الآن نستطيع القول أنه قد بدا لنا أن أهم تشوش تخلفه وراءها هو نوع من عدم التمييز بين الصحيح والخطأ وخوف من البوح بما يجب أن يكون خفيا ، ملازم كالمس تقريبا . وعلينا ان نتذكر دائما في الواقع ، أنه لا يوجد جزائري وأيم الحق لا يحمل في صدره سراً على الاقل قد أطلع عليه من اسرار الثورة . وبعد مضي شهور على هذا التعذيب يبقى السجين القديم متردداً في التصريح عن اسمه واسم مدينته الأصلية ... وكل مسألة تكون قبل كل شيء قد جرت معاناتها كأنما هي إعادة ثانية لعلاقة أداة التعذيب -- المعذبة .

وهناك أطباء آخرون ، تابعون لمختلف مراكز التعذيب يتدخلون إثر كل جلسة لكي يعيدوا المعذب إلى حالته ويجعلون من الممكن إجراء جلسات تعذيب أخرى . فان المهم ، في توافق هذه الظروف ، في الواقع ينحصر في بقاء السجين في صحبة الفريق المكلف بالاستجواب ، اذن في بقائه على قيد الحياة . لذلك فان الأدوية المقوية للقلب والفيتامينات بمقادير مكثفة قبل وأثناء وبعد الجلسات تستخدم كلها للابقاء على الجزائري ، على الحافة ما بين الموت والحياة ويتدخل الطبيب عشر مرات ويعاد السجين عشر مرات من جديد الى أيدي الاوباش المكلفين بالتعذيب .

ان مثل هذه الامور تجري يومياً في صميم الهيئة الطبية الاوروبية في الجزائر وبخاصة في هيئة الصحة العسكرية . فان أكثر التصرفات بدائية وأشدها خزياً وأمعنها في الفساد قد حلت محل الوجدان المسلكي والاخلاق الطبية واحترام الذات واحترام الغير ، على نحو تام . ويجب أن نشير اخيراً الى عادة الاسراع الى نجدة رجال البوليس ، تلبية لندائهم ، التي أصبحت متبعة من قبل بعض أطباء الامراض العقلية في الجزائر ،وهم معروفون لدى عديد من السجناء ، قد مارسوا الصدمات - الكهربية مع متهمين وقاموا باستجوابهم - مرحلة اليقظة التي تتميز

هنا أيضا بنوع من التشوش يتصف باسترخاء في قوى المقاومة وباختفاء النزعات الدفاعية لدى الشخص . وعندما يصبح هؤلاء الرجال بالصدفة مطلقي السراح ، ذلك لأن الطبيب على الرغم من تلك البربرية لم يكن ليحصل على أية معلومات ، فان الشخصية التي يطلق سراحها وترد الينا إنما تكون شخصية ممزقة . ويصبح العمل عندئذ لإعادة بناء الرجل على درجة فائقة من الصعوبة ، وها هي ذي إحدى الجرائم العديدة التي سوف يعتبر النظام الاستعماري الفرنسي في الجزائر مسؤولاً عن اقترافها [١] .

الشعب الجزائري ، التكنيك الطبي وحرب التحرير

لقد أتيحت لنا الفرصة ، مرة بعد مرة للاشارة في قطاعات شتى إلى ظهور تصرفات جديدة كل الجدة في حياة الجزائري الخاصة والعامة . فان الهزة التي حطمت السلاسل الاستعمارية قد أعادت إلى التوازن مواقف متنافية ، وهدأت مواقع متطرفة ، وأرجئت موضوعات متصادمة أحياناً . ولقد كان العلم الطبي والاهتمام بالصحة يطرحان دائماً أو يفرضان على الشعب بواسطة القوه المحتلة . إذن فالشروط المادية والنفسية من أجل التدريب على أصول حفظ الصحة أو من أجل استساغة مفاهيم علم مكافحة الاوبئة لا يمكنها أن تتحقق في الوضع الاستعماري . فان الذهاب لزيارة الطبيب أو المدير أو رئيس

١ - لقد رأينا أطباء عسكريين يستدعون لنجدة عسكري جزائري ملقى على سريره ، من الجرحى في معركة فيرفضون إسعافه . وكانت الحجة الرسمية التي تساق في ذلك هي أنه لم يكن هناك أي أمل في انقاذ الجريح . إذن فان الطبيب سيقر ، بعد وفاة الجريح بان هذا الاجراء كان يبدو له أفضل من البقاء في السجن حيث كان يجب إطعامه بانتظار تنفيذ حكم عام. ويعرف الجزائريون في منطقة بليدا مدير المستشفى ذاك ، الذي كان يحرث بضربات قدمه بطون جرحى الحرب الدامية ، الراقدين في ممشى البناء .

مفرزة الدرك أو حاكم المدينـة يكون مسلكاً متماثلاً . وعدم الاهتمام بالمجتمع الاستعماري والحذر من ممثليه في السلطة يلازمهما دوماً عدم اهتمام وحذر آلي تقريباً بأكثر الأشياء ايجابية واكثرها نفعاً للسكان .

لقد أشرنا الى ان السلطات الفرنسيـة قد قررت منذ شهور الكفاح الاولى تطبيق الحجر على أدوية علاج الالتهابات وعلى الايتير Ether والكحول والحقن المضادة للكزاز .. وعلى الجزائري ، الراغب في الحصول على احد هذه الادوية ان يقدم الى الصيدلي المعلومات المفصلة عن حالته الشخصية وعن هويـة المريض الشخصية . ففي اللحظة التي يقرر فيها الشعب الجزائري عدم الانتظار لعلاجه ، يقدم النظام الاستعماري على منع بيع الادوية اليه والادوات التشريحية . وفي اللحظة التي يريد الجزائري فيها ان يحيا ويعتني بنفسه بصحته فان القوة المحتلة تحكم عليه بأن يكابد نزاع الموت المرعب . فكم من أسر عديـــدة شهدت ، وهي عاجزة ، يمتلىء قلبها حقداً ، **المجاهدين** ، الجرحى ، الذين لجأوا الى منازلهم وهم يموتون بالكزاز موتاً فظيعاً . وقد كانت تعليمات جبهة التحرير الوطنية ، منذ الشهور الاولى للثورة واضحة : يجب أن يتبع كل جرح ، مهما كان طفيفا بحقنة من المصل الواقي من الكزاز ، بصورة آلية . وهذا أمر اصبح يعرفـــه الشعب جيداً . وعندما يكون الجرح ، قبيح المنظر ، قـــد تخلص من التراب الذي علق به اثناء عملية الانكفاء فان الخوف من التيتانوس يستولي فجأة على من يحيطون به . بينما كان لدى الصيدليات التأكيد المطلق : ممنوع بيع الحقن الواقية من الكزاز . ويستطيع عشرات وعشرات من الجزائريين اليوم أن يصفوا لنا ذلك الموت البطيء الشنيع الذي يعاني الجريح من سكراته ، حيث يصاب تدريجياً بالشلل ثم يأخذ بالتـــلوي ، ومن جديد يشله السم الكزازي (الذيفان) . ويختمون كلامهم ان ليس هناك من يستطيع البقـــاء في الغرفة حتى النهاية .

بيد ان الجزائري ، اذ يكل أحياناً امر مشترواته إلى أحد الاوروبيين كان

يراه ، بدون صعوبات ، يعود اليه بالأدوية المنتظرة . بينما يكون هذا الجزائري قد سبق له ، قبل ذلك ، أن توسل الى جميع الصيدليات المحلية ثم عرف في النهاية وهو يشعر بلذع النظرة الصارمة والفاحصة الموجهة اليه من الصيدلي الاخير . ويعود الاوروبي ويداه مليئتان بالادوية ، مستريحاً ، بريئاً . وهذه التجارب لم تسهل على الجزائري الوصول الى أحكام ذات فروق عن الأقلية الاوربية . فالعلم المجرد من الصفة السياسية ، العلم في خدمة الإنسان ، غالباً ما يكون لا معنى له في المستعمرات . فان العالم المستعمِر، بالنسبة لهذا الجزائري الذي استجدى مدة ساعات والمال في يده ، مائة غرام من القطن المعقم بدون جدوى يشكل عقبة كأداء واحدة . ولما كانت الكحول ممنوعة هي الأخرى على السواء فان الجروح سوف تضمد بواسطة الماء الفاتر ولسوف تمارس عمليات البتر بدون ازالة الاحساس لعدم وجود المادة المخدرة .

على أن هذه الاشياء جميعها التي لا يمكن العثور عليها ، التي يحتفظ بها الخصم والممنوعة من التداول ، سوف تكتسب قيمة جديدة . فقد تحولت هذه الاودية التي كانت تكاد تستعمل آلياً قبل كفاح التحرير ، إلى أسلحة. لذلك أخذت خلايا المدن المكلفة بتوفير التموين من الادوية تتمتع بنفس أهمية التي تكون مهمتها الحصول على المعلومات عن مشاريع الخصم أو عن تحركاته . وكما يكتشف التاجر الجزائري وسائل لامداد الشعب بأجهزة الراديو فان الصيدلي الجزائري والممرض الجزائري والطبيب الجزائري يضاعفون جهودهم كذلك لتكون الادوية ضد الالتهابات وغرز العمليات الجراحية في متناول الجريح دائماً .

ولسوف تتدفق عن طريق تونس وبطريق مراكش أخيراً طيلة الشهور التي شنت فيها هذه الحروب الصليبية من عامي ١٩٥٦ و ١٩٥٧ كميات من الادوية سوف تنقذ عدداً لا حصر له من الحيوانات البشرية .

ان تطور الحرب الجزائرية واتخاذ وحدات من جيش التحرير الوطني مواقع

لها فوق ارض الوطن بمجموعها ، يطرحان بطريقة لها طبيعة المأساة مسألة الصحة العامة . كما ان تكاثر المناطق الخطرة على تحرك الخصم يقوده الى ايقاف فعاليات نظامية مثل مرور طبيب الى الدوارات . وهكذا بين يوم وليلة يسلم أمر الشعب لنفسه وتضطر جبهة التحرير إلى اتخاذ تدابير رئيسية ، وترى نفسها مجبرة على اقامة نظام صحي قادر على أن ينوب عن الزيارة الدورية التي كان يقوم بها طبيب الاستعمار . وهكذا يصبح المسؤول عن صحة الخلية المحلية عضواً هاماً في الجهاز الثوري . وتغدو المسائل من ناحية أخرى متزايدة التعقيد . ذلك أن نتائج أعمال القصف والتطهير الذي يجري في صفوف المدنيين أصبحت تضاف الآن إلى الامراض الطبيعية . وليس ثمة من يجهل حقيقة ، بأن مقابل كل جندي جزائري مصاب ، يقتل عشرة من المدنيين أو يجرحون . فان شهادات الجنود الفرنسيين في هذا المجال عديدة جداً . ومنذ ذلك الحين بات من غير الممكن الاستغناء عن الادوية وعن الخبراء . ولذلك صدر الامر في أثناء هذه الحقبة ، إلى الطلاب في الطب والى الممرضين والى الاطباء بالانضمام إلى المقاتلين . ونظمت اجتماعات بين مسؤولين سياسيين وبين مختصين في الصحة . وبعد وقت قليل سوف يأتي مندوبون عن الاهالي متخصصون في شؤون الصحة العامة ، لينضموا كمساعدين في كل خلية . ونجد أن جميع المسائل تعالج بفكر ثوري ممتاز .

ولم يكن في ذلك أي نظام أبوي ولا أي استحياء . وانما على العكس كان في ذلك جهد مشترك صادر عن عزائم مصممة على تحقيق مشروع صحي متقن . فلا يمارس الخبير في الصحة « أعمالاً سيكولوجية ترغيبية لاقناع الشعب المتخلف » وتكون المسألة في ظل الادارة التابعة للسلطة الوطنية هي السهر على صحة الشعب وصيانة حياة نسائنا وأطفالنا ورجالنا المقاتلين .

ويجب الوقوف طويلاً عند الحقيقة الجديدة التي يكونها منذ عام ١٩٥٤ بزوغ السلطة الوطنية في الجزائر . واذ تأخذ هذه السلطة الوطنية على عاتقها

صحة الشعب يتخلى الشعب عن سلبيته القديمة . وينتفع الشعب المعني بهـذا الكفاح ضد المـوت ، في احترامه للتوجيهات ، وجدانـاً وحماساً لا مثيل لهما .

ان الطبيب الجزائري ، الطبيب الاهلي الذي كان ينظر اليه كما رأينا ، قبل المعركة الوطنية على انه سفير رجل الاحتلال يعود الآن فيندمج في الجماعـة ، ويصبح الطبيب الجزائري وهو يفترش الأرض مع رجال ونساء المشتى ويعيش مأساة الشعب ، قطعة من اللحم الجزائري ، ولم يعد هناك من أثر لذلك التكتم الذي كان ثابتا في حقبة الاضطهاد التي لا جدال فيها ، فانه لم يعد «الـ» طبيب ، أي طبيب وانما أصبح طبيب « نا » نحن وخبير « نا » نحن .

ومنذ ذلك الحين يطالب الشعب بتكنيك مجرد من صفاته الاجنبية ويؤمنه . فان حرب التحرير قد أدخلت الخبرة الطبية والخبير الاهلي في الحياة اليومية إلى مناطق لا حصر لها في الجزائر . وأخذ الاهالي الذين اعتادوا الزيارات الشهرية أو نصف ـ السنوية ، يقوم بها أطباء اوربيون ، يرون أطباء جزائريين يقيمون نهائياً وسط قراهم ، فالثورة والطب يتواجدان في وقت معاً .

يدرك الانسان بأن مثل هذه الوقائع يمكنهـا ان تشكل قواماً لا مثيل لفورانه والمنطلق لمواقف متجددة . وتعالج مشاكل الوقاية الصحية والوقاية من الامراض ، في جو مبدع ممتاز فاذا بالمراحيض وهي التي كانت مشاريع الوقاية الصحية المقدمة من قبل الادارة الاستعمارية قد تكشف عن عجزها في التوصل الى اقناع المشاتي بالقبول بها ، وقد أخذت تتكاثر في هذه المشاتي نفسها . وأصبحت المعاني المتعلقة بنقل الطفيليات المعوية مستساغة مباشرة من الشعب وبوشر بمكافحة المياه المستنقعة وتوصلت مكافحة الرمد وهي حديثة العهد ، الى نتائج تستحق التقدير . ولم تعد الامهات هن السبب فيما يتعرض له أطفالهن من اهمال بل أصبح السبب فقدان مادة الاوريوميسين Aureomycine فان الشعب يريد أن يشفى ويريد أن يعالج

نفسه ويرغب في فهم شروح الاخوة الاطباء أو الممرضين [1] . وهكذا فتحت المدارس للممرضين والممرضات وفي بضعة أيامتوصل الجاهل إلى ممارسة عملية اعطاء الحقن في العرق .

كذلك فان الأوهام القديمة بدأت تنهار فأعمال السحر ، وأثر شيوخ الطرق التي كانت قد تزعزعت من قبل بشدة بتأثير المثقفين والاعتقادات في الجن . ان جميع هذه الامور التي كانت تبدو على انها جزء من فيزيولوجيا الجزائري نفسها ، قد تزعزعت نتيجة العمل والممارسة الثوريين [2] . ولم يكن ثمة ما لم يستسغ من قبل الجزائري حتى تلك الامور الممنوعة التي لا تقبل إلا بصعوبة في أوساط الجماعات الانسانية المتقدمة جداً في التقنية . وها نحن نذكر على ذلك مثلين بليغين :

أولاً التحريم على الجريح في بطنه تناول أية جرعة من الماء . ان الامر الصادر

---

١ - كذلك يلاحظ تغيير شبيه بهذا في موقف الجزائري في اوساط المستشفيات التابعة لرجل الاحتلال . اذ يحدث حقيقة بأن تقضي ضرورة الحصول على دواء معين أو تعذر اجراء عملية جراحية في اوساط المقاومة السرية ، على الطبيب بنصح الرجل المدني بالانتقال الى مستشفى يدار من قبل الفرنسيين . عندئذ تختفي مواقف التردد والرفض التي كانت تحدث قبل الثورة ويتبع الاهالي توجيهات طبيب المقاومة السرية الجزائري واصبح هذا السلوك الجديد واضحاً جداً في عامي ١٩٥٦ - ١٩٥٧ . ولقد سنحت لي الفرصة في هذه الحقبة لزيارة عدد كبير من المستشفيات . فكان الأطباء الفرنسيون يشركونني عندئذ في تعجبهم . وكانوا يؤكدون « أن المسلمين منذ الحرب. بالمقارنة مع السنوات السابقة يعملون على معالجة أنفسهم في المستشفيات بنسبة واحد إلى خمسة ويتساءلون . ما هذا الذي يجري » . وعلينا أن نضيف هنا أيضاً آخذين بعين الاعتبار صعوبات التزود بالمواد الصيدلية ، انه كانت لدى الادارة فائدة استراتيجية في العمل على أن يقوم الفرنسيون بالعناية بالمدنيين ، والاحتفاظ بالادوية من أجل العناية بالعسكريين الذين لم يكن من الممكن الإفراج عنهم بعد شفائهم .

٢ - الجن جمع جنون هو روح . انه يمس المنازل ، والحقول ... وقد كان الاعتقاد الشعبي يخصه قسطاً هاماً في ظواهر الحياة : ولادة ، ختان ، زواج ، مرض ، موت ، ففي حالة المرض المحددة كانت كل آفة طبية تفسر على أنها من عمل جن شرير .

قطعي . فقد القيت على الشعب محاضرات في شرح ذلك . ولم يبق فتى ولا فتاة تجهل هذا القانون : يجب عدم اعطاء أي جندي مجروح في بطنه أية جرعة للشرب أبداً . فقد كان الشعب يقف بعد أي تصادم متحولقاً حول الجريح منتظراً وصول الطبيب ، يستمع إلى توسلات الجريح في طلب الماء دون أن يساوره الضعف لذلك . وتمتنع النساء طيلة ساعات ، بكل عناد عن اعطاء جرعة الماء المطلوبة للجريح . ولا يتردد ابن **المجاهد** ذاته في القول لابيه : « خذ بندقيتك ، اقتلني ، الا أنني لن أعطيك ما تطلب من الماء » . بوصول الطبيب فان التدخل يصبح معمولاً به ويكون **المجاهد** من ناحيته قد خطى بأوفر قسط من الحظ .

والمثل الثاني يتعلق بالحمية الدقيقة ، المراقبة أثناء الاصابة بعدوى التيفوس؛ وفي المستشفى فان احترام هذا المنع يتحقق بتحريم الزيارات العائلية . والواقع أنه في أية مرة يدخل فرد من الأسرة إلى غرفة المريض فانه يتخاذل أمام منظر « الجوع » التيفوسي فيندفع ، متواطئاً معه ، ليخلف له قطعة من الكاتو أو من لحم الفراخ . وتكون النتيجة في أغلب الاحيان حدوث ثقب في الامعاء .

ان هذه الاشياء تأخذ في الوضع الاستعماري مظهراً خاصاً ذلك ان المستعمر يفسر هذا المنع الطبي كما لو كان شكلاً جديداً من التعذيب ، ومن التجويع ، نموذجاً غير معروف من الطرق الانسانية الصادرة عن رجل الاحتلال . وإذا كان المصاب بالتيفوس طفلاً فانه يمكننا عندئذ ادراك المشاعر التي تستولي على فكر الأم . هذا وان الممرض أو الطبيب الجزائري يحصل من أسرة المريض، في قلب الجبل ، على مسلك في مستوى عال من التطبيق . فمن احتياطات صحية وتناول منتظم للأدوية ، ومنع الزيارات ، وعزل، وأخيراً حمية لمدة عدة أيام. وتتبع الأم الجزائرية التي لم تكن قد رأت طيلة حياتها طبيباً ، تعليمات الرجل التكنيكي بكل دقة .

يجب على الاخصائيين في التربية الصحية الاساسية امعان التفكير في الأوضاع الجديدة التي تتفتح أثناء كفاح أي تحرير وطني يقوم به شعب متخلف اذ منذ أن يرجع فيه جسم الامة الى الحياة مرة أخرى ، بطريقة متلاحمة وديناميكية ، يصبح كل شيء ممكناً .

فان معرفة «سيكولوجية المواطن الاصلي» أو « معرفة الشخصية الاساسية» تظهر عندئذ بطلانها . ذلك أن الشعب الذي يتسلم زمام قدره بيديه يستسيغ بإيقاع يكاد أن يكون خارقاً للعادة أحدث أشكال التكنيك .

***

الفصل الخامس

الاقلية الأوروبية في الجزائر

كنا قد أوضحنا في عدة مناسبات في الصفحات السابقة بعض ملامح المجتمع الاوروبي في الجزائر . وقد ذكرنا مسلك بعض الاوروبيين الشنيع في أغلب الاحيان. ولقد كنا نحب، بكل تأكيد العثور لدى الاطباء والمثقفين الاوروبيين في الجزائر على الاهتمام بتخفيف التوتر وتسهيل الاتصالات وإزالة مأساة الصراع. بل المعروف ، على العكس ان المثقفين الاوربيين هم الذين تولوا توزيع المعمرين الى فرق . وقد اختفى آل سيريني وآل بورجو وآل لاكيير أو تراجعوا الى الصفوف الخلفية. ومع ذلك فلا يجب التصور بانهم يتصرفون كأشخاص وسيطين بين هؤلاء وهؤلاء . فان تلك الحقبة قد أنتهت اليوم . فليس أمثال لاغيارد وريغارد رجالاً عديمي الرأي . فقد تولوا ادارة القوى المستعمرة وعقدوا مباشرة صلات مع الجيش والاحزاب الفرنسية في جبهة اليمين وهم لا يستبعدون احتمال قطيعة فظة. وقد اصبح كلاسيكيو الاستعمار متخلفين منذ زمن طويل. فإن هؤلاء الرجال وقد اعتادوا على العمل البرلماني وعلى الضغوط السياسية وعلى مناورات الاروقة يظهرون منذ ثلاثة شهور تردداً واضحاً . ذلك ان اصحاب الصوت المسموع ، الاستعماريين الجدد يرون المستقبل من خلال رؤى غامضة

فان بعض الاوربيين في الجزائر لأنهم مرتبطون بسلطة الاستعمار كثيراً ماساهموا في اسباغ الصفة الوهمية ، على حرب الجزائر وسبق ان رأينا اطباء يقضون كامل وقتهم الى جـانب مختبرات الابحاث التابعة للشرطة القضائيـة ونعلم بأن قسساً وفلاسفة يأخذون على عاتقهم في مراكز التجميع أو الاعتقال مهمة غسل الأدمغة والنفاذ الى النفوس وجعل الانسان الجزائري مشوهاً لا يمكن التعرف عليه .

ولسوف نرى ان الاقلية الاوربيـة في الجزائر بعيدة عن ان تكون الكتلة الوحيدة الطبقة التي يخالها المرء . ان مدير صحيفة صدى وهران، السيد لافونت، وهو يصرح مؤخراً بأن مدينة الجزائر لا تمثل الجزائر كلهـا ، ويظهر بالضبط الرغبة التي يحس بهـا بعض الاوربيين في ان يتخذوا لأنفسهم فروقـاً تميزهم عن الاركان حرب المستعمرة في الجزائر إلا انه يجب ان يقال في الجانب المتطرف ومن جهة اخرى فانه كان يجب ان يقال ، بأن شـارع ميشليه وشارع ايسلي وبعض المقاهي في باب الواد لا تمثل الجزائر .

لقد اتخذت اللجنة الموجهـة في حركة انتصار الحريات الديموقراطية ، في نيسان (ابريل) ١٩٥٣، قراراً بإجراء الاتصال مع المستوطنين الاوربيين والعمل على تبادل وجهات النظر مع أهم الجماعات والمصالح التأسيسية للاقليات الاوربية. وكذلك فان الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري كان يذكر مناضليه باستمرار في نصوصه العقائدية بما تقتضيه الضرورة الستراتيجية والسياسية من عدم الدفع بالاوربيين جميعهم للانحياز الى الصف الاستعماري. ولنذكر ، من ناحية أخرى ان كثيراً من الاوربيين كانوا في ذلك التاريـخ اعضاء في الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري .

كان لا بد لمواقف كهذه من ان يستجاب اليهـا بسرعة . لذلك تكاثرت اللقاءات في المدن بين الجزائريين المسلمين والجزائريين الاوربيين . وهي لقاءات لم يكن بينها وبين المهازل الفرنسية ـ الاسلامية التي تتبناها السلطات المستعمرة

أي شيء مشترك . فليس فيها لا مستوى [1] ولا غرابة ولا مفهوم أبوي ولا اذلال. وإنما رجال ونساء يتناقشون في مستقبلهم ويتذكرون الاخطار التي تهدد بلادهم .

وكانت زمر من الشباب تتجمع في ذلك الوقت ويجري تنظيم بعض الهجمات وجمعيات من الفتيات كانت تكشف عن نفسها وتبدأ العمل في ذلك الائتلاف ، إذ كانت الأسس النفسية التي تقوم عليها اللقاءات الانسانية والتي تكون ديموقراطية في حقيقتها قد نبذت نهائياً في ذلك التاريخ .

ذلك أن الديموقراطيين والاوروبيين المعادين للمستعمرين سواء كانوا مشهورين أو يظن بأنهم كذلك تأثروا بالمسؤولين . فالمسألة الجزائرية كانت قد درست من جميع وجوهها . وكثيراً جداً ما كان الاوربيون الذين يعجبون بعد عرض كامل للوضع الاستعماري ، في ان الجزائر لم تتعظ بعد من الصدمات السياسية . وغالباً ما كان هؤلاء الاوربيون ينتهون الى تقرير ضرورة العمل المسلح ، باعتباره العمل الوحيد القادر على اخراج الجزائر من وضعها اليائس .

كثيراً ما زعم بأن جبهة التحرير الوطنية لم تكن تقيم أي تمييز بين مختلف أعضاء المجتمع الاوربي في الجزائر . والذين يتفوهون بمثل هذه الاتهامات يجهلون سياسة الجبهة المحددة منذ زمن طويل بازاء اوروبيي الجزائر كما يجهلون الدعم المتين الذي يقوم به مئات ومئات من الاوربيين والاوربيات لوحداتنا وخلايانا السياسية. فإن ما قلناه هو ان الشعب الجزائري ينظر بصورة عفوية الى الجهاز المضطهد من خلال أهمية الاستيطان الاوربي وبصورة خاصة من خلال صمت وعدم فاعلية الديموقراطية الفرنسية في الجزائر ، وبالنظر للعنف الجازم والمطلق ، الصادر عن المستعمرين .

---

١ – بالفرنسية في الأصل : Mechain

إن الأمر سيان ويمكن ان يقال عن الديموقراطيين الاوربيين في الجزائر ما لا ننفك نردده عن أحزاب اليسار الفرنسي : فقد صنع التاريخ نفسه خلال زمن طويل بدونهم فهم لم يتمكنوا من أن يمنعوا ارسال فرق المجندين إلى الجزائر لا ولا امتياز غي مولليه ولا لاكوست ولا١٣ مايو. بيد ان وجودهم يحصر فاشست فرنسا والجزائر الجدد في مواقع المقاومة . **فاليسار لم يصنع شيئاً منذ زمن طويل في فرنسا** . ولكنه بعمله ، وبكشفه لأعمال الآخرين وبتحليلاته قد حال دون وقوع عدد ما من الامور .

لم يكن الديموقراطيون الاوربيون في الجزائر ، في اطار حرب الجزائر بقادرين في جملتهم، على الدفاع مثل نظائرهم القاطنين في فرنسا. فان الديموقراطية في فرنسا ، تبعاً للتقاليد تعيش في وضح النهار أما في الجزائر فان الديموقراطية تصبح خيانة بمجرد مغادرة فرنسا . كان يستطيع واحد مثل كلود بورديه ودومناخ وبيير كوت أن يتحللوا علناً من السمات السياسية لحكومة بلادهم فباعتبارهم مقاومين قدماء ، قد نذروا حياتهم في كل وقت للدفاع عن بعض المبادىء ومن اجل انتصارها لم يساورهم أدنى تردد، نجدهم صامدين لا يتزعزعون إذا ما تلفاهم التهديدات . إلا انه يجب ان نشير بالتشديد إلى كون التقاليد في داخل الرقعة السداسية الاضلاع أي داخل الاطار الجغرافي الذي يضم فرنسا ، ما تزال مصانة نسبياً بعد . أما فرنسا كبلاد رأسمالية فإنها تخفي امكانيات قوة عرقية . وها نحن نرى ذلك بصورة أوضح منذ سنتين . إلا ان ثمة انعكاسات تلعب دورها بين الفرنسيين أنفسهم بصورة عفوية . ومن هنا الحرية النسبية التي تركت للمعارضين – وان كانت تسير من قليل الى أقل ، ولكن هذا سببه أن فرنسا قد بدأت تصبح مستعمرة من قبل الفعاليات في الجزائر – ومن هنا ايضاً ذلك النوع من الثورة التي تنفجر في الرأي العام الفرنسي لدى أي تلميح يجري عن اعمال التعذيب في الجزائر .

وبسبب من تناقضاتها الخاصة ومن قوة الاحزاب الرجعية وراديكاليتها فإن

قوى اليسار في فرنسا لم تستطع حتى هذا اليوم فرض المفاوضة . ولكن مما لا مراء فيه انها بلا توقف تجبر المتطرفين على كشف القناع عن وجههم ، وبالتالي على ان يتبنوا بالتدريج المواقف التي سوف تعجل بسقوطهم .

أما في الجزائر فليس لقوى اليسار من وجود . ومن الامور التي لا تخطر على بال ان يناضل ديموقراطيون جزائريون ، نضالاً حقيقياً في الجزائر خارج الحزب الشيوعي الجزائري . ونحن نعرف انه حتى الحزب الشيوعي نفسه قد التزم ، مدة طويلة ، حدود اصلاح على غرار الاتحاد الفرنسي ، وان الشيوعيين قد مضوا شهوراً طويلة بعد الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ على عادة الوشاية با « لارهابيين المحرضين » وبعبارة اخرى بجبهة التحرير الجزائرية .

ان الديموقراطيين الاوربيين في الجزائر ، من يوم كانوا ، وهم يعيشون في قليل أو كثير في حالة من السرية . انهم غارقون في خضم الكتلة الأوربية ، يسبحون في جملة من القيم تنبذها مبادؤهم الخاصة وتحكم عليها . فالديموقراطي الاوربي يكون على حذر ، له اتصالات بالجزائريين ولكن في الخفاء ، ويدعونه ، من ناحية أخرى في المستعمرة الاوربية « بالعربي » . وهذه الظواهر جميعها معروفة جداً وقد وجدت من قبل في الهند الصينية وفي افريقيا السوداء وفي تونس ومراكش .

ان هذا الاوربي الديموقراطي ، المعتاد على صلات نصف-سرية مع الجزائريين يتعلم بدون ان يدري ، قوانين العمل الثوري . وعندما يطلب منه أولئك الذين اعتاد استقبالهم ، ايواء صديق أوالحصول على أدوية أو نقل طرد فلا تبدر منه ، بصورة عامة ، أية صعوبة . وثمة نقطة يجب التأكيد عليها وهي أن ما من عضو في الجبهة قد خدع ديموقراطياً فرنسياً في الجزائر . ولم يكن يخطر على بال تعريض رجل او امرأة لأدنى خطر ، ممن كنا نمحضهم ودنا منذ زمن طويل دون أن ننبههم الى ذلك ، فقد كان القرار بمساعدة جبهة التحرير الوطنية يتخذ على بينة

تامة وبالمسؤولية الكاملة . فلم يخدع ديموقراطي فرنسي واحد أبداً . وأحياناً ، ولا سيما في أيام ١٩٥٧ التي تجاوزت خطورتها الحدود كان يحـدث لديموقراطي اوربي أن يتراجع في تأدية الخدمة المطلوبة وان يرفض القيام بها وهو يائس . الا أنه لم تحصل في ذلك أبداً أية محاولة للخداع أو لاستغلال اخلاص ومجاملة بعض الاوربيين .

وربما يجب علينا أن نضيف الى ذلك بأن الاوربي كثيراً ما كان يصرح برغبته في عدم الاطلاع على تفاصيل الأمر الذي يتطلب تعاونه. ولكن الادارة هي التي تكون صعبة المراس . فقد كانت جبهة التحرير الوطنية تريد مسؤولين لا أناساً ينهارون أمام أقل خطر ويؤكدون أنه غرر بهم .

ان الاوربيات والاوربيين الذين أوقفوا وعذبوا من قبـل سلطات البوليس والمظليين الفرنسيين قد برهنوا على نحو دقيق ، بموقفهم وهم يُسَامُون العذاب من ذوي قرباهم ، عما في موقف جبهـــة التحرير من ســـداد الرأي . ولم يكشف فرنسي واحد ، حقيقة ، لرجال البوليس الاستعماريين اموراً رئيسية من أمور الثورة . وعلى العكس فقد كان الاوربيون الذين يتم توقيفهم ، يقاومون إلى حد كاف لكي يمكنوا الاعضاء الآخرين في الشبكة من الاختفـــاء . فان الرجل الاوربي الذي كان يعذب كان يسلك مسلك مناضل صحيح في المعركة الوطنية من اجل الاستقلال .

منذ خمس سنوات لم تر جبهة التحرير الوطنية أنه من الضروري الالحاح على مساهمة الاوربيين في الجزائر في الكفاح التحريري . ويفسر السكوت عن هذا الموضوع بالاهتمام في عدم التلويح بحالة هؤلاء الاوربيين . ولئلا يصار الى التفريق ما بين عملهم وعمل اي كان من الجزائريين . ولم تشأ جبهة التحرير الوطنية أن تجعل منهم في صميم الثورة أوربيين يؤدون خدمات ، على غرار ما كانت تفعل الجزائر المستعمرة ، حيث كانت تشتمل كل لجنة من أعمال الخدمات العامة على

مسلم ويهودي وفقاً لمقتضيات السنة التقليدية .

ففي نظر جبهة التحرير الوطنية ليس ثمة من ناس غير جزائريين في اطار المدينة التي يجري بناؤها . فعند الانطلاق إذن يكون كل فرد يسكن الجزائر ، جزائرياً وفي جزائر الغد المستقلة سيكون من شأن كل جزائري أن يضطلع بأعباء المواطنة الجزائرية أو أن يرفضها لصالح مواطنة أخرى .

ان هناك بكل تأكيد مجرمي حرب ، اولئك هم جميع المستعملين كأدوات للتعذيب والذين دحروا في سايغون وتونس ومكناس ، والذين ها هم اليوم في الجزائر أو مسكرة ، قبل نهاية السيطرة المستعمرة التي يحسون باقترابها ، يريقون أقصى ما يستطاع من دم الإنسان المستعمَر . هؤلاء ليسوا في أية جبهة . وبينما ترتعش الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية الآن رعشاتها الأخيرة فان الفرنسيين يحرزون تقدماً في تحديد هوياتهم . ولسوف تجب مراقبة هؤلاء الرجال إذا رجعوا إلى فرنسا ، فان أبناء آوى لا يقبلون بالحليب غذاء ما بين ليلة وضحاها ، ذلك ان طعم الدم والجريمة قد تأصل بعناد في صميم هذه المخلوقات نفسها ، التي يجب صراحة القول ، أن يناط أمرها فقط إلى أطباء الامراض العقلية .

وهناك ايضاً بعض مئات من المستعمرين الاوربيين وهم اشداء ، عتاة ، وهم الذين دفعوا في جميع الازمان إلى اعمال القمع وحطموا الديموقراطيين الفرنسيين وسدوا في الاطار الاستعماري ، الطريق على أية محاولة لادخال حد أدنى من الديموقراطيين الى الجزائر .

فليس على الشعب الجزائري أن يحدد موقفه من هؤلاء الناس الذين اعتبروا الجزائر والجزائريين صيداً مسمناً فقد اخرجهم الشعب من عداد الامة الجزائرية ويجب عليهم ألا يأملوا في رد « اعتبارهم » اليهم .

وسوف نبرهن الآن بالتفصيل على ان الاقلية الاوربية قد تفتتت منذ سنوات

عديدة وعلى ان جماعات لها اهميتها من الجزائريين غير العرب تعطف على القضية الجزائرية وتسهم بفاعلية في الكفاح ، بينما تناضل جماعات أخرى ، رسمياً في صفوف الثورة الجزائرية .

يهود الجـــزائر

يشكل يهود الجزائر خمس السكان غير المسلمين في الجزائر . ومسلكهم في مواجهة كفاح الشعب الجزائري ليس واحــداً بالطبع . وعلى كل فان التحليل الاجتماعي الاقتصادي يفسر لنا تمام التفسير مختلف المواقف التي يتبناها أعضاء جماعة اليهود .

فثمة فرقة أولى من اليهود قد ربطت مصيرها ربطاً محكمـــاً بمصير السيطرة الاستعمارية . فسوف لا ينظر التجار اليهود مثلاً المتمتعون بفضل جنسيتهـــم الفرنسية بالحماية من منافسة الجزائريين ، دون استياء الى سلطة وطنية جزائرية واختفاء الانظمة التي تميزهم . كما تضع البنوك ، في الواقع عراقيل هائلة في وجه تسليف التجار الجزائريين وتوقف عقودهم وبذلك تساهم مســـاهمة فعالة في افلاسهم أو انها في جميع الاحوال تحد من توسع اعمالهم وتنتزع منهم بالنتيجة صفتهم الخطرة بالنسبة للتجار الآخرين .

بيد أنه يمكن في كل مدينة كبيرة في الجزائر ذكر اسم واحـــد أو اثنين جزائريين قد توصلا بفضل الثبات والذكاء التجاري إلى افســاد تلك المناورات والى تكوين خطر يهدد تفوق اليهود التجاري .

هؤلاء التجار اليهود يصرحون قائلين : « لئن حدث وحصل الجزائريون على استقلالهم فمن المؤكد سيأخذون مكاننا » فخوف التاجر اليهودي نابع من أن

تكون المساواة في المنافسة تؤسسها سلطة جزائرية ضارة بمصالحه ، على مستوى المنافسة الاقتصادية . وهذا الخوف بعيد عن أن يكون الصفة المميزة للتجار اليهود بل يجده الانسان لدى التجار الاوروبيين من أي أصل كانوا وعلى أي مستوى من الأهمية . إذ يقاس النظام الاستعماري في نهايته ، كأنه نهاية الزمن الحلو .

ومن ناحية أخرى تجب الاشارة إلى أن مثل هذا الاستعداد الفكري ليس موجوداً في جميع المستويات وفي جميع المناطق . ففي أماكن التجمعات التي يحافظ فيها التاجر اليهودي على علاقات وثيقة بالسكان الجزائريين وحيث يكاد الاستقلال الاقتصادي أن يكون واضحاً ، يجد الانسان ، في الحقيقة اتحاداً في المصالح . وفي هذه التجمعات يقوم التجار اليهود بتأمين امداد جيش التحرير الوطني بالملابس العسكرية والاغطية ... ولم يعد مجهولاً بأن تجاراً يهوداً عديدين منذ عام ١٩٥٤ قد اوقفوا بتهمة التواطؤ مع الثورة الجزائرية .

ان الموظفين اليهود وهم عملياً الكادرات الادارية الوحيدة المستخدمة محلياً - إذ ان الاوروبيين ، في الجزائر ، معمرون أو يمارسون مهناً حرة يتخيلون هم ايضاً ميلاد دولة جزائرية ، جزعين وهم يقدرون بيسر بأن الحرية المعترف بها لكل جزائري في الدخول الى المدرسة ، حيث يحتمل أن يكون التعليم مجاناً وان اختفاء أحكام المنع والشروط سوف يدخل على امتيازاتهم تغييرات كبيرة . وما يزال الناس يذكرون ، ذلك الاستياء الذي أفصح عنه الموظفون الاوروبيون في الجزائر ، دليلاً على « الوجدان » ، عندما لوحت لهم السلطات الفرنسية بشبح « قبول المسلمين في الوظائف العامة » .

ان حالة الفكر هذه وان تكن معتادة في الجزائر ليست منافية لمواقف متعارضة تعارضاً تاماً . واننا لنعرف ضباطاً يهوداً في البوليس وبخاصة في عامي ١٩٥٥ / ١٩٥٦ قد اخروا تنفيذ امر وقف وطنيين جسورين مع انهم في

مكانة رفيعة ، فاسحين لهم هكذا المجال « للاختفاء » في اغلب الأحيان .

ولما كانت الجزائر المستعمرة بالتالي بلاداً تسيرها روح عرقية فريدة فإن الانسان ليجد فيها مختلف آليات النفس العرقية . لذلك فإن اليهودي المحتقر ، المنبوذ من قبل الاوروبي يكون سعيداً جداً في بعض المناسبات في أن يسير في الموكب مع اولئك الذين يذلونه ، ليعمل بدوره ، على اذلال الجزائري . غير أنه من النادر جداً فيما عدا منطقة قسطنطينة حيث يكثر اليهود الفقراء ، العديدون في ظل السيطرة الاستعمارية ، ان يُرى اليهود ، يؤكدون ، في وضح النهار ، انتسابهم للجماعات المتطرفة في الجزائر .

وهناك إلى جانب الطبقتين الكبيرتين من التجار والموظفين اليهود ، الكتلة الهامة ، المستعربة إلى أبعد مدى ، تتكلم الفرنسية بصعوبة ، وهي متموجة ، غير انها تعتبر نفسها بالتقاليد وأحياناً باللباس في عداد « السكان الاصليين » الاقحاح . هذه الكتلة تمثل ثلاثة أرباع السكان اليهود الجزائريين . فإن يهود هذه الكتلة هم على الارض الجزائرية ضد يهود الجربا التونسيين أو يهود الملاح [1] المراكشيين . فليست هناك بالنسبة لهؤلاء اليهود قضية تطرح نفسها : انهم جزائريون .

وهكذا يرى الانسان اذن بأن الجزء الملتزم بفعالية في صفوف المؤمنين بالنظام الاستعماري من الاقلية اليهودية هو ، نسبياً ، قليل الاهمية . ولنتطرق الآن الى حالة اليهود الجزائريين الذين يشاركون في كفاح التحرير الوطني .

عندما قررت السلطات الفرنسية تنفيذ بدعة الميليشيا المدنية والريفية رغب المواطنون اليهود في أن يتبينوا أي المواقف يتبنون ازاء هذه التعبئة ولم يتردد بعضهم في أن يعرضوا على جبهة التحرير الوطنية ، عدم انطباعهم لأمر الالتحاق!

---

١ – حيان يسكنهما اليهود في مدن مراكش .

والانضمام الى أقرب مقاومة سرية. غير أن الجبهة كانت تنصح ، عموماً بالحذر، وتكتفي بالطلب من هؤلاء اليهود بأن « يكونوا عيون وآذان الثورة » في قلب جهاز العدو ، في نطاق مهنتهم .

ان وجودهم في وسط الميليشيا يقدم كذلك خدمات للكفاح . وعلى هـذا النحو فإن الاعضاء في دورية ما يستطيعون اخطار المسؤولين بأهمية الوحدات وبتسلحها والطريق الذي يجب أن تسلكه وساعات تجوالها . كما ان المسؤولين كثيراً ما يطلعون على عمليات القمع المنظمة ضد هذا الدوار أو ذاك .

وهكذا ما هي الا بضعة ايام حتى يصبح الاوروبي في الجزائر الذي يشارك مشاركة فعالة مع وحدته في تقتيل المدنيين الجزائريين ، هدفاً للاغتيال من جانب الفدائيين .

ويبدو الاغتيال في نظر المستوطنين الاوروبيين الذين يجهلون الوقائع التي قضت على الخلية التابعة لجبهة التحرير الوطنية باتخاذ القرار فيه ، كأنه غير عادل ولا مبرر له ولكن سبب هـذا الاغتيال بالنسبة لمختلف اعضاء الميليشيا الذين ما تزال اصوات صراخ القتلى في الدوار تدوي في ذاكرتهم مختلطة بصراخ النساء المنتهك عرضهن وتظهر بداهة العدالة الشعبية في صلابة خاصة . ويستطيع المراقب المطلع على تفاصيل الحوادث ان يلاحظ عندئذ عدداً من أعضاء الميليشيا الموظفين يطلبون نقلهم أو بمعنى أدق يطلبون اللجوء الى مدينة الجزائر في الايام التي تعقب الاغتيال .

ويشارك اليهود في مرات أخرى مشاركة مادية في الكفاح فيؤدون كل شهر كأفراد مشتركين ، على النحو المتبع ، المبلغ المفروض .

فمن المستحسن أن يعلم الفرنسيون هـذه الامور ، أن السلطات الفرنسية نفسها لا تجهلها . ومن المستحسن أن يعلم اليهود هذا أيضاً .

ان الشعب الجزائري ، في الحقيقة ، لم ينتظر حتى عام ١٩٥٩ لكي يحدد

موقفه من اليهود . فهذا هو مقطع من النداء الموجه على شكل منشور إلى يهود الجزائر في أحلك أيام الثورة أعني في خريف عام ١٩٥٦ :

« يعتبر الشعب الجزائري أن من واجبه اليوم التوجه مباشرة إلى الجماعة اليهودية طالباً اليها بأن تؤكد بطريقة علنية انتسابها للأمة الجزائرية . فان هذا الاختيار المؤكد بوضوح يبدد جميع سوء التفاهم وسوف يقتلع جذور الضغينة المبذورة من قبل النظام الاستعماري الفرنسي » .

وكانت جبهة التحرير قد صرحت من قبل في النشرة الصادرة في آب (اغسطس) عام ١٩٥٦ فيما يتعلق بالأقلية اليهودية : « ان الجزائريين من ذوي الأصول اليهودية لم يتغلبوا بعد على بلبلة شعورهم ولم يختاروا الجانب الذي يتجهون اليه .

« ولنأمل في أن يتبع أكبر عدد منهم طريق أولئك الذين استجابوا لنداء الوطن الشريف فمنحوا ودهم للثورة ، وهم يطالبون فخورين بجنسيتهم الجزائرية » .

وقد اظهر المثقفون اليهود ، بطريقة عفوية ، سواء كانوا أعضاء في الاحزاب الديمقراطية التي تقف ضد الاستعمار تقليدياً أم كانوا في زمرة الجماعات الليبرالية مساندتهم للقضية الجزائرية . والمحامون والاطباء اليهود الذين يشتركون في مصير ملايين الجزائريين في معسكرات اعتقالهم أو في السجون ، ما زالوا حتى اليوم أيضاً يشهدون على حقيقة الأمة الجزائرية المتعددة الأجناس . كما ظهرت مواقف رسمية كذلك بين المستوطنين اليهود في مدينة الجزائر .

وفي آب (اغسطس) من عام ١٩٥٦ كان فريق من يهود قسطنطينة يكتب قائلا : « كان الانقسام وسيبقى ما بين يهود ومسلمين مناورة من أكثر مناورات الاستعمار إساءة في الجزائر ... فإن اليهود موجودون في الجزائر منذ أكثر من ألفي عام . وهم يشكلون اذن جزءاً متمماً من الشعب الجزائري ... فليس

على اليهود والمسلمين وهم أبناء أرض واحدة ، أن يقعوا في مصيدة الاستفزاز .
بل على العكس يجب عليهم أن يشكلوا جبهة واحدة في وجهه. ويجب ألا ندعهم يخدعوننا ، أولئك الذين كانوا ، ليس منذ زمن بعيد ، يتجهون بكل طاقة الى محق اليهود عن بكرة أبيهم كمرحلة نافعة لتطور الانسانية » .

وفي كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٥٧ كان أحد اتحادات اليهود في الجزائر يكتب ما يلي استجابة لنداء الجبهة : « ما يزال الوقت أمامنا اليوم لنعود الى المجموعة الجزائرية . فإن التعلق بصفة المواطن الفرنسي الواهية سوف يصبح خديعة عندما تتكون بخطوات واسعة الأمة الجزائرية الحديثة ، الفتية ، والقوية ... فبعضهم قد بذل حياته وتحمل آخرون بشجاعة ظلم ذوي القربى من رجال البوليس الأشد دنساً. واليوم تغلق عليهم أبواب السجون ومعسكرات الاعتقال . ونعلم أيضاً أن مسلمين ويهوداً قد تكشفوا في الكفاح المشترك عن أخوة في العرق وانهم يحسون بتعلق عميق ونهائي بالوطن الجزائري . واننا اذ نصرح بتعلقنا بالأمة الجزائرية نعمل على ابطال الحجة التي يستخدمها المستعمرون ألا وهي العمل على اقناع الشعب الفرنسي بأن هذا التمرد الذي يجري هنا ليس الا بفعل تعصب نابع من القرون الوسطى ، وذلك لكي يطيلوا من سيطرتهم ... » .

المعمرون في الجزائر

هناك أسطورة أخرى يجب هدمها الا وهي أسطورة المعمرين في الجزائر الذين يقدمون في صورة لا مبالية ، كأنهم معارضون لنهاية السيطرة الاستعمارية .

وفي ذلك أيضاً يجب أن يعلم النظام الاستعماري الفرنسي بأن أهم أنواع

الدعم المقدم من الاوروبيين في الجزائر لكفاح الشعب كان وسيبقى دعم المعمرين. وليس هناك من لم يأخذه العجب حتى الجزائريين أنفسهم من تواتر استجابة المعمرين لتحريضات جبهة التحرير الوطنية . وعلى كل حال فلم يحدث أبداً أن قام أحد المعمرين الذين تم الاتصال بهم ، باخطار السلطات الفرنسية . فقد حصل أن رفض المعمرون ولكن السر كان يظل مصوناً دوماً .

ففي الأرياف أصيب صغار المعمرين والمزارعون والوكلاء على التوالي بالاضرار منذ الشهور الاولى في عام ١٩٥٥ . وقد عمل بالطبع ، بصورة منظمة على تجنب مشاهد المتطرفين . وبصورة عامة ولا سيما في التجمعات الصغيرة والمتوسطة فان الناس يعرفون بعضهم بعضاً والجزائري من جهته قد وضع ، طيلة عمره ، لكل اوروبي، بطاقة . لذلك كان الأعضاء ، عندما تقرر خلية من خلايا جبهة التحرير الوطنية الاتصال بالاوروبيين في المنطقة يعرفون مباشرة اولئك الذين يجب بصورة آلية استبعادهم من الاستشارة .

وهم يعرفون ايضاً وان كان بتيقن أقل أولئك الذين سوف يقدمون معونتهم للثورة .

كان عضو واحد فقط من الخلية يكلف في أغلب الأحيان، ولا سيما في المراكز الريفية الصغيرة ، بالصلات مع الاوروبيين . ويمكن بسهولة تصور الاحتراس الذي يجب التحلي به في شهور الكفاح الاولى من أجل منع المبادهات الخاطئة من قبل مناضلين لم ينتظموا بعد جيداً في كادراتهم . فقد رأينا في الواقع أنه كان ينظر في اطار الوضع الاستعماري ، الى الاقلية الاوروبية ككل . ففي الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ كان يوجد اذن تبسيط بالغ . واذا بالعالم فجأة يتهم بشدة حثالاتها والتناقض بين شريعتها .

والمعمر الذي يمد يد العون للثورة ، يمكن استدراجه علناً في المقهى أو في أية محادثة لكي يظهر تماماً للأوروبيين الآخرين تضامنه ولكي يردد كالصدى أقوال المستعمرين ... « القوة وحدها هي التي تنفع معهم ... انهم جميعاً في

ساحة المرمى ... » الخ غير أن الأنتينات [1] Antennes التي يملكها الشعب في مكان تنقل اليه هذه الأقوال . فاذا ببديهية جديدة تتجسم في القرية ... واذا بهذا المعمر يُعيّن بالاجماع هدفاً لنيران الفدائيين . فيجب التدخل اذن بمرونة ومنع أية حركة عدائية موجهة ضد شخصية هذا المعمر أو املاكه وعدم افساح المجال ، في الوقت نفسه للتخمين في اسباب هذه الموانع .

ويمكن ان يكون القرار صادراً ، أحياناً ، باحراق بعض العرمات الخاصة بأحد المعمرين . وهو في جهة أخرى يقيم في منطقة مشتطها جبهـــة التحرير الوطنية الا أنه نجا من الاصابة بأي ضرر بصورة تدعو الى الاستغراب. وهكذا يبلغ الأمر بالاوروبيين الاستعماريين ممن أضيروا باعمال جبهة التحرير الوطنية في الواقع الى التساؤل عن بواعث هذا الاحترام غير المألوف مـــن الجبهة لأراضي ذلك المعمر . ولنذكر ايضاً ذلك البرهان الذي نملكه في هذا الموضوع وهوقيام الاوروبيين في بعض التجمعات باشعال الحرائق في املاك جارهم المعمر أو بتقتيل ما يملكه من الانعام بالجملة حسداً منهم على الحماية التي يتمتع بها بالنظر للغارات التي تكاد تشنها يومياً على ممتلكاتهم وحدات جيش التحرير الوطني .

وابتداء من عام ١٩٥٥ غدت مزارع عديدة يمتلكها معمرون اوروبيون تستعمل على التوالي مقراً للمرضى وملاجىء ومرابط للخيل . وعندما جرت العصابات الفرنسية ، أثناء غاراتها على عادة اتلاف مدخرات السكان الجزائريين من الحبوب ، على نحو منتظم فان جيش التحرير قرر تخزين مؤنه في مزارع الاوروبيين .

---

١ – يشبه الكاتب العيون التي ترصد حركات العدو والآذان التي تلتقط أقواله لحساب قضية الشعب التي يدور الكفاح حولها كأنتينات الراديو اللاقطة وقد آثرت إبقاء عبارة آنتين الأجنبية على عيون الثورة أو آذانها في هذا المكان لان هذه الاخيرة قد تحمل معنى التكليف.

– المترجم –

وهكذا فان عدداً من الاستثمارات الزراعية ، تعود لأوروبيين أخـــذت تتحول الى أهراء حقيقية لجيش التحرير الوطني، وأصبح يمكن اذا ما حل المساء رؤية فصائل من وحدات جيش التحرير الوطني تنحدر من الجبال لتتسلم اكياساً من القمح والدقيق .

وفي مرات أخرى ، فان الأسلحة هي التي تودع في المزارع . وهـــذه هي المرحلة التي كانت تحصل فيها في المنطقة اجتماعات تضم أشخاصاً من خارجهـا ، فتجري في حرم احدى مزارع الاوروبيين حيث يتم تسليم الأسلحة في ظـل حماية المعمر الاوروبي المقدسة .

كذلك كان يحدث أن يتقبل معمرون أسلحة تقدم اليهم من الجيش الفرنسي – تحت ستار حماية النفس – ثم يتخلون لجيش التحرير الوطني عن الاسلحة التي كانوا يملكونها قبل ذلك .

واخيراً من الثابت أن عدداً كبيراً من المزارعين الاوروبيين ، كانوا منـذ بداية الثورة يساعدون الثورة الجزائرية مالياً .

يكفي ذكر عشرات المعمرين الاوروبيين الموقوفين بتجارة الاسلحة أونقل الاسلحة أو بالمساندة المادية « للعصيان » ، لتبيان أهمية تلك المساهمة الاوروبية في كفاح التحرير الوطني . وقد جرت السلطات الفرنسية ، عندما تكتشف هذا الالتزام من جانب الاوروبيين للجبهة ، على عادة السكوت عنه أو اضفاء ثوب الشيوعية على هؤلاء الاوروبيين . وهذه المكيدة في الدعايـــة تستهدف امرين :

أولاً : اعادة البحث في نظرية تسرب الشيوعية الى افريقيا الشمالية في جهـــاز منظمة حلف شمال الاطلنطي O . T . A . N . في قلب الحضارة الغربية ...

وبعد ذلك الانقاص من نفوذ هؤلاء الرجال وإبرازهم « كعملاء للأجنبي » ، وانهم بالتالي اجراء يبتغون الربح . فان النظرية الاستعمارية الفرنسية ترفض في الواقع ، الاقرار بان اوروبياً حسن التكوين يستطيع فعلاً أن يقاتل الى جانب الشعب الجزائري .

وثمة مزارعون أوروبيون ، من دون أن ينتظموا في المعركة ، يساعدون الجبهة وهم يرفضون مثلاً الحماية التي يعرضها عليهم الجيش الفرنسي . وتكون ردودهم بالرفض هامة في بعض المرات ، اذ ان هذه المزارع الواقعة في منطقة ستراتيجية رئيسية (كطريق مرور بين جبلين ، أو بمحاذاة الحدود) فان عدم وجود مراكز للقوى المستعمرة فيها يسهل على جيش التحرير الوطني حركة وحداته أو تموين المجاهدين . ويحدث احياناً ان يقرر الجيش الفرنسي ، في اطار مراقبة قطاع من القطاعات ، التمركز في مزرعة من المزارع على الرغم من معارضة المعمر . وعندئذ فانه لم يكن ليفوت المالك أبداً اخطار الجبهة بأن هذا التمركز العسكري يجري بدون موافقته ، وانه لم يطلب من أحد أن يقوم بحمايته .

ومن جهة أخرى يبذل هذا المعمر الذي نعنيه كافة الجهود ليجعل حياة الجنود الفرنسيين مستحيلة ، كما يعمل على كل حال على تزويد المسؤولين المحليين عن جبهة التحرير الوطنية بمعلومات دقيقة عن أهمية الوحدة المستقرة في المزرعة وعن روحها المعنوية .

الاوروبيون في المدن

ينصرف أوروبيو الجزائر ، في التجمعات المدينية الى العمل ، أساساً في صميم الخلايا السياسية . ولقد رأينا ، نتيجة الاجراءات المتخذة من قبل الوزيرين

الفرنسيين سوستيل ولاكوست في تطبيق الحجر الجـذري على المستحضرات الصيدلية والأدوات الجراحية وأشرنا أيضاً الى ان التعليمات الموجهة الى الأطباء كانت تلزمهم بالوشاية الى سلطات البوليس بكل جريح مشتبه به .

وهكذا كان بعض الأطباء والصيادلة الاوروبيين يجرون عندئذ على عـادة العناية بجرحى جيش التحرير الوطني دون تمييز على حين كان آخرون يتسلمون كميات من الأدوية المضادة للالتهابات ومن كميات الاتير التي يحتاجها مناضلو جبهة التحرير الوطنية فكانت مئات الملايين من وحدات البنسلين تذهب سائرة باتجاه مراكز المقاومة السرية .

وكان اطباء آخرون يذهبون بالالتزام الى أبعد من ذلك . فيقبلون ، دون تخفي الانتقال الى الجبال المجاورة لعلاج الجرحى . وبالنظر لجسامـة الجرح أو خطورته فإن الطبيب كان في بعض المرات يحمل المجاهد في عربته ويأخذه الى عيادة صديق حيث يجري علاجه لمدة اسبوع أو اسبوعين . وقد توصل رجال البوليس الفرنسيون الى معرفة هذه الامور بسبب ما يجري من التفتيش المنتظم لبعض العيادات ابتداء من تاريخ معين .

ولسوف يعمـل الممرضون والممرضات الاوروبيون ، مـن جانبهم ، في المستشفيات على سرقـة أدوات جراحيـة وكميات من السلفاميد ومـن الضمادات ...

كذلك كان يحدث في مرات أخرى اثر عملية جراحية يقوم بها طبيب فرنسي لسجين جريح ، أن يكشف هذا وهو ما يزال تحت تأثير المخدر في مرحلة اليقظة ، بعض الاسرار فكانت الممرضة عندئذ تنصحه عندما يصبح في حـالة اليقظة التامة ببذل مزيد من الانتباه وتروي له ما باح به . وربما كان يحدث ذلك ، على العكس ، في الغرفة بحضور الطبيب المناوب فيهتف في الحال لرجال الشرطة واذا بهم عندئذ ولمّا تمض بعـد ساعتان على اجراء عملية خطيرة يباشرون بجلسات تعذيب حقيقية له .

كما كان اطباء أوروبيين كذلك يقومون بتنظيم دروس سرية بقصد تخريج ممرضين عسكريين لجيش التحرير الوطني . وهكذا تتخرج من هـــذه المدارس أفواج عديدة من المساعدين الطبيين ، تنضم الى تلك الافواج التي يتم اعدادها في مراكز مماثلة تدار من قبل أطباء جزائريين .

وهناك فتيات اوروبيات يضعن انفسهن تحت تصرف خلية سياسية ويحصلن لها على الورق والرونيو ويأخذن احياناً على عاتقهن طباعـــة المناشير لحساب جبهة التحرير الوطنية ويقوم بعض الشباب بنقل اعضاء الشبكة في سياراتهم . وتأخذ بعض الاسر الاوروبية على عاتقها مسؤولين سياسيين هامين فتيسر لهم في مناسبات عديدة النجاة من اعمـــال التطهير التي يقوم بها الجنرال ماسو . ويؤمن رجال سياسيون اوروبيون وموظفون يتمتعون بالسلطة لخلايا جبهة التحرير الوطنية جوازات سفر وهويات شخصية مزورة وبطاقات استخدام مزورة ...

وبفضل تطوع عدد متزايد من الاوروبيين في الجزائر ، استطاع التنظيم الثوري ايضاً فى بعض المدن الافلات من قبضة رجال البوليس والمظليين .

ومن المعروف ان اوروبيين عديدين كانوا قد اوقفوا وعذبوا بسبب ايوائهم مسؤولين سياسيين أو عسكريين من الثورة لتخليصهم من غوغاء المستعمرين .

ولا يكتفي الاوروبيون بنقل الادوية والرجال في سياراتهم. فانهم ينقلون أسلحة ايضاً . فيمكن هكذا للمسدسات سريعة الطلقات ولصناديق القنابل اليدوية أن تجتاز جميع الحواجز على اعتبار ان الاوروبيين لا يفتشون ابداً . حتى لقد حصل وفتشت بعض سيارات الاوروبيين فكان الواحد منهم تجنباً لإثارة الشكوك حوله يبرر حيازته لهذه الاسلحة برغبته في الاستعداد : « لتمزيق احشاء العرب » وعندئذ تثير مثل هذا الموقف حماس « خدم النظام» المكلفين بمراقبة الطرق ، وكثيراً ما كان بائع الخمر في اقرب مكان ، يتقبل هذه «الاخوة » ضد السكان الاصليين .

والأمر الذي لم يكن متوقعاً أخيراً ، ولكنه تكرر مرات عديدة أن يقوم رجال البوليس بتزويد الخلية المحلية بالمعلومات عن العمليات المقبلة . ويقومون باخطار هذا الجزائري أو ذاك انه مراقب او انهم في اللحظة الحاسمة ينذرونه بأن سجيناً قد تكلم عنه أثناء التعذيب وأشار إلى انه المسؤول المحلي [1] .

وفيما عدا الاوروبيين الذين يوقفون ويعذبون أشنع تعذيب أحياناً من قبل الفرق الفرنسية بسبب « تواطئهم مع العدو » فانه يوجد في الجزائر على نحو واضح ، عدد كبير من الفرنسيين المنخرطين في كفاح التحرير . وقد دفع آخرون حياتهم ثمناً لإخلاصهم للقضية الوطنية الجزائرية . وهكذا فان الاستاذ المحامي توفيني Thuveny إذا ما أخذناه مثلاً على ذلك ، وهو محامٍ من وهران ، يناضل في صفوف جبهة التحرير الوطنية منذ زمن طويل ، قد قضي عليه بالموت إثر مؤامرة اغتيال نظمت في مراكش من قبل المكتب الثاني الفرنسي .

ملحق (١)

شهادة شارل جيروميني : طبيب امتياز ، سابقاً ، بمستشفى التحليل النفساني بسانت – آن بباريس .

« ليس في التجربة الشخصية التي أرويها – وهي يقظة الشعور الوطني الجزائري في انسان اوروبي من الجزائر – شيئاً من الغرابة . فقد سبقني الى ذلك آخرون ومع ذلك يبدو لي أنه من المفيد ان أوضح كيف اختار طلاب

---

١ – انظر الملحق .

وروبيون لا ماضٍ نضالي لهم ، منطلقين ببساطة من المجاهرة بأفكار تمت إلى اليسار ، أن يكونوا ، في النهاية ، جزائريين في هـــذه الحرب . حقيقة ، أن قليلين جداً منهم استمروا حتى نهاية الشوط من أفكارهم وانضموا إلى جبهة التحرير الوطنية · ويجب الا نكن لهم جفاء بسبب ذلك . فانني اعرف بالتجربة إلى اي حد يمكن ان يكون هذا الموقف الجذري مدعاة للتمزق. وأود الالحاح فقط على هذه الواقعة التي كثيراً ما اغفلت : فقد استيقظ في أثناء الثورة ضمير اوروبيين من الجزائر على انتسابهم للأمة الجزائرية . فاذا لم يكونوا يشكلون أكثرية فانهم مع ذلك اكثر عدداً مما نظن حالياً في الجزائر أو في العالم . انهم لا يستطيعون ان يفصحوا عن انفسهم وانا أتكلم هنا إلى حد ما باسمهم .

« كانت الثورة الجزائرية ، بانفجارها في الفاتح من نوفمبر عـــام ١٩٥٤ سائرة نحو كشف ما في نفوسنا من التباس بقسوة . كنا قد اتخذنا موقفاً الى جانب حق الشعب الفيتنامي والى جانب حق الشعب التونسي . وهي مواقف متخذة طوعياً . ذلك ان انعدام الحياة السياسية التام في جماعتنا لا يدع مجالاً للمواقف المحسوسة . أما ما يتعلق بحق الشعب الجزائري فلم يكن هو المقصود — وكنا نحتمي وراء موقف ملائم من السلبية السحرية للمشكلة وكان فصل الحياة السياسية الى مذهبين يدفعنا الى انتهاج هذا المسلك : فالقضايا الجزائرية تكون من اختصاص المذهب الاول، والقضايا الفرنسية تدخل في المذهب الثاني وهكذا كنا نناقش ونتخذ المواقف من لجنة الطلاب الديمقراطيين وحيال دور الحزب الشيوعي الفرنسي في البرلمـان . حتى القضايا الاستعمارية كانت تعالج وفقـاً لوجهة نظر فرنسية . ولإدراك سبب هذا الغياب في حب الاطلاع بازاء مسائل محتدمة في بلادنا يجب ان نبحث عن اصله في النزعة العنصرية اللاشعورية التي كنا جميعاً نحملها ، ملقحة بعشرين عاماً من الحياة الاستعمارية . وكما كنا مـــن اليسار فقد تغلبنا ، بلا شك على عنصرية النظام الاستعماري العدائية ، ولكننا لم نكن قد تخلصنا تماماً من روح النظام الأبوي ولم يكن العمل على ان نشعر بأننا ما نزال بعد عنصريين أقل ما منينا به من اضطرابات في اعماقنا .

« وكان الاستعماريون ، منذ البداية ، يهاجموننا ويطالبوننا بجدة بأن نختار إلى جانب « الفلاقــة »[1] أو ضدها ، وأن نكون بجانب فرنسا أو « ضد فرنسا » . وكان موقفنا ، بداية أيضاً موقفاً عجيباً . وتمنعاً منا من اتخاذ موقف من المسألة فاننا سارعنا واحتمينا خلف الاحتجاجات على الفظائع في أعمــال القمع . وتشكلت لجنة من الطلاب مــن أجل الدفاع عن الحريات . وقررت الاشتراك فيها . وفي وسط هذه اللحنة تمكنت لأول مرة من التوصل إلى إجراء مناقشات مع جزائريين . ولم أكن حتى ذلك الحين قد حظيت أبداً بقول هــذه الأحاديث مع أفضل أصدقائي من المسلمين . وكان يبدو ان اتفاقاً حتمياً قد أبرم فكنا نقر باحاسيس وطنية لأصدقائنا المسلمين ولكننا لم نكن ننوه بها أبداً حتى لا تنفصم تلك الروابط الواهية من الصداقة التي نظنها بيننا . وكانت الصلات في هذه اللجنة بين المسلمين وبيننا مبهمة إلى حد ما . فقد كانوا يريدون إعطاءها بعداً سياسياً وكنا ننوي البقاء على الصعيد الخيري . وبعد ان صوتنا على بعض اقتراحات غامضة تدين أعمال القمع عرض علينا عمل محــدد . يتعلق بطالب موقوف في باريس ثم نقل إلى تيزى – اوزو . كانت اضبارته خالية مما يدينـه فتقررذهاب وفد يحمل اليه طرداً من مجموعة احتياجات ويقدم كتاب احتجاج الى النائب العام .

---

١ – فلاقة « Les fellagha » تعبير جزائري محلي لوصف قاطع الطرق،الغوغائي... الخ . وتنفيراً للجزائريين من رجال الثورة والمقاتلين أطلقت أبواق الدعاية الفرنسية على رجال المقاومة صفة الفلاقة . ويوضح هذا المعنى شاعر الثورة مفدي زكريا :

هذه دمانا الغالية دفاقة
وللجهاد أرواحنا مشتاقة
وفي الجبال أحلامنا خفاقة
جيش التحرير احنا ما ناش فلاقة
اي نحن لسنا فلاقــة

– المترجم –

« وتطوعت بالذهاب ، وباعتبار « ان التمثيل الثنائي ، في التعليم الثانوي » كان متبعاً بدقة فان الوفد كان يضم ثلاثاً من المسلمين وثلاثاً من الاوروبيين واثنين من اليهود وانا . وكشف الحديث طوال الطريق عن كثير من النقاط المشتركة بين رفاقنا المسلمين وبيننا : حب مشترك لبلادنا ، ارادة متماثلة في تطويرها وفي اغنائها ورغبة موحدة في رؤيتها وهي تتخلص من أية عنصرية ومن أي نظام استعماري. الا اننا كنا نتباعد فيما يتعلق بال «تمرد» . أما بالنسبة لي فكنت اعتبره امراً يمكن فهمه ، وكأنه شطط جعلته ممكناً اعمال الاستعمار المتطرفة ، ولكنني كنت ارفض اعطاء العنف أية قيمة . ولم يكن رفاقنا المسلمون على وفاق معنا حول هذه النقطة وجرت بيننا مناقشة طويلة في هذا الموضوع وقداستصوبوا تماماً المجاهرة بعقيدة وطنية ذات أسلوب حماسي وهيامي بسطها لنا ت ... اليهودي على مائدة الطعام . وهزني كثيراً ذلك الايمان . ولا شك ان هذا هو ما كان يجب لي لحملي على التفكير بالانتساب للأمة الجزائرية . فقد كان لا يزال عالقاً بي في اللاشعور كثير من العنصرية ضد العرب بحيث يتعذر علي الاقتناع برأي جزائري مسلم ، وكانت خطة هذا اليهودي هي ما يلزمني لكي يتزعزع موقفي .

« واستطعنا بشق النفس ، في تيزي – اوزو ، ان نرى محامي زميلنا . وجرى استدعاؤنا بعد ذلك من قبل البوليس . فاستجوب كل واحد منا على انفراد . وفي لحظة ما أبصرنا زميلاً مسلماً يخرج من دائرة الاستجواب مصفر اللون جداً ، مستنداً الى جنديين . واعتقدنا في البداية انه اهين . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . غير انه ببساطة قد هدد بانزال القصاص بأسرته لأن اخاه في صفوف المقاومين وهو مطلوب من البوليس . كان يدعى بن مهيدي وكان اخوه لاردى بن مهيدي [1] قائد الولاية السادسة عضواً في مجلس التنسيق

١ – مما يروى عن هذا القائد قوله للفرنسيين وهو على حافة الموت : انتم الماضي ونحن =

والتنفيذ ، ومن ثم فقد اوقف وقتل من قبل الفرق الفرنسية . وكنت آخر من استجوب . وشرع قائد الشرطة يقدم الي النصائح الأخلاقية : « انك الفرنسي الوحيد في العصابة ... » فقاطعته مذكراً اياه بأقوال الحكومة : « الجزائر ، انها فرنسا ، والجزائريون هم فرنسيون – انت من فرنسا بكل تأكيد ! –كلا! انني ولدت في الجزائر – آه ! انك لا تعرف اذن العرب الحقيقيين في الريف.– لقد سكنت ثمان سنوات في اورليان – فيل . – اسمع ، انك فتى ، فقد مكنتهم من اشراكك معهم ولسوف تدرك فيما بعد » .

ولم يطلق سراحنا الا حوالي الساعة العشرين بعد ان مررونا بادارة قياس الاجسام ، واحتجاجاً على هذا الانتهاك للحريات نظمت لجنتنا تظاهرة عامة تجري في صالة صغيرة . واجتمع ثلاثمائة طالب كلهم من الاوروبيين تقريباً برئاسة استاذين من الكلية . وجرى التصويت على نص يشجب تعديات القمع ويطالب باعادة الحريات الديمقراطية .

« وكنت بعد ايام امثل مع هـ... لجنتنا في اجتماع تحضيري لاجتماع سياسي أكبر للقيام بالاحتجاج . ولأول مرة وجدت نفسي على اتصال بمسؤولين سياسيين مسلمين . كانوا مستشارين قضائيين في حركة انتصار الحريات الديمقراطية . وقد تأثرت بوعيهم واعتدالهم . وفي الاجتماع الاول جرت مناقشات حول تحديد يوم ٨ مايو الذي اختير للاجتماع السياسي . وعلى الرغم من ان اختيار هذا التاريخ قد تم فقط لأسباب عملية فقد كان بعض الاوروبيين في لجنة التنظيم يرون ان في اختيار يوم هذه الذكرى ملامح واعية من التحدي . فقبل الاعضاء المنتخبون من حركة انتصار الحريات الديمقراطية تغيير التاريخ . ولكن هـ.. اعترض بعنف . فانهم لم يطلبوا بان يجري الاجتماع في ٨ مايو ، ولكن ما دام

= المستقبل . وكان بعض الفرنسيين يصرخون : اعدموه .. اعدموه .. انه خطر على فرنسا . سوف يستعبدها بروحه الثورية .

– المترجم –

بعضهم كان يبدي تعليق أهمية على هذه الذكرى فانه بدوره يعلق اهمية أكبر. «٨ مايو هو يوم حداد بالنسبة لنا نحن الجزائريين، والتظاهر في ٨ مايو يعني القول للاستعماريين بأننا لم ننس واننا سوف لن ننسى ابداً» . وقد صدمت هذه الاقوال الاوروبيين قليلاً وتركت بعض الاستياء . ذلك ان الاوروبيين مرة اخرى يرفضون مواجهة الحقيقة السياسية ويريدون الاكتفاء بالبقاء في الاطار المحدد للشرعية الجمهورية وفي النهاية منع الاجتماع .

« ثم جاء وقت التحضير للامتحانات في الترم الثالث. وتناقصت فعالية الدفاع عن الحريات الديموقراطية. وكنت اتابع اجراء مناقشات مع اصدقاء مسلمين. وشيئاً فشيئاً اخذت افهم معنى الكفاح المسلح وضرورته . ولكنني كنت اعبر عن شكوكي في قيمة العمل المسلح الجاري . وبما انه لم يكن امامنا إلا الصحافة المحلية مصدراً لمعلوماتنا فقد كنا يومياً خاضعين لتأثير الدعاية الاستعمارية في تصويرها لاعمال « الفلاقة » المتطرفين وعصابة قطاع الطرق . وكنا نتقبل جزئياً تلك الامور المطروحة الا انفظائع اعمال القمع، والحق يقال، كانت تتعادل تماماً مع « فظائع » المقاومين الفلاقة ، وكنا نبحث ما بين الاثنين عن قوة ثالثة . وكنت افكر في ذلك الزمن ان هـذا كان ممكناً وانه كان يجب العثور في الجزائر على رأي عام حر ، قادر على ان ينضم الى الرأي العـام الحر الفرنسي وان يفرض حلاً مبنيـاً على الاعتراف بحق الشعب في تقرير مصيره بنفسه . وكانت المناقشات ، الآخـذة بالتناقص والتي كنت اجريهـا مع افراد اسرتي أو مع اصدقائي التقليديين ، تثبط همـتي . وبتأثير الحوادث كانت احاسيسي بالعنصرية قد تبلورت. وكان من المستحيل الحصول من المتحدثين معي على موقـف من التفكير خـال من الهوى وعلى اقتراب فكري من المسألة . وسرعان ما كانت سلسلة مملّة من الشتائم تحل محل الحجج: « خائن ، قـذر، شيوعي ، ضـد الفرنسيين ، صديق للعرب » وبخاصة الشتيمة الكبرى «منديست» (فلم ار قط رجلاً مكروهاً كمنديس فرانس لأنه اراد اعطاء الجزائر

للعرب) . غير انه كان من السهل استشفاف وجود اضطراب عميق وراء هـذا الوابل من الأقوال العنصرية : الخوف من الطرد من البلاد . « فماذا سيحل بنا ؟» كانت هذه الجملة تتردد غالباً عندما كانت « الاحداث » تتوارد الى الذهن . كانوا ، وقد تصلبوا في دائرة قلقهم ، عاجزين عن تصور أي حل غير الأبقاء على الوضع الراهن Statu quo . فالقدرة على البقاء في الجزائر هي في الحقيقة الشغل الرئيسي الشاغل لفرنسيي الجزائر . والانصراف ، الانصراف ، أنى كان ، الى فرنسا ، كندا ، برازيل (كما كان بعضهم يتطلع الى ذلك) انما هو بالنسبة لنا نزوح عن ديارنا . ولم اكن اتوصل الى تهدئة من يحادثني إلا عندما كنت اصرح لهم بمقاسمتي مخاوفهم . ولقد كنت ميالاً للمفاوضة من أجل البقاء بالذات في الجزائر . كنت اقول « فلنوافق مرة واحدة على ان الجزائر ليست هي فرنسا ! ولنعترف بذلك علناً ما دمنا جميعاً نفكر به . انكم تعترفون بأن اخطاء سياسية قـد وقعت في الماضي ومفاسد اجتماعية ، في الجزائر فلنعترف بذلك ونناقش مع الجزائريين شكل الوضع المقبل » . كان يصغي الي اصغاءاً ممزوجاً بالشفقة الواجبة ازاء من فقـد عقله . فالتفكير في امكان التفاهم مع عرب ...

« مناقشات اثر مناقشات وقراءات تلو قراءات ثم بـدأت أرى بوضوح . فالقتال لجعل القمـع صيغة انسانية لم يكن يفيد شيئاً ! . . كان يجب أن نقاتل لنفرض حلاً سياسياً . ولكن ، أي حل ؟ واتضح لي بسرعة انه لكي ندفـع برعماً من الثورة الاجتماعية الى الحياة في الجزائر يجب قطع الصلات الاستعمارية مع فرنسا . فالجزائر تجد نفسها مضطرة لتحيا ، ان تضع الثورة موضع التنفيذ وهذه الثورة تمر بالاستقلال . وهكذا فانني كنت التقي بالمثل الاعلى « للفلاقة » ! من جهة حب البلاد ، الارادة الكلفة بالعيش في ربوعها ، ومن جهة أخرى مثلي الأعلى الثوري أو ببساطة اكثر مثلي الأعلى اليساري ، فكل ذلك كان يقودني نحو هدف الوطنيين المسلمين نفسه . بيد انني كنت واعياً جداً للطريق المختلف

الذي كان يؤدي بنا معاً الى المطلب ذاته . وكنت أقول : « الاستقلال ، أجل .. ولكن أي استقلال ؟ فهل يجب علينا أن نقتل لكي نساعد على تكوين دولة مسلمة ثيوقراطية ، متعصبة ضد الاجنبي ، واقطاعية ؟ فمن ذا الذي يزعم انه سوف يكون لنا مكاننا في هذه الجزائر ؟ »

« وكنا في يوليو من عام ١٩٥٥ ولم أكن حتى ذلك اليوم ابداً قد قرأت منشوراً واحداً بارزاً ... ممن مع ذلك ؟ كان الكلام حول جبهة التحرير الوطنية وعن الحركة الوطنية الجزائرية وسراح الموجهين في حركة انتصار الحريات الديموقراطية السابقة ، كان قد اطلق بعد الاقتناع في عدم مساهمتهم في العمل وهم الذين اوقفوا في الفاتح من نوفمبر . فمن كان على رأس الثورة ؟ وفيما عدا الاستقلال فأي الاهداف كانت اهداف الثائرين ، أدولة ثيوقراطية ، تقدمية أم ديموقراطية ؟ وكان ت ... يجيبني بان ذلك كان ولا شك أمراً هاماً إلا أن الأمر منوط بالشعب الجزائري لان يقرر بنفسه في نهاية الأمر ، وانه يجب أن نكون مع الشعب وانها هذه هي الوسيلة الوحيدة لتعديل الثورة الوطنية إلى ثورة اجتماعية . وكان ت ... وهو عضو في الحزب الشيوعي الجزائري يأسف الا تكون هذه الموضوعات مقبولة في الحزب الذي كان يختبىء رغم اسفه الكبير ، وراء سياسة الترقب الانتهازية المجرمة . ولقيت ت ... كثيراً في صيف ١٩٥٥ وانتهينا بسرعة الى اتفاق على عمل ندعو اليه في الوسط الطلابي . وبدا لنا ، عند افتتاح المدارس انه من المهم بلورة الرأي العام الطلابي الحر وتهيئته ، عن طريق جهد اعلامي ، لتقبل فكرة الاستقلال ، ولاعتبارنا متكاملين في الامة الجزائرية . وفي هذه الحقبة علمت بمنشورات جبهة التحرير الاولى . وكان قد سبق لي أن تلقيت شرحاً لصفتها الديموقراطية بدءا من انشقاقها عن حركة انتصار الحريات السياسية .

« ويجب علي الاعتراف بأن هذه النشرات قد بعثت في راحة : فالجزائر المقبلة الديموقراطية والاشتراكية التي تنبىء عنها تلك النشرات هي قضية ومن اجل

هذه القضية يمكن الاقتتال . ووقعت عندئذ حوادث فيليب – فيل في ٢٠ آب (اغسطس) . فقد علقت عليها اهمية كبيرة واستنكرتها بعزم ولكنها لم تكن سبباً في تحويل ارادتي لمساعدة الثورة .

« ان انحلال الحزب الشيوعي الجزائري والتقييدات المتزايدة دائماً للحريات العامة واستثارات الاوربيين المتكاثرة وصعود مد الفاشستية التي كنا نتابعها لدى رفاقنا الطلاب .. كانت كلها تؤيدنا في فكرتنا . كان يجب خلق قوة من اليسار صلبة في الكلية ؛ قادرة على معارضة الموجة الفاشستية بنجاح وخلق بيان اعلامي لجعل الطلاب الاوربيين يتحسسون اولاً ومن ثم التوجه الى قسم من الجماعة بعد ذلك . ومهما كان هذا البرنامج طموحاً فانه لم يكن بلا فائدة . والاهمية التي اتخذها لذلك الطلبة الفاشست في ٦ شباط (فبراير) وفي ١٣ ايار (مايو) توضح ذلك جيداً . ثم تكشف للاسف عن انه غير قابل للتحقيق.

« وقد جرت اتصالات ، في اطار هذا العمل ، بمختلف اتجاهات الطلاب . وسألني... عما اذا كنت اوافق على لقاء طلاب وطنيين «من اتجاه جبهة التحرير الوطنية » فقبلت بالطبع بداهة . وذات يوم لقينا في مستشفى الخطار طالباً في الطب هو لامين خان [1] وكانت المقابلة ودية جداً . اما فيما يتعلق بالنتائج فقد كان خان مرتاباً ولكنه قبل بالاشتراك في اللقاءات الاولى. وبعد ذلك قابلت طلاباً تجمعوا تحت اسم متواضع « تقدميون ومندوزيون » وكان س ... وهو واحد من اكثر البارزين فيهم لا يخفي ارتيابه ويرفض الاشتراك منتحلا شتى الاعذار وتبين لنا بسرعة ، لي أنا ول ت ... ان ثمة شيئاً آخر كان يشغل س ... غير اللعب مع الطلبة ، يجب عليه القيام به .

« ولم يصدر عن زمرتنا ، بعد اجتماعين أو ثلاثة سوى بعض مقترحات لم

---

١ – Lamine Khéne وزير دولة في حكومة الجمهورية الجزائرية المؤقتة .

نستطع التوصل الى ترويجها ولا الى اظهارها في الصحف . وبسرعة تبدد الأمل في خلق اي بيان وفي بث افكارنا بين الطلاب . وتقررت عندئـذ العودة الى تبديل عملنا . وتم تشكيل فريق من الطلاب للاشتغال في بعض المسائـل من المستوى الاقتصادي : واذا كنا نريد لأنفسنا ان نكون جزائريين فقد بدا لنا جميعاً جلياً ان واجبنا هو اما الالتحاق بالمقاومة واما اعداد انفسنا اعـداداً جدياً لنكون الكوادر المقبلة للبلاد ... واذا كانت صفاتنا كمقاتلين اكثر من موضع شك . وبما اننا لم نطلب ابطالاً فان الحكمة قد تغلبت بدون جهد غير اننا كنا مستعدين لمساعدة الجبهة اذا ما طلبت منا ذلك .

« بيد ان الجو في مدينـة الجزائر كان آخـذاً بالاكفهرار . فان استقلال مراكش وحل الجمعية الوطنية قـد عملا على خلق هيجان مضى يتزايد حتى السادس من شباط (فبراير) وكنا نزداد شهرة ويحدث لنـا أن نشتم ونحن سائرون في الشارع من قبـل اناس لا نعرفهم . وبالمقابل كان عدد الطلاب « الاحرار » الذين يفدون الينا في تكاثر طالبـين منا شروحاً ، مستعلمين عن الثورة، قلقين،على مستقبل البلاد ،طالبين الاتصال بطلبة مسلمين. وكلنا نقيم مع هؤلاء الآخرين ومع اتحاد عام الطلاب المسلمين الجزائريين علاقـات لا يشوبها الحذر ولا الغموض . كانوا يعتبروننـا جزائريين فان الاعمال المشتركة ، وحتى الطفيفة جداً ، مثل الطباعة الرونيوتر ،توزيـع منشورات الاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين معاً وتأمين الخدمات النظامية اثنـاء المحاضرات ، كانت تجعلنا مقبولين بسهولة أكثر عندهم . غير ان ستار الحذر كان احياناً عاصياً على التبديد .

« وقد هيأ فريقنا الصغير ، بمناسبة الانتخابات للجمعية العامة للطلاب في جميع الكليات تقريباً قوائم تعتبر تحررية لكي تقف في وجـه القوائم الفاشستية . وقد تولدت موجة ضد العنصرية ذات تأثير بفضل جهل عنصري في دعاية خصومنا وبفضل جهد فعال في صفوف الاقلية الأخرى اليهودية . وكانت

الجمعية العامة المنتخبة لأول مرة في تاريخها من اليسار مهيأة لأتبـاع مطالب اتحاد طلاب فرنسا ضد اعمال التعذيب وانتهاك حرمات الشرعية ، ولقد اتضح لنا ذلك بسرعة فائقة عندما اوقف ثلاثة من الطلاب. فحررنا بالاشتراك مع بن يحيى وبن باتوش [1] عريضة تطالب باحترام مدة الحبس الشرعية في اماكن البوليس وتحذر من توقيع اي تعذيب جسدي واحدثت هذه العريضة التي نالت الموافقة بالاجماع بعض التحركات في صفوف الطلبة . ولكن نتائج الانتخابات للجمعية الوطنية الفرنسية ، سرعان ما جاءت تفرض نفسها في المقام الاول من اهتماماتنا . فكم كانت تبدو لنا النهاية عندئذ قريبة ! فلقد كان فوز اليسار في فرنسا يشجع على جميع الآمال . وكنا نرى طلابنا قلقين يفدون إلينا بتزايد : « فماذا يحل بنا بما أن المفاوضات ستبدأ وبما ان الجزائر قد تحصل على استقلالها ؟ فهـل نستطيع البقاء فيها ايضاً ؟ » وعندئذ طرأت على بالنا الفكرة بتنظيم اجتماعات بين طلبة مسلمين وطلبة اوروبيين وتم اجتماعان أو ثلاثة حيث تكلم كل شخص بحرية . وكان يفصح عن اهتمامات الاوروبيين خاصة بطريقة عدائيـة : احترام حقوق الاقليات ، احترام الثقافـــة ، احترام الدين . وكان المسلمون يجيبون على كل نقطة . وكما يجري في حالة المأساة – النفسية فان الحـالة العدائية كانت تتبدد بتبدد القلق . واستطعت ان الاحظ بأن هذا التفريج للكرب كان يحدث عندما كان المسلمون يؤكدون : انكم ، انتم ايضاً ، جزائريون مثلنا ، ولكن اذا اردتم مغادرة البلاد فانتم احرار في ان تفعلوا ما تشاؤون» .وكان الاوروبيون يجيبون على الدوام : «لا نريد أن نغادر هذه البلاد ولا نريد أن نكون اجانب فيها ». وعلى مثل هذه الأسس كانت تدور مناقشات خلاقة .

« بيد ان السادس من شباط (فبراير) كان يعد لنفسه . فالجو كان قد

---

١ – بن يحيى رئيس الاتحاد العام لطلبة الجزائر في ذلك الوقت . ثم عضو المجلس الوطني في الثورة الجزائرية . بن باتوش قائد جيش التحرير الوطني ، سقط شهيداً في ساحة الشرف .

أصبح مشحوناً بالتوتر، مثقلاً ومثيراً . وكانت ترد الينا رسائل تهديد وهواتف بالشتائم .

« وقد اوقع الفاشست النائب هرنو في قبضتهم ثم جاء دور ألبير كامو . وكنا قد ذهبنا الى محاضرته لنستمع إلى احد متقدمينا وللعمل على حمايته عند الحاجة من الفاشستيين . ولم يتوجب علينا أن نتدخل من أجل هـذه الناحية الاخيرة . وتكلم كامو في مبنى لم يسمح بالدخول اليه الا بعد تدقيق كلي . وضربت وحدات جمهورية للامن حماية حول اركانه، مسلحة، ترتدي خوذها. فقد حق لنا الاستماع الى خطاب يفيض بالتمنيات . شرح لنا طويلاً انه كانت تجب حماية السكان المدنيين البريئين غير انه عارض صراحة القيام بجمع التبرعات لصالح اسر المسجونين السياسيين البريئين فقد كنا صرعى في الصالة بينما جمهور الفاشست يردد في الخارج بايقاع : « جزائر فرنسية » ويعوي : « علقوا كامو على عامود الكهرباء » .

« غير أن هذه التظاهرات كانت تبدو لنا انهـا آخر انتفاضات الوحش الاستعماري . وحتى التظاهرة الوحشية ابان مغادرة سوستيل ، وحتى النداءات الهستيرية الصادرة عن البروفسور بوسكيه وصداها في الطلاب ، فانها لم تحركنا. فلقد كان لنا امل هائل بالحكومة الفرنسية الجديدة المكلفة من قبل الجمعية الوطنية كلها بوضع السلام . ولم نكن نشك لحظة واحدة في أن هذه الحكومة تعمل على قمع الفاشستية الجزائرية . وما كان ادوار فور واعوانه في الوسط قـد صنعوه في مراكش فانه كان من المؤكد أن غي مولليه واكثريته من اليسار سيعملون على صنعه بسهولة اكثر في الجزائر . وعندما اقول « نحن » فلست اتكلم فقط عن الاوروبيين. فانني افكر ايضاً بالمسلمين الذين كانوا مثلنا يعتقدون ان النهاية قريبة والذين كانوا يطالبوننا بأن نعمل معاً في عهد السلم الذي يوشك ان يحل كما فعلنا ذلك في زمن الحرب ...

« ثم كان يوم السادس من شباط. وكانت المدينة لمدة يومين ينتابها بكاملها احتدام حقيقي . تمر المواكب على الدوام ، رافعة العلم مثلث الالوان ،منشدة المارسيليز زاعقة : « جزائر فرنسية » . وكانت هنـــاك سيارات تمر ثم تمر ، تتطاير منها المناشير وتنطلق كلاكساتها دون توقف . فقد جرى استقبـــال غي مولليه في هذا الوسط ولم اشاهد حادثة تمثال الشهداء ولكن رفاقي رووها لي . ولم نكن نفكر في اية لحظة بأن مثل هذا الاستقبال كان يستطيع ان يجعل غي مولليه يتخـــذ قرارات على هذه الدرجة من الخطورة . كنا نعتقد على العكس انه ، وقـد اثار اوروبيو الجزائر سخطه سوف يكون اقـل تردداً ، ويتخفف من الشعور بالذنب ليفرض عليهم الحل الذي تجري المفاوضة حوله والذي كنا ننتظره جميعاً . وقد اصابنا العجب ، غاية العجب ونحن نعلم ذات يوم من بعد الظهر باستقالة الجنرال كاترو . والذي اخبرنا بذلك هو بن باتوش . فقد كان مضطرباً وابصرت خان الى جانبي يمتقع لونه ويشد على قبضتـــه من الغضب وكان الناس من حولنا يتعانقون في غمرة كبيرة من قهقهات الضحك، وينشدون المارسيليز . وفجأة اتخذت المدينة مظهر سوق خيرية واسعة . وكنت متقزز النفس لكثير من الحماقات . وبينما كنا نتفرق قال احدنا : « والآن ، لم تبق إلا جبهة التحرير الجزائرية ». وغدا الأمر جلياً بالنسبة لنا جميعاً ، بسرعة بان فرنسا وقد ابت ان تضع حـداً للاقلية الفاشستية في الجزائر فانه قد اصبح من الآن فصاعداً على جبهة التحرير الوطنية ان تفعل ذلـك ولم نعد نستطيـع ابتداء من يوم السادس من شباط توجيه ابصارنا نحو فرنسا . ذلك انه ما كان ليأتي منها الخلاص . ولقد اكد ذلـك ما تيقنته من وجـود تحجر عجيب في الشعور لدى الشعب الفرنسي اثناء سفرة قمت بها الى باريس .

« واختفت فرقتنـــا بتأثير الموجة الفاشستية ـ اللاكوستية . ومن ثم ما العمل ؟ فالاختيـار لم يكن الا ما بين لاكوست أو الجبهـة . ولم يكن لقوة ثالثة أي معنى الا اذا كانت مدعومة من اليسار الفرنسي . وابتـــداء من اللحظة التي كان اليسار الفرنسي يلعب فيها لعبة الفاشست في مدينة الجزائر

فان كل محاولة تحررية في الجزائر كانت اسطورة تمنى بالفشل . وما من واحد بيننا اخطأ في ذلك . كذلك فان الحركة اللاحقة ، التي تدعى حركة الاحرار كانت في جزء كبير منها مكونة من موظفين من العاصمة الام يمارسون عملهم في الجزائر .

كان على رفاقنا المسلمين ان يلتحقوا في الحال بالمقاومة وانتقل الشيوعيون الى الوضع السري مع قضية مايّو Maillot وقدم الآخرون بعض الخدمات وهم في اماكنهم : صندوق للرسائل ، ايواء ... الخ وكنت قد غادرت الجزائر الى مستشفى الامراض العقلية في بليدا الذي كان يتمتع بشهرته كعش « للفلاقة » وبسرعة سجلت تلميذاً داخلياً في رعاية طبيب معروف بمواقفه ضد المستعمرين ، منبوذاً من البعض ، مقبولاً لدى الآخرين . وبقيت ثمانية شهور في بليدا مهتماً فقط بعملي كتلميذ داخلي وكان تضامني مع الثورة يقتصر على ترويج المناشير وتوزيع نسخ **المجاهد** التي كانت في حوزتي . وكنت قد قبلت عملاً طبياً ولكن الفرصة بأن التزم بأكثر من هذا لم تسنح لي ابداً وفي نهاية ديسمبر ١٩٥٦ غادرت بليدا الى باريس . وكان يفسر هذا السفر أو هذا الهرب المقنع عدداً من الحجج . وفيما عدا الاسباب العائلية كانت بي حاجة للتراجع خاصة . وباعتباري لم اكن اعمل للجبهة فقد تأكدت من عدم فائدتي . وعدا هذا فان بروز الارهاب في المدن اعاد طرح مسائل وجدانية ، لم اكن استطيع معالجتها ورأسي بارد في بيئة الجزائر المحمومة . واخيراً فان خشية زوجتي (التي لا اساس لها) من ان تراني موقوفاً (غير ان التوقيفات التعسفية كانت عملة رائجة) كانت هي بلا ريب الحجة الحاسمة .

« وكنت اعتقد بأنني في فرنسا سأصادف الراحة . فلم اعثر إلا على الشعور السيء . فقد كانت الصحيفة تنقل لي كل يوم اخبار التوقيف والطرد بين اصدقائي . وكان كل خبر يفجعني . وكنت اشعر اكثر من قبل ايضاً بأنني عديم الفائدة . وحاولت ان اكافح وان ابعث فيمن حولي ردود الفعل للاحتجاج . وحاولت

ان اوقظ فيهم الشعور . ولكنه كان تعباً ضائعاً ... ذلك ان الباريسيين لم يكونوا يقلقون إلا على غدواتهم ومسرحهم وعلى عطلاتهم التي يعدون لها قبل حلولها بثلاثة شهور . وحزمت نفسي على كرههم وعلى احتقارهم ككل، هؤلاء الفرنسيين جميعهم الذين كانوا يرون ابناءهم يعذبون في الجزائر والذين لا يشغلون انفسهم إلا بجوانيتهم الصغيرة . وقذفت بكل انتساب لي الى الأمة الفرنسية فان شعبي قطعاً لم يكن هو هذا الشعب البورجوازي ، لا مثل أعلى له ، فان شعبي هذا الشعب الذي يتألم ويموت كل يوم في الجبال وفي غرف التعذيب .

« لا شك في أن هذه الردود الفعل المفرطة في بدايتها قد خفت حدتها وعقدت صداقات متينة مع رفاق داخليين ديموقراطيين كانوا يتألمون كثيراً من هذه الحرب الاستعمارية التي تقوم بها بلادهم . غير انني لم اكن اشعر بالراحة إلا مع الجزائريين المهاجرين .

«كان هذا المقام في فرنسا بالنهاية مجد . فانه قد أكد لي ما كنت احس بحاجتي إلى استكشافه من قبل : وهو انني لم اكن فرنسياً وانني ما كنت ابداً فرنسياً . واللغة والثقافة انما هي امور لا تكفي لكي ينتمي المرء الى شعب . فيجب ان يتوفر لذلك شيء آخر : حياة مشتركة ، تجارب ، ذكريات مشتركة واهداف مشتركة . وهذا كله كان ينقصني في فرنسا . فان مقامي بفرنسا قد برهن لي على انتسابي للجماعة الجزائرية ، وبرهن لي على انني غريب في فرنسا .

«وعندما اجلت قرعتي في مايو ١٩٥٨ لم يبق امامي مجال فسيح للتردد . فانني منذ زمن طويل كنت قد قررت الانضمام الى جبهة التحرير الوطنية .

«وها هو عام ينقضي الان على انضمامي للثورة الجزائرية . وباستعادة ذكريات الاتصالات الصعبة ، الغامضة التي كانت في بداية الثورة فان الخوف قد تولاني في ان ابقى جانبياً فيها . فلم يحدث من كل ذلك شيء . فقد استقبلت كأي من الجزائريين وانني في نظر الجزائريين لست حليفاً ، انني أخ ، مجرد أخ ، مثل الآخرين » .

ملحـــق (٢)

اسمي بريسون ايفون . قدمت إلى فرنسا في يوليو ١٩٤٨ بعد أن امضيت فترة شبابي كلها في الجزائر ، لمتابعة دراستي .

في عام ١٩٥٢ بعـــد تأديتي للخدمة العسكرية تقدمت وأنا في باريس إلى مسابقة للدخول في كادرات البوليس الجزائري .

وقبلت . وامضيت فترة تخصصي في الامن العـام بسان – ارنو وهي قرية كبيرة تقع في هضاب قسطنطينة العليا،على بعد ثلاثين كيلومتراً من صطيف .

وفي ٦ مايو ١٩٥٣ تسلمت العمل في وظيفتي كضابط في البوليس . وكان لدي آنئذ من العمر اربع وعشرون عاماً .

وعلينا أن نتذكر بأن سان – ارنو تقع في وسط منطقة صطيف حيث قتل في مدة ثلاثة أيام أكثر من اربعين الف من الجزائريين.وكان الاوروبيون الذين كلفت بتأمين الحماية لهم ، هم انفسهم أولئك الذين ساهموا في اصطيـاد العرب قبل عشر سنوات . وحتى عام ١٩٥٣ استمر هؤلاء الرجال يسترجعون الخواطر عن مآثرهم ويقارن كل منهم قوائم صيده بما ارتكبه الآخرون.وقد اقمت ، في سان – ارنو قليلاً من الصلات الخاصة مع اوروبيين . وعلى العكس فاني قـــد خلقت لنفسي صداقات مع جزائريين وحتى مـع بعض الوطنيين المعروفين . وكان بديهياً أن يقوم المفوضان فافيني انطوان ولامبرت ماريوس وهمـــا من رؤسائي بتحذيري.ولم يفت الاوروبيون ممن هم اكثر اهتياجاً ، تذكيري في كل سانحة ،بالقاعدة : قمع العرب واذلالهم .

وانطلقت الثورة في الفاتح من نوفمبر عام ١٩٥٤ وبسرعة فائقة احسست بانتسابي لمعسكر اولئك الذين يقاتلون من اجل أمة جزائرية . فان اعمال التعذيب التي لا حصر لها والتي كانت تسنح لي الفرصة لاراها في ممارستي لاعمال وظيفتي ، سوف تعمق حقدي على النظام الاستعماري : الذي يشد وثاق الجزائري فيه إلى سيارتين عسكريتين تسير كل منهما باتجاه معاكس للاخرى ، تعذيب كلاسيكي بالماء وبالكهرباء وتعليق بالابهام وبالخصي ...

وذات يوم ، مع ذلك ، قضت زوجتي الليل مستيقظة كما كان شأنها منذ عدة اسابيع بسبب صراخ المعذبين (كنا نقطن فوق احدى صالات التعذيب في سان – ارنو) ولم تطق صبراً على ذلك فذهبت تحتج بعنف للعسكريين ولوحدات الامن الجمهوري المسؤولين عن تلك الاعمال. فاعيدت إلى البيت يدفعها مسدسان رشاشان في رئتيها . ولقد حدث في هذه الحقبة ان قام احد اعضاء الخلية المحلية لجبهة التحرير الوطنية بالاحتكاك بي. والى هذا العضو نفسه سوف اقدم مختلف المعلومات الجديرة بمساعدة حرب التحرير الوطنية .

وهكذا فانني عملت على اخطار المسؤولين بتوقيت الكمائن وامكنتها واسماء الجزائريين المراقبين والمقاهي المشتبهة بها. واوصلت إليهم التقرير السري بكامله الموجه من المفوض فافين الى مساعد حاكم صطيف حول موضوع اعتقال الدكتور لامين دباغين في اقرب الفرص ، وهو وزير الشؤون الخارجية في الحكومة المؤقتة لجمهورية الجزائر .

وكان يحدث لي ان اخبر عن عملاء الاستخبارات من الجزائريين، المستخدمين من قبل البوليس الاستعماري . ويكون هؤلاء العملاء بداهة ، خطرين جداً ذلك انهم يتوصلون احياناً الى معرفة عدد هام من الاسرار .

وفي مايو ١٩٥٦ ، في الساعة الحادية عشرة قتل حمو عبدالله ، في الشارع

بسان – اوغستين وهو محارب قديم ، مدير اعمال مقهى عربي وواحد من أشد العملاء السريين فعالية .

ولم تنقض عدة شهور على ذلك حتى جرح جاسوس آخر بدوره جرحاً بليغاً وهو أكتوف مصطفى .

وفي حزيران من عام ١٩٥٦ سافر المفوص فافيني لقضاء اجازة بعد ان انهكه التعب لقيامه مدة شهور عديدة بجلسات التعذيب .

وكلفت عندئذ بالقيام بأعمال مفوض الامن . وحصلت من دائرة الوثائق على لائحة بأسماء جزائريين مشتبه بهم وتبدي الوثيقة النصح بقتلهم في اسرع وقت ممكن وهذه اللائحة هي عمل زميلي سفونيكس جان ومعاون رئيس الفرقة فاريني كاميل .

واخذت نسخة عنها اوصلتها مباشرة الى المسؤول المحلي . واوقفت بعد ذلك بوقت قصير . وقد قمت من قبل باطلاع المسؤول ايضاً عن حالة التسلح في بعض المراكز واحتياطات الذخيرة وبالاستناد الى هذه المعلومات فان المفوض السياسي في المنطقة الجنوبية (اذ ان المنطقتين : الشمالية والجنوبية مفصولتان بالطريق الوطني نمرة خمسة الذي يشطر القرية الى شطرين) سوف يقرر مناوشة عدة مزارع وسحق مراكز الدعم التابعة للجيش الفرنسي .

وقبل توقيفي اطلقت علي رشة من مسدس سريع الطلقات ، تغطية لمقتل بن ميحود سعيد في ٢٦ سبتمبر ١٩٥٦ على يد الميليشيا ولم اكن قد اصبت [١] .

وتزايد تنفيذ القتل بالجملة تحت اشراف قائد السلاح بويش . وهكذا فان خمسين جزائري ، على سبيل المثال سوف ينفذ فيهم القتل ويدفنون في ارض

---

١ – بن ملحود سعيد كاتب شعبي قتل في ٢٦ سبتمبر ١٩٥٦ وسلامي هو نجار قتل في ٢٥ ديسمبر ١٩٥٦ قتلتهما الميليشيا . والاثنان ورد اسمهما في قائمة المتهمين المشبوهين المطلوب قتلهما من قبل قوى السلطة .

تابعة لعمدة سان — ارنو .

وفي ١٨ نوفمبر ١٩٥٦ اوقفت بناء على امر من الجنرال دوفور واحلت امام المحكمة العسكرية التي حكمت علي بخمس سنوات حبس مع وقف التنفيذ.

انني فعلت هذه الامور جميعها باعتباري جزائرياً . ولا يخامرني الشعور بأنني قد خنت فرنسا . فأنا جزائري وككل جزائري قد قاتلت وسأستمر في مقاتلة النظام الاستعماري. فان مكاني ، من حيث انني مواطن جزائري واع، هو الى جانب الوطنيين وهذا عين ما فعلت .

خاتمة

لقد ألقينا في الصفحات السابقة، اضواء على بعص ملامح الثورة الجزائرية. فان اعظم انتصارات الشعب الجزائري تبدو منذ الآن كامنة في اصالة الثورة وخصبها السريع. هذا المجتمع الذي يتحقق، المتجدد، الطليق من أية تبعية بسيكولوجية وعاطفية او قانونية، ينفتح اليوم على احتياجات حديثة وديموقراطية من وزن فريد.

وتجد الموضوعة التي تريد الا يكون ارتقاء أي مجتمع جديد ممكناً الا في اطار الاستقلال الوطني ما يؤيدها هنا. وذلك انه في ذات الوقت الذي ينهض فيه الرجل المستعمَر بقامته قاذفاً بالاضطهاد، يتولد فيه انقلاب جذري يجعل كل محاولة لابقاء النظام الاستعماري مستحيلة ومفضوحة. وهذا الانقلاب هو الذي درسناه هنا.

صحيح ان الاستقلال يحقق الشروط الروحية والمادية اللازمة لتحول الانسان من جديد الى ما كان عليه. غير ان التبدل الداخلي وتجدد البنيات الاجتماعية والعائلية هي ايضاً التي تفرض، مع احكام القانون صعود الأمة وتفتح سيادتها.

وقد قلنا عن تصميم، ان الانسان الجزائري وان المجتمع الجزائري، كلاهما قد تجردا من الرواسب العقلية ومن التوقف العاطفي والفكري المنظم في مدة

مائة وثلاثين عاماً من الاضطهاد . وان هذا النظام الاستعماري الذي كان يمسك بالشعب بالبوليس والجيش بين حلقات من الزرد المحكمة ، هو اليوم جريح ، جرح الموت . ولقد تطور النظام الاستعماري في الجزائر تبعاً لارادة في البقاء الأزلي . ان مختلف البنى العامة المقامة في امكنتها والتجهيزات في الموانىء والمطارات ، ومنع اللغة العربية .. كل ذلك كان غالباً ما يعطي الانطباع بأن العدو كان ممعناً في غيه ويخاطر بنفسه ويهدر نصف قواه على فريسته لكي يجعل بالضبط اية قطيعة محتملة بينه وبينها مستحيلة ولا اي انفصال ... فان كل مظهر من مظاهر الوجود الفرنسي ، معبراً عن تغلغل مستديم في الزمن وفي المستقبل الجزائري كان دائماً يقرأ فيه الاضطهاد الذي لا حدود له .

ذلك ان اهمية الاستيطان الاوروبي وجشع المعمرين وفلسفتهم العنصرية ، هي التي كانت تتطلب في كل تعبير فرنسي في الجزائر ان يتضمن على اقصى ما يمكنه من التضامن والثقل . وعلى هذا النحو فان صلابة الانجازات الفرنسية وما فيها من صولة الاحتدام هي التي تحافظ على الصفة الاضطهادية في الاستعمار وتعززها .

وها هو الشعب الجزائري اليوم يرفع في وجه تاريخ الاستعمار ، تاريخ التحرر الوطني .

ويبقى علينا أن نعرف ما اذا كانت الحكومة الفرنسية سوف تأخذ بعين الاعتبار لما لا يزال ممكناً حتى الان . فقد عرضنا باختيارنا لبعض القطاعات المتميزة الاشارات الدالة على مسيرة الرجل المستعمَر المظفرة في طريقه الى التحرر . ولقد بينا انه على الصعيد الشخصي البحت وغليانه المفرط ، كانت هناك ثورة تحدث ، يتقد أوارها ، ثورة اساسية لا يمكن نكوصها ، ماضية في تبحر ابدي .

يجب أن يرجع دور الكلام الآن الى العقل . واذا كانت الحكومة الفرنسية تريد العودة الى ظروف ما قبل عام ١٩٥٤ أو حتى ظروف عام ١٩٥٨ ، فمن

المستحسن ان تعرف انه قد غدا بعد الآن مستحيلا. أما إذا كانت، على العكس تريد أن تقيم وزناً للتبدلات التي طرأت منذ خمس سنوات في شعور الانسان الجزائري، وإذا كانت تريد الاصغاء الى الأصوات المتواصلة، الصديقة، المتصاعدة من جميع اركان الدنيا ، تلاحق الثورة بتأييدها الملح وترى كفاح هذا الشعب الذي لا يدخر دماً ولا آلاماً في سبيل انتصار الحرية ، مرآة لذاتها ، فاننا نقول عندئذ ان كل شيء ما زال ممكناً بعد .

واما القول بسحق الثورة الجزائرية وعزلها وخنقها وموتها باستنزاف قواها ... ان هي الا اقوال ، كلها سوء احلام من عمى القلب .

ان الثورة من حيث انها ثورة في الاعماق، الثورة الحقيقية، تكون متقدمة جداً إلا انها تبدل الانسان وتجدد المجتمع ، فهذا الاوكسجين الذي يبدع انسانية جديدة ويعدها ، انه هو كذلك الثورة الجزائرية .

فهرست

فهرست

هذا الكتاب

بعد كتاب « معذبو الارض » ، تضع دار الطليعة بين ايدي القراء العرب الكتاب الثاني لفرانز فانون .

يبحث هذا الكتاب بالتحليل العلمي للواقع ، انسحاق المجتمع المستعمر ، وردود فعله العفوية ، ثم تأثير الثورة على البنية التقليدية والعلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع متخذاً الثورة الجزائرية كمثل ، بعد ان تناول في كتابه الاول القضايا السياسية التي تجابهها الثورة في مجتمع متخلف .

في هذا الكتاب ، يرسم فانون صورة واقعية للتغيير الذي يولد مجتمعاً ثورياً جديداً .

« الناشر »

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ٣٥٠ ق. ل.
٤٥٠ ق. س.